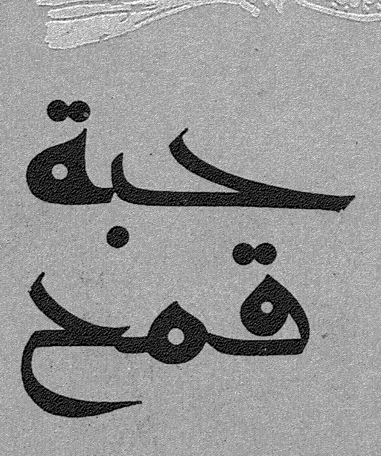
حبة قمح



بقلم نغوغي واثيونغو
ترجمة سلمان حسن العقيدي

دار المأمون

GIFTS OF 2001

FRIENDS OF BIBLIOTHECA
ALEXANDRINA ASSOCIATION
IN NORWAY

حبة قمح

حبة قمح

بقلم : نغوغي واثيونغو

ترجمة : سلمان حسن العقيدي

دار المأمون
وزارة الثقافة والإعلام
بغداد ـ ١٩٨٧

A Grain of Wheat

حبة قمح

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام
بغداد - ١٩٨٧

الطبعة الأولى

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٢٩٢) لسنة ١٩٨٧

توجه المراسلات الى:
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام
بغداد - الجمهورية العراقية
ص.ب ٢٤٠١٥ تلكس ٢١٢٩٨٤

طبع بمطابع دار الحرية للطباعة - بغداد

مقدمة المترجم

نغوغي وحبة قمح

كان اسمه جيمس نغوغي . حضر مؤتمراً كنسياً لدول شرقي افريقيا عقد في نيروبي في آذار ١٩٧٠ قال فيه : «انا لست رجل كنيسة ، بل انني لست مسيحياً» . ثار عليه أحد الشيوخ من الحضور وأكد ان نغوغي مسيحي على الرغم من ادعائه ، وان اسمه - جيمس - يدل على ذلك . لفتت تلك الملاحظة نظر الكاتب وبدأ يتساءل : لماذا يستعير الأفارقة أسماءهم واسماء مدنهم وبلدانهم من الأوربيين . في ذلك الحين أعلن تغيير اسمه الأوربي والعودة الى الإسم الأفريقي - نغوغي واثيونغو . ولم يكن التغيير في الواقع شكلياً . لقد نبع من فكر نغوغي ومن مبادئه التي تدعو الى احياء التراث الأفريقي وبعث القيم الأفريقية في مواجهة القيم الأوربية الغريبة التي عملت مدة طويلة على تخريب التكوين النفسي للإنسان الأفريقي واقتلاع جذوره من أرضه .

سافر نغوغي الى انجلتره للدراسة في جامعة ليدز عام ١٩٦٤ . وهناك عاش جو الجامعة الثوري وتعرف الى المثقفين الاشتراكيين البريطانيين وبضمنهم المشرف على اطروحته الدكتور أرنولدكتل . كما ساهم في المناقشات التي كانت تعقدها مجموعة الطلبة الثوريين

بقيادة ألان هنت . وبعد أن طاف في انحاء بريطانيا سافر الى الكثير من الدول الأوربية . وأمضى بعدئذٍ عاماً كاملاً في الولايات المتحدة بين ٧٠ ـ ١٩٧١ . وقد ساهمت كل تلك العلاقات والأسفار في بلورة مبادئه وتأكيدها وحددت اتجاهه الأدبي واهتماماته .

كتب نغوغي عدة روايات ناجحة أبرزها (النهر في الوسط) و (لاتبكِ ياولدي) و (حبة قمح) و (تويجيات الدم) ، اضافة الى محاولاته في المسرح . لكن القارىء يمكن أن يتعرف الى اتجاهاته وأفكاره عبر دراساته التي جمع أغلبها في كتاب (العودة الى الوطن) . يقول في مقدمته لهذا الكتاب : «ان الأدب لا ينمو أو يتطور في الفراغ . انه يستمد حوافزه واشكاله واتجاهاته وحتى اهتماماته من قوى المجتمع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ولا يمكن تجاهل العلاقة بين الأدب المبدع وتلك القوى ، خصوصاً في أفريقيا التي نما أدبها عبر خلفية الاستعمار الاوربي الدموية بمختلف أشكاله ـ العبودية والاستعمار الجديد . وقد تطورت ثقافتنا من المائة عام الماضية من الخلفية التحجيمية المعوقة نفسها» .

اختار نغوغي لروايته (حبة قمح) حدثاً هاماً في تاريخ بلاده ، حدثاً غير وجه كينيا من مستعمرة خاضعة للنفوذ البريطاني المباشر الى دولة مستقلة . ومن هذا الحدث الكبير تناول حفل الإستقلال في قرية رونجي والنشاطات التحضيرية له خلال الأيام الأربعة التي سبقت يوم الاستقلال . وقد وقع اختياره على هذا اليوم لأنه اضافة الى أهميته في حياة الناس ، يمثل الرمز المكثف لأحلام الفلاحين وطموحاتهم والثمرة الناضجة التي جاء بها نضالهم المرير . لقد

ضحوا كثيراً من أجل الأستقلال ، واجهوا الاعدام والقتل وعانوا ذل الحرمان والتشريد وقسوة المعتقلات وحملوا السلاح في الغابات وتقاسموا لقمة العيش مع الوحوش الضارية ، وتحملوا كل انواع الاضطهاد من أجل الاستقلال . ومما هيأهم للتضحية أكثر ارتباطهم المادي والروحي بالارض . ان الاستقلال يعني عودة الأرض المستلبة ، ويعد أهالي جيكويو ، الذين هم محور الرواية الأرض أكثر حناناً من الأم ، لأن عطاء الأم محدود وعطاء الأرض غير محدود . ذلك تراثهم . لكن حفل الأستقلال يأتي بمفاجآت مخيبة للآمال فتنسحب الجموع ببرود قبل تقديم القرابين . أية مرارة يصور بها نغوغي خيبة أمل الفلاحين ! انها لتجربة مرة حقاً أن يمجدوا انساناً لبطولاته الاسطورية ثم يكتشفوا خيانته المقيتة في اللحظات التي يريدون تتويجه بطلاً . ماذا يريد الكاتب أن يوحي بهذا الإنكسار ؟ قال الجنرال راء في خطبته ذلك اليوم : «ان الحرب لم تنته . اليوم حصلنا على الأستقلال وغداً تسألون : أين الأرض ؟ أين الطعام ؟ أين المدارس ؟ لذلك نطالب بتحقيق هذه الأمور الآن لأننا لا نريد حرباً أخرى» . ولو تذكرنا صورة النائب الجشع الذي يعمل لثرائه الشخصي على حساب ناخبيه وصورة الشرطة المرتشين واعتذار الاداريين الكبار من أبناء المنطقة عن حضور الأحتفال لانشغالهم باحتفالات العاصمة ، واشارات اخرى توزعت هنا وهناك لخرجنا باستنتاج أن نغوغي لم يكن متفائلاً بالوضع الجديد أو أن طموحاته ، وبخاصة بالنسبة الى الفلاحين ، كانت أكبر من أن تحققها الرموز التي حلت محل الادارة الاستعمارية .

لا يمكن القول ان (حبة قمح) رواية تاريخية ، اذ انها تناولت التاريخ من داخله في محاولة لاعادة خلقه فنياً . لقد وظفت الحدث التاريخي في خدمة الفن الروائي ، وتحاشت الانزلاق الى مهاوي المناقشات السياسية والعروض النظرية بتأكيدها التكوين النفسي للفرد وتتبعها لتطوره وتفاعله العضوي مع الأحداث . ولم يكن عبثاً أن يقدم الكاتب سرداً تفصيلياً لكل ما يجري داخل الشخصية وخارجها . فقد اعطت هذه التفاصيل الرواية لمسات واقعية وأشركت القارىء في أجوائها الساخنة . اننا نرافق عملية البناء النفسي لكل شخصية فاعلة في الرواية عبر المتابعة الدقيقة لعالمها الداخلي (افكارها ومشاعرها) وعالمها الخارجي (ما تتعرض له في حياتها اليومية) .

ان ابطال الرواية الذين يقودون الأحداث الرئيسة فيها هم اطلاقاً من الناس البسطاء العاديين ابناء القرى الصغيرة . ليس بينهم من يمتلك قوى خارقة أو مواصفات عقلية متميزة ، بل ان الكاتب يمعن في الكشف عن مواطن ضعفهم سواء على المستوى الفردي الخاص أو على الصعيد السياسي . وربما ساهم هذا النوع من التصوير في تعميق انسانية الشخصيات وتقريبها أكثر من واقع الحياة . وقد تنوعت النماذج التي قدمها الكاتب بحيث لم يتكرر أحدها في الآخر . فقد جعل لكل شخصية عالمها الخاص لأنه لم يعتمد الموقف النضالي عاملاً اساسياً في تحديد ملامح الشخصيات . لقد تعرفنا على جيكونيو على سبيل المثال عمله اليومي كنجار ومن طموحاته الفردية وهواجسه وحبه لمومبي ومن ثم

أنكساره بعد أن اكتشف علاقتها برجل آخر وينطبق هذا على الآخرين ايضاً .

أما الرجل الأبيض الذي يمثل الادارة الاستعمارية فيظهر في الرواية إما ضيق الأفق ومحدود النظر (تومبسون) أو قاسياً ومتوحشاً في تعامله مع الأفارقة (روبسون) . كما يبدو مخادعاً وغير شريف في تعامله مع مواطنيه البيض (فان دايك) . لكن الكاتب يتعاطف انسانياً مع اولئك الذين لم يتورطوا في السياسة الاستعمارية وجاءوا الى كينيا للعمل فقط مثل السيد روجرز والدكتوره ليند .

قد يؤخذ على نغوغي في هذه الرواية تماديه في استخدام الارتجاع الفني استخداماً قد يربك القارىء غير المتمرس ويضعف الحبكة ، لأن الخيوط التي تربط الأحداث والشخصيات تترك سائبة خارج نسيج الرواية الفعلي في كثير من الأحيان لانشغال الكاتب بالعمل في منطقة أخرى ارادها ان تكون خلفية لتلك البدايات التي اثارت فضول القارىء . لم يبدأ الكاتب من البداية فالوسط فالنهاية . انه يختار منطقة زمكانية معينة للبدء ، ثم ينتقل الى التاريخ ليلقي بعض الضوء وليعود بعد ذلك الى المنطقة الأولى قبل انتقاله الى منطقة اخرى ، وهكذا . المهم ان تكون المحصلة النهائية نسيجاً متماسكاً متين البنية .

في الفصل الأول يعرض لنا شخصية موغو المتأزمة المهزوزة . وفي نهاية الفصل يأتي وفد من الحزب لزيارة موغوفي بيته . ننتقل في الفصل الثاني الى استعراض تاريخي لوصول البعثات التبشيرية

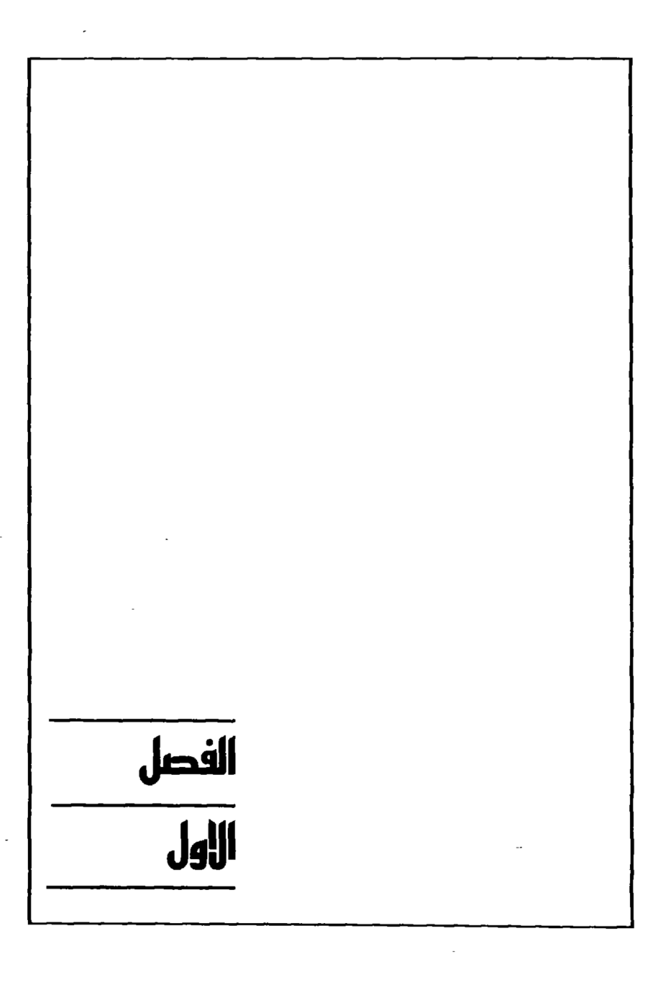
ودخول الاستعمار وبداية النشاط الوطني ضد الوجود الأجنبي . ثم يفتتح الفصل الثالث بلقاء الوفد مع موغوفي في بيته . أي أننا نعود الى الحاضر دون أن نتقدم خطوة زمنية واحدة طوال الفصل الثاني . وهذا ما يحدث في الفصل السابع الذي هو أطول الفصول . ففي نهاية الفصل السادس يلتقي جيكونيو موغوفي بيته أيضاً ليروي له مأساته الشخصية مع زوجته مومبي . وبعد أن يستغرقنا الفصل السابع على مدى عشرات الصفحات في استعراض تفصيلي لتاريخ الكثير من الشخصيات نعود في بداية الفصل الثامن الى لقاء جيكونيو وموغو . فالكاتب يربط نهاية الفصل الأول ببداية الفصل الثالث ، ثم نهاية الفصل السادس ببداية الفصل الثامن . وهذا يعني أن الفصل الثاني يمثل فجوة في واقع الاحداث والفصل السابع يمثل فجوة أخرى . لكن الكاتب يعود دائماً الى الخيوط الرئيسة التي تركها سائبة بعض الوقت .

ولا تستخدم الفصول للارتجاع حسب ، انما يمتد الكاتب الى التاريخ القريب والبعيد في كل فصل معتمداً ، أحياناً ، اسلوب الارتجاع داخل الارتجاع . فحين يعود الكاتب الى فترة زمنية أسبق ليكشف عن بداية نشاط احدى الشخصيات فانه قد ينطلق من ذلك الخط الزمني ارتجاعاً الى مرحلة طفولته ليلقي الضوء على بدء تكوينه النفسي والاجتماعي . واحكام السيطرة على عملية التنقل هذه بين الماضي والحاضر أمر بالغ الأهمية كي لا تتهاوى الحبكة وتعوم الشخصيات والأحداث . فاذا لم يحكم الكاتب سيطرته على أسلوب السرد تكون الفجوة الزمنية اسفيناً يهدد البناء الكلي للرواية .

ان كل شخصية يقدمها الكاتب تتحرك اولاً في دائرة ضيقة ثم يمتد بها الى الوراء قبل أن نتفهم دورها وقبل أن نتفاعل مع افكارها ومشاعرها ، كأن الكاتب يريد أن يساعدنا على تكوين الانطباع الصحيح عبر المؤثرات النفسية والاجتماعية التي تعرضت لها الشخصية منذ بواكير حياتها حتى تسلمها الدور الحالي في الرواية . وبهذه الطريقة عرض لنا جيكونيو وموغو وكيهيكا وكرانجا وتومبسون ، وحتى الشخصيات الثانوية مثل المرأة العجوز وابنها الأصم الابكم وواروي وغيرهم من الشخصيات التي حاول قدر جهده أن يجعلها حية وواضحة . فالقطع المتكرر في الحدث الآني أي في زمن الرواية الفعلي وتأجيل عملية ضخ المعلومات الى القارىء لا يخدم عنصر التشويق حسب ، انما يعطي فرصة لأن يلعب الارتجاع دوره في تكوين الانطباع المطلوب .

ومن المعروف ان اسلوب الارتجاع الفني ليس جديداً على الرواية الحديثة ، لكن الكتاب اختلفوا في مدى استخدامهم لهذا الأسلوب . ويشير يوستس بالمر في كتابه (مقدمة في الرواية الأفريقية الحديثة) الى أن نغوغي اتبع في روايته هذه نهج كونراد في روايته (اللورد جيم) . ويؤكد أهمية دور القارىء في الاحتكام الى الحكايات الخلفية كنقاط ضوء ضرورية من أجل فهم أعمق للشخصيات ولمجريات الأحداث .

سلمان العقيدي



الفصل الأول

أحس موغو أنه عصبي المزاج . كان يستلقي على ظهره وينظر الى السقف . حزم السخام تتدلى من السرخس والقش وتتجه الى قلبه . قطرة صافية من الماء معلقة بوهن فوقه . كبرت القطرة واتسخت بما امتصته من ذرات السخام . ثم أخذت تتجه نحوه . حاول أن يغلق عينيه لكنهما لم ينغلقا . حاول أن يدير رأسه لكنه كان مشدوداً الى السرير . بدأت القطرة تكبر وتكبر كلما اقتربت من عينيه . أراد أن يغطي عينيه بكفيه ، لكن يديه ورجليه وكل عضو فيه رفض أن يخضع لارادته . لملم موغو نفسه بيأس للقيام بحركة أخيرة فاستيقظ . كان مستلقياً تحت البطانية وظل ، كما في الحلم ، مذعوراً وخائفاً من أن تسقط في عينه فجأة قطرة ماء باردة . كانت البطانية خشنة وممزقة ، وخزت شعيراتها وجهه ورقبته والأجزاء المكشوفة من جسمه كلها . لم يعرف اذا كان عليه ان ينهض من السرير أم لا . كان الفراش دافئاً والشمس لم تشرق ، وقد تخلل ضوء الفجر في شقوق الجدار في الكوخ . حاول موغو اللجوء الى لعبة اعتاد أن يلعبها عندما يجافيه النوم سواء في منتصف الليل أو عند الفجر . في الظلام المطبق او الجزئي تفقد الأشياء حدودها الخارجية

بحيث تختلط الأشكال ببعضها . اللعبة هي ان تعرف الاشياء المختلفة في الغرفة . لكن موغو وجد هذا الصباح ، من الصعب عليه التركيز في شيء . عرف انه كان محض حلم . مع ذلك ، ظل يرتجف من فكرة سقوط قطرة باردة في عينه . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، ورمى البطانية عن جسمه . غسل وجهه وأوقد النار . اكتشف وجود كمية قليلة من طحين الذرة في كيس بين الأواني قرب أحدى الزوايا . وضع الطحين في اناء على النار ثم اضاف اليه بعض الماء وبدأ يمزجه بتحريك ملعقة خشبية . كان يحب الحساء في الصباح . ولكن كلما تناوله تذكر الحساء نصف المطبوخ الذي كان يقدم لهم في المعتقل . فكر موغو كيف يمر الوقت . كل شيء يعيد نفسه سيكون الغد مثل الأمس ومثل أول أمس .

تناول المجرفة والفأس ليكرر النمط اليومي الذي سارت عليه حياته منذ أن غادر ماغويتا ، آخر معسكر للاعتقال . ولكي يصل الى الحقل الذي يقع في الجانب المقابل من ثاباي كان على موغو أن يقطع الشوارع الترابية للقرية . لاحظ موغو كالمعتاد ان بعض النساء استيقظن قبله بحيث كن عائدات من النهر وظهورهن الرقيقة مقوسة تحت ثقل براميل الماء . كان ذلك وقت تحضير الشاي والحساء لازواجهن وأطفالهن . بزغت الشمس وظهرت ظلال الاشجار والأكواخ والناس نحيفة وطويلة على الأرض .

قال واروي وهو يخرج من أحد الأكواخ :

- «كيف تسير امورك هذا الصباح ؟»

- «على خير ما يرام» اراد موغو ان يواصل سيرة ، لكن واروي رغب

في الكلام .
ـ «تخرج الى الأرض مبكراً؟»
ـ «نعم»
ـ «هذا ما أقوله دائماً . أخرج الى الأرض وهي رخوة لتجدك الشمس هناك ، ولنْ يكون الأمر صعباً عليك . اما اذا سبقتك الى الأرض ـ هم» .

كان واروي قروياً كبير السن ملتفاً ببطانية جديدة أبرزت بشكل حاد وجهه المجعد وخصلات الشعر الرمادية في رأسه وفي ذقنه المدبب . انه هو الذي أعطى موغو الشريط الحالي من الأرض ليزرع فيها ما يسد به رمقه ، أما قطعة أرضه فقد صادرتها الحكومة عندما كان في المعتقل . ورغم حب واروي للكلام الا انه اعتاد ان يحترم تحفظ موغو . لكنه اليوم نظر الى موغو باهتمام خاص ، بل بفضول .

استمر قائلاً : «كما أخبرنا كينياتا . هذه هي أيام الاستقلال والعمل» . ثم توقف وبصق على السياج . أحس موغو بالإحراج من هذا المنظر . استمر واروي في اسئلته : «وكيف كوخك : أجاهز لعيد الاستقلال ؟ » . قال موغو وهو يهم بالذهاب : «أوه ، انه جيد» . وفي اثناء تجواله في القرية حاول أن يجد معنى لسؤال واروي الأخير .

كانت ثاباي قرية كبيرة . عندما أقيمت أول مرة ضمت عدداً من المرتفعات الضيقة : ثاباي ، كاما ندورا ، كيهينغو وبعض أجزاء ويرو . لم تكن حتى عام ١٩٦٢ قد تغيرت كثيراً عن ذلك اليوم من عام ١٩٥٥ حين جمعت بسرعة سقوف القش وجدران الطين حقاً

عندما كان سيف الرجل الابيض مسلطاً على رقاب الناس ليحميهم من أخوتهم في الغابة . تداعت اكواخ وتهدمت أخرى ، لكن القرية حافظت على شكل لم يتغير . انها تبدو من بعيد مثل كومة كبيرة من القش يرتفع منها الدخان الى السماء وكأنه يرتفع من قربان على النار .

سار موغو وهو يحني رأسه محدقاً في الارض كأنه يخجل من النظر حواليه . كان يستحضر لقاءه مع واروي عندما سمع فجأة شخصاً ما يناديه بأسمه . جفل وتوقف ، ثم نظر الى غيثوا الذي كان يعرج باتجاهه على عكازتين . عندما وصل غيثوا قرب موغو توقف باحترام . رفع قبعته وصاح : «باسم حرية الرجل الأسود أحييك» ، ثم انحنى عدة مرات بأهتمام مضحك . سأل موغو وهو لا يعرف كيف يتصرف : «هل ، هل تسير أمورك جيداً ؟». جاء طفلان أو ثلاثة وبدأوا يضحكون من سلوك غيثوا الغريب . لم يجب غيثوا مباشرة . كان قميصه ممزقاً وياقته متسخة حد السواد . وكانت رجل سرواله اليسرى مطوية ومثبتة بدبوس لتغطي ساقه المبتورة . فجأة أمسك بيد موغو : «كيف حالك يارجل ! كيف حالك ! انني مسرور لذهابك الى الأرض مبكراً . عيد الاستقلال ها ها ها ، حتى في أيام الآحاد . اخبرتك قبل حالة الطوارىء أني أشبهك ، قبل أن تفعل بي هذا رصاصات الرجل الأبيض . أستطيع العمل بيدي الأثنتين . ان قلبي يرقص فرحاً لرؤيتك . عيد الاستقلال أيها المختار انني أحييك» .

حاول موغو أن يسحب يده . كان قلبه يخفق ، ولم يجد ما يقوله .

زادت ضحكات الأطفال من اضطرابه . تغير صوت غيثوا فجأة . قال بصوت منتحب وهو يتراجع «حطمتنا حالة الطوارىء» . أسرع موغو وهو يعلم ان عيني الرجل تلاحقانه . توقفت ثلاث نساء عائدات من النهر لدى رؤيته . نادته احداهن لكنه لم يجب ولم ينظر اليهن . سار والغبار يتطاير من خلفه كأنه يركض . كان يسائل نفسه : «ما الخطأ في شكلي اليوم ؟ لماذا ينظر الناس الي بفضول ؟ هل رجلاي ملطختان بالوحل ؟ »

وصل قريباً من نهاية الشارع الرئيس حيث تعيش المرأة العجوز . لم يعرف أحد عمرها . كانت دائماً هناك جزءاً مألوفاً من القرية القديمة الجديدة . عاشت في القرية القديمة مع ابنها الوحيد الأصم الأبكم ـ جيتوغو . كان يتكلم بأصوات حيوانية حلقية تصاحبها اشارات من يديه ، وكان وسيماً قوي الجسم محبوباً في مركز رونجي القديم حيث يقضي الرجال يومهم في الأحاديث العامة . يذهب الرجال أحياناً الى اصحاب الحوانيت فيحصلون على بعض المال «كمصروف جيب فقط ، لنحافظ على دفء السروال» كما يقول بعضهم بعدم اكتراث . كانوا يضحكون ويقولون ان النقود ستجلب نقوداً أخرى من فصيلتها في الوقت المناسب .

عمل جيتوغو في المطاعم ومخازن اللحم ، اذ كان يرفع أحمالاً ثقيلة يتجنبها الآخرون . انه يحب ان يعرض عضلاته القوية . تقول الهمسات الدائرة في رونجي وثاباي ان الكثير من الشابات عرفن ثقل جسمه . في الأمسيات اعتاد جيتوغو ان يشتري الطعام ـ رطلاً من السكر ورطلاً من اللحم ـ ويعود الى امه التي يشرق وجهها بالحياة

على الرغم من التجاعيد الكثيرة . يقول الناس ، وقد تأثروا بلطف ذلك الأبكم الأصم تجاه أمه ، ما أروعه ابناً ، ما أروعه رجلاً .

استيقظ أهالي ثاباي ورونجي في أحد الأيام ليجدوا أنفسهم مطوقين بالجنود السود والبيض وهم يحملون البنادق ، وبالدبابات التي لم يروها منذ الحرب بين تشرشل وهتلر . ارتفع دخان الاطلاقات الى السماء . وضع الناس ايديهم على بطونهم . حبس بعض الرجال أنفسهم في المراحيض واختبأ آخرون بين أكياس السكر والحبوب في المخازن . ولكن آخرين حاولوا التسلل خارج القرية باتجاه الغابة فوجدوا طرق الحرية كلها مسدودة . جمع الناس في ساحة القرية وفي باحة السوق لفرزهم . أسرع جيتوغو الى أحد المخازن . قفز فوق منصة العرض وكاد يسقط على صاحب المخزن الذي اختبأ مرتعداً بين الأكياس الفارغة . تكلم بأشارات وأصوات غريبة ثم نظر خلسة واشار الى الجنود . حدق صاحب المخزن برعب أحمق في وجه جيتوغو .

تذكر جيتوغو فجأة امه العجوز الجالسة وحدها في الكوخ . رأى بعين عقله مناظر فظيعة ودماء . اندفع من الباب الخلفي وقفز فوق السياج باتجاه الحقول . وقد زاد من اضطرابه وضع أمه غير الآمن . السرعة ، البيت ، الأم ، ومضت الصور في ذهنه . لا شيء يحميها غير عضلاته . لم ير الرجل الأبيض القابع بين الأحراش . صاح الرجل الأبيض «قف» . واصل جيتوغو الركض . شيء ما أصابه في ظهره . رفع يديه في الهواء وسقط على بطنه . يبدو أن الرصاصة مست قلبه . نهض الجندي من مكانه : قتل أرهابي آخر

من الماو ماو .

حين سمعت المرأة العجوز بالنبأ لم تقل شيئاً سوى : ياالهي .

يقول الناس الذين كانوا معها انها لم تبك أو حتى تسأل كيف واجه ابنها الموت .

بعد ان غادر معسكر الاعتقال اعتاد موغو أن يرى المرأة العجوز خارج كوخها وكان يضطرب كلما وقعت عليه نظراتها . كان لها وجه صغير ممتلىء بالتجاعيد . وكانت عيناها صغيرتين ، لكنهما تلتمعان بالحياة أحياناً ، وما عدا ذلك كانتا غالباً تبدوان بلا حياة . اعتادت أن تلبس سواراً من الخرز حول زنديها وسلاسل نحاسية حول رقبتها وقطعاً من الصفيح الشبيه بالصدف حول كاحليها . اذا تحركت تصدر عنها خشخشة وجلبة مثل عنزة مطوقة بالأجراس . عيناها هما اللتان تربكان موغو . أحس دائماً بأنه عار أمام نظراتها . تحدث معها في أحد الأيام ، لكنها أشاحت بوجهها عنه . عرف انه مرفوض . مع ذلك فإن وحدتها اثارت الشفقة في نفسه . اراد أن يساعدها وقد زوده ذلك الشعور بالدفء الداخلي . أشترى لها مرة قليلاً من السكر وطحين الذرة وحزمة من الخشب . في المساء ذهب الى كوخها . كان الكوخ مظلماً من الداخل والغرفة عارية تصفر فيها الريح الباردة عبر ثقوب الجدار . كانت المرأة تنام على الأرض قرب الموقد . تذكر موغو انه هو أيضاً كان ينام على الأرض في كوخ عمته ، يتقاسم دفء الموقد مع الماعز والغنم . وغالبا ما زحف قرب الماعز من أجل الدفء . في الصباح كان يجد وجهه وملابسه مغطاة بالرماد ويديه ورجليه ملطخة بفضلات الماعز حتى

لم يعد يحس برائحتها . في خضم هذه الأفكار أحس موغو بأنها تشله بعينيها اللتين التمعتا عند رؤيته . ارتجف فجأة من احتمال أن تمسه المرأة . هرب منفعلاً . ربما كان هناك شيء مصيري في صلته بهذه المرأة العجوز .

في ذلك اليوم كانت هذه الفكرة مسيطرة على عقله . أحس برغبة في الدخول الى كوخها والتحدث اليها . شيء ما يربطه بها ، ربما لأنها تعيش وحيدة مثله . تعثر عند الباب ووهن عزمه ، ثم وجد نفسه يهرب بعيداً خائفاً من ان تستدعيه بضحكة مجنونة .

حين وصل الحقل أحس بأنه أجوف . لا توجد في الأرض غلة . وكل ما يرافق القصب الجاف من رز وخشخاش وغير ذلك ، حتى الشمس والريف وكل شيء ، بدا مريضاً وكئيباً . كانت المجرفة اثقل مما اعتاد والجزء غير المحروث الباقي من الارض أكبر من استعداده للعمل . حفر قليلاً واحس بالحاجة الى التبول . ذهب الى حرش قريب من المشىٰ . لماذا تصرف واروي وغيثوا والنساء بذلك الشكل تجاهه ؟

رفع المجرفة وغرزها في التربة . رفعها ثانية وغرزها . كانت الأرض رخوة كأن هناك قنوات حفرها خُلْد تحت سطح الأرض مباشرة . سمع الارض الجافة الجوفاء تنهار . ارتفع الغبار في الجو فاحاط به واستقر في شعره وملابسه . دخلت احدى ذرات التراب في عينه اليسرى . رمى المجرفة بغضب وفرك عينه التي آلمته حتى جرت الدموع من كلتا عينيه . أين ذلك الأحساس الرائع الذي كان يساوره عندما يرى التربة قبل حالة الطوارىء ؟

مات والدا موغو فقيرين وتركاه طفلاً بين يدي احدى قريبات أبيه التي أعتاد ان يدعوها عمته . كانت ويثريرو أرملة لها ست بنات متزوجات . كلما تسكر وتعود الى البيت تذكر موغو بهذه الحقيقة .

اعتادت ان تقول : «قذارة انثى» وتكشف عن لثتها الخالية من الأسنان . كانت ترمق موغو بنظرات قاسية كأنه يتآمر مع الآله عليها .

«لم يأتين حتى لرؤيتي . اتضحك أنت . ما قيمة رجولتك ؟ آه ، ياالهي . انظر أي جاحد خسيس قد ترك لي . كنت ستلحق بأبيك الى القبر لولا وجودي . تذكر ذلك وتوقف عن الضحك» .

وقد تشكو في يوم آخر من فقدان نقودها . كان موغو يقول وهو يتراجع الى الخلف «لم أسرقها» .

- «ولكن لا يوجد أحد غيرنا في البيت . ومن غير المعقول أن أسرق نفسي . فمن الذي أخذها ؟ »

- «انا لست لصاً» .

- «هل تعني انني اكذب ؟ كانت النقود هنا ، وانت رأيتني ادفنها هنا . انظر كيف يحدق الي ، انه يزحف خلف الماعز» .

كانت صغيرة الحجم تتشكى من ان الناس يسعون الى موتها ، يضعون قناني مكسورة وضفادع في معدتها ويريدون أن يضعوا سماً في طعامها وشرابها . مع ذلك ، كانت تخرج دائماً بحثاً عن الجعة فتزعج الرجال الى أن يعطوها شيئاً من الشراب . عادت الى البيت مرة وهي سكرى فقالت :

- «ذلك الرجل واروي ، انه يكره أن يراني آكل وأتنفس . ذلك

النحيف القذر . انه يزحف ويسعل مثلك . اذهب وانضم اليه» .

حاولت ان تقلد سعال واروي . وفي اثناء المحاولة مالت الى الأمام وسقطت على الأرض فافرغت شرابها وقذارتها . قبع موغو بين الماعز متوجساً وخائفاً من ان تلفظ انفاسها الأخيرة . في الصباح أرغمت موغو على ان يغطي قذارة القيء بالتراب . ادارت رأسه رائحة لاذعة حادة . أحس بالغثيان حتى انه لم يستطع الكلام أو البكاء . لقد تآمر العالم عليه ، أولاً في موت أبيه وامه ثم في اعتماده على عجوز شمطاء مشاكسة . كلما وهنت قواها ازدادت كرهاً له . كانت تسخر بكل ما يقول أو يفعل . وهكذا نما في نفسه احساس بعدم كفاءته . كانت لها طريقة في النيل منه ، ربما بصيغة سؤال عن ملابسه أو وجهه أو يديه بحيث تسقط كبرياءه الى الحضيض . تظاهر مرة بأنه يتجاهل آراءها . ولكن كيف يستطيع أن يغمض عينيه عن ابتسامتها ونظراتها .

تنامت رغبته في قتل عمته .

ذات مساء سيطرت عليه تلك الفكرة المجنونة . لم تسكر وثيريرو تلك الليلة . لن يستخدم فأساً أو مجرفة . سيطبق على رقبتها ويخنقها بيديه . اعطني القوة ياالهي ، اعطني القوة . راقبها وهي ترفس مثل ذبابة بين أذرع العنكبوت . سمع أنينها وصرخاتها في طلب النجدة . سيشدد الخناق اكثر وسيجعلها تشعر بقوة يديه الرجوليتين . اندفع الدم الى أطراف أصابعه ، انقطع نفسه واذهلته تماماً جرأة عمله . سألت ويثريرو وهي تضحك عبر حنجرتها :

«لماذا تحدق بي هكذا ؟ أنا أقول دائماً إنك شخص غريب من

اولئك الذين يقتلون أمهاتهم ، أليس كذلك ؟ »

رمشت عيناه . كانت نظرتها مزعجة .

ماتت ويثريرو فجأة بسبب الشيخوخة والخمر . جاءت بناتها الى الكوخ أول مرة منذ زواجهن وقد تجاهلن وجود موغو . أكملن مراسيم الدفن بلا اسئلة ولا دموع ثم عدن الى بيوتهن . بعد ذلك أحس موغو بأنه يفتقد عمته . مَنْ غيرها يمكن أن يقول عنه انه من أقربائه ؟ أراد شخصاً ما ، أي شخص يمكن أن يدعيّ قرابته سواء أكان حسناً أم سيئاً ، ما دام لا يبقى وحيداً وغريباً .

التفت الى الأرض . سيعمل ويعرق ليستطيع بالنجاح والثروة أن يرغم المجتمع على الأهتمام به . كان له عزاء اذن في حراثته الأرض . يبذر الحبوب ويراقب الأوراق الخضر ترتفع عن الأرض ، يعتني بالزرع حتى موسم النضج والحصاد . كانت تلك الأفكار جزءاً من العالم الذي خلقه لنفسه خلفيةً لأحلامه التي تحلق في السماء . لكن كيهيكا دخل حياته بعد ذلك .

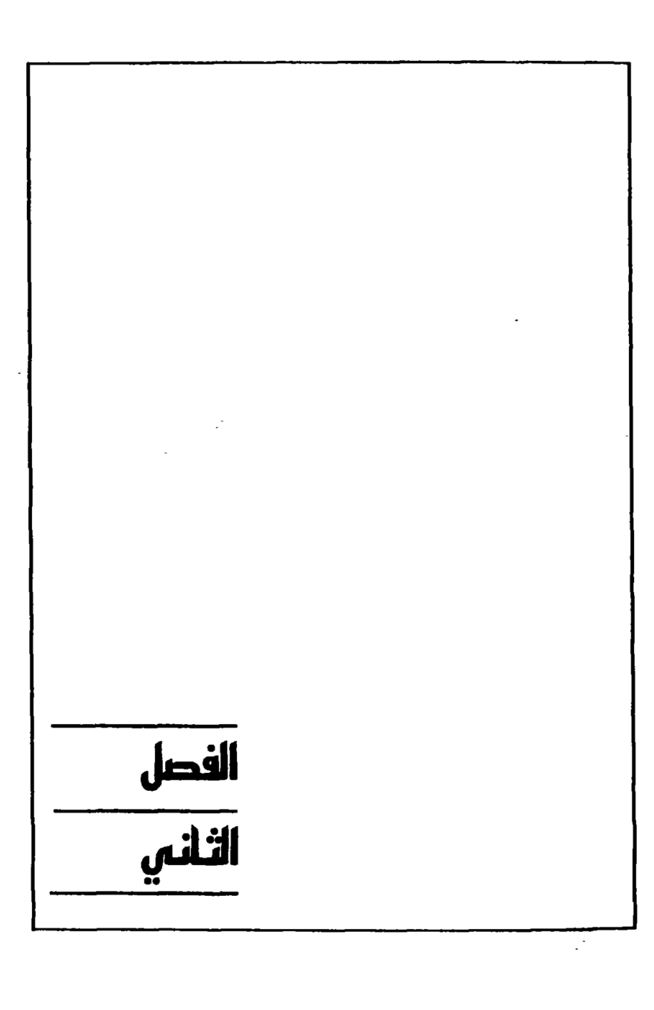
عاد موغو الى البيت قبل موعده المعتاد . لم ينجز عملاً كثيراً ، لكنه كان يحس بالتعب . سار كأنسان يعرف أنه مراقب وملاحق ، لكنه لم يرغب في أن يظهر قلقه في مشيته أو سلوكه . في المساء سمع وقع خطوات خارج الكوخ . من يكون زائره ؟ فتح الباب . فجأة تبلورت كل مشاعر النهار من خوف وعداء . كان واروي يقود المجموعة ، والى جانبه تقف وامبوي التي تعيش قرب النهر . ابتسمت وكشفت عن فكها الاسفل الذي يفتقر الى خط من الأسنان . أما الشخص الثالث فهو جيكونيو الذي تزوج أخت

كيهيكا .

ـ «تفضلوا الى الداخل» . دعاهم بصوت يكاد لا يخفي اضطرابه . ثم اعتذر لنفسه وذهب الى المرحاض . أهرب من كل هؤلاء الرجال . لم أعد أهتم . لم أعد أهتم . دخل المرحاض وأنزل سرواله الى الركبتين . كانت أفكاره تدور حول الصور الوامضة لزواره الجالسين في الكوخ . ثم عاد الى زواره وتذكر أنه لم يحييهم . قال جيكونيو وهو يصافح موغو : «نحن هنا مندوبون أرسلنا أليك الحزب» .

ـ «الحزب ؟»

ـ «نعم نحن مندوبون عن الحزب» . كررها جيكونيو ببطء . التمعت عيناه وقد أذهله تعبيره الموجز .



الفصل الثاني

كان كل شخص تقريباً عضواً في الحزب . ولكن لا أحد يستطيع القول بدقة متى ولد الحزب . كان الحزب بالنسبة الى معظم الناس ، وبخاصة الجيل الشاب ، موجوداً دائماً كمركز عمل تحريضي . تغيرت أسماؤه وتعاقب عليه القادة الا ان الحزب ظل باقياً يفتح آفاقاً جديدة ويستجمع قواه يوماً بعد آخر حتى عشية الاستقلال . لقد امتد تأثيره من أفق البحر الى الجهة الثانية من البحيرة العظمى .

تمتد اصول الحزب ، كما يقول الناس ، الى اليوم الذي وصل فيه الرجل الأبيض حاملاً كتاب الله بكلتا يديه كشاهد سحري على انه هو رسول الله . كان كلامه حلواً وتواضعه مؤثراً . تجاهل الناس ، بعض الوقت ، صوت عراف جيكويو الذي قال مرة : «سوف يأتي قوم بملابس تشبه الفراشات» . لقد اعطوا الغريب ذا الجلد المحروق مكاناً يقيم فيه بيتاً مؤقتاً . وبعد أن أكمل الكوخ قام الغريب ببناء مساحات أخرى . وهذا ما سماه بيت الله الذي يذهب اليه الناس للعبادة وتقديم القرابين .

أخبرنا الرجل الأبيض عن بلد آخر وراء البحر حيث تجلس امرأة

قوية على العرش بينما يرقص الرجال والنساء تحت ظلال سلطتها وسيادتها . وهي مستعدة لنشر ظلالها كي تغطي بلاد جيكويو . ضحك الناس من ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي احترق جلده حتى زالت عنه القشرة الخارجية السوداء . لا بد ان الماء الحار الذي أحرقه قد نفذ الى رأسه .

مع ذلك ، فإن كلماته عن امرأة على العرش قد مست قلوبهم ونفذت الى أعماق تاريخهم . قبل سنين طويلة مضت حكمت النساء أرض جيكويو . لم تكن للرجال ملكية خاصة . كان عليهم أن يلبوا أهواء النساء وحاجاتهن كانت تلك أياماً صعبة . انتظروا الى ان ذهبت النسوة الى الحرب فحاكوا مؤامرة . أقسموا على سرية العمل الذي يربطهم من أجل نيل حريتهم . اتفقوا على أن يناموا مع النساء كافة في ليلة واحدة ، لأنهم يعرفون أن البطلات سيعدن متلهفات الى الحب والاسترخاء . أكمل القدر بقية المؤامرة . أصبحت النساء كلهن حوامل . لذا لم يواجه الانقلاب بمقاومة مؤثرة .

لكن ذلك لم ينه سلطة المرأة في هذه الأرض . فبعد سنوات حكمت أحدى النساء مقاطعة كبيرة في موارنجا . كانت جميلة ، وكانت عندما ترقص تهز وركيها المدورتين الى هذه الجهة وتلك . فيرتفع شعرها الملتوي ويسقط خلفها بتناغم مع خطواتها . ذلك الرقص وبريق اسنانها الحليبية جعل الرجال يلعقون شفاهم بالسنتهم شهوة . اعتاد الشباب والشيوخ ان يتجمعوا بلا خجل حول بلاطها منتظرين تحقيق الأمل . لكن وانغو ماكيري اختارت

لنفسها المحاربين الذين اصبحوا موضع غيرة الآخرين الأقل منهم حظوة وحسدهم . مع ذلك ، بقي الرجال يتوددون لها ولا يغيبون عن رقصة تساهم فيها . تشوق الكثيرون بيأس لرؤية فخذيها . وجاءت ليلة دفعها فيها اعجاب الآخرين ، او ربما ارادت ان تحقق شوقهم الفاضح ، الى أن تتجاوز وانغو ماكيري حدودها . نزعت ملابسها كلها ورقصت عارية في ضوء القمر .

أستثير الناس برهة ببهاء جسدها العاري . خدعها القمر . ارتسمت على وجهها نشوة ، هي مزيج من العذاب والمتعة . ربما عرفت ان تلك هي النهاية . لم يسبق أن مشت أو رقصت امرأة وهي عارية أمام الناس . هكذا أزيحت وانغوماكيري عن العرش ، وقد كانت آخر امرأة عظيمة من جيكويو .

لم يفهم الناس المسيح بادىء الامر . اذ كيف يمكن للرب أن يدع الانسان يُسمره على شجرة ؟ تحدث الرجل الأبيض عن ذلك الحب الذي يتجاوز حدود الإدراك ، الحب العظيم الذي لا يجدر بأحد غيره . ثم أخذ يقرأ في كتاب أسود صغير عن تضحية الانسان بحياته من أجل اصدقائه .

بدأ القليلون ممن اعتنقوا الديانة الجديدة يتحدثون بايمان غريب عن اساليب هذه الارض . وقد داسوا على الاماكن المقدسة ليظهروا ان اولئك الذين يحميهم الرب لا يطولهم الأذى . لاحظ الناس خلال فترة قصيرة أن الرجل الأبيض حصل تدريجياً وبطريقة خفية على المزيد من الارض لتلبية الحاجات المتزايدة لمركزه . لقد هدم الكوخ وأقام بنايات ثابتة . اعترض الشيوخ الملتصقون بالارض ، فقد

نظروا الى ما وراء الوجه الضاحك للرجل الابيض وشاهدوا صفاً طويلاً من الغرباء الحمر الذين لا يحملون الانجيل ، بل السيف .

حمل وياكي والقادة المحاربون الآخرون السلاح . ان الافعى الحديدية التي تحدث عنها موغو وأكيبيرو سرعان ما شقت طريقها نحو نيروبي من أجل استغلال الاراضي النائية استغلالاً كاملاً . هل هم قادرون على ازاحتها ؟ لقد تمسكت الأفعى بالأرض وضحكت ساخرة من جهودهم . بدأ الرجل الأبيض يضرب كل من يتصدى له بقضبان الخيزران التي تتقيأ النار والدخان . ظلت ضحكته الشريرة تتردد في قلوب الناس ، حتى بعد ان اعتقل وياكي واقتيد الى الساحل مقيد القدمين واليدين . قيل بعد ذلك ان وياكي دفن حياً وراسه يواجه مركز الأرض كأنذار حي لكل من تسول له نفسه تحدى سلطة المرأة المسيحية التي تنشر ظلها على البحر واليابسة .

لم ينتبه أحد آنذاك . ولكن عندما ننظر الى الوراء يمكننا القول ان دم وياكي يحتوي على بذرة أو حبة هي التي أينعت حزباً سياسياً يستمد قوته الاساسية من ارتباطه بالأرض .

وفي الوقت نفسه ولّد وجود البعثات التبشيرية في ظهور قادة جدد ، قادة رفضوا أن يأكلوا طعام فرعون . وبدلاً من ذلك اختاروا قطع الاعشاب وصناعة الطابوق مع الآخرين .

رأى الناس في هاري ثوكو رجلاً يحمل رسالة من الرب ، اذهب الى فرعون وقل له : ارفع يدك عن شعبي ، ارفع يدك عن شعبي . وأقسم الناس أن يتبعوا هاري عبر الصحراء . سيشدون الاحزمة على بطونهم استعداداً لتحمل الجوع والعطش والعرق والدم الى أن

تطأ أقدامهم ساحل كنعان . توافدوا الى اجتماعاته منتظرين أن يعطيهم الاشارة . أدان هاري الرجل الأبيض ولعن الحماية التي حرمت الناس من ارضهم وحريتهم . وقد ادهشهم بقراءة رسائل موجهة الى الرجل الابيض عبر فيها بوضوح عن عدم قناعة الشعب بالضرائب واعمال السخرة في اراضي المستوطنين البيض وبخطة استيطان الجنود بعد الحرب العالمية الثانية ، تلك الخطة التي تركت الكثير من السود بلا مأوى ولا أرض في تيجوني ومناطق أخرى .

دعاهم هاري الى الانضمام الى الحزب وتحقيق القوة عن طريق الوحدة .

كانوا يتحدثون عنه في بيوتهم . غنوا له قصائد المديح في المقاهي والأسواق وفي طريقهم الى كنائس جيكويو المستقلة أيام الأحاد . وكانت كل كلمة تخرج من فم هاري تصبح خبراً ينتقل من قرية الى أخرى في كل أنحاء البلاد . انتظر الناس حدوث شيء ما . كانت ثورة الفلاحين توشك أن تنفجر .

ومن جهة اخرى لم يكن الرجل الأبيض غافلاً . لقد كبل الشاب هاري بالقيود وأوشك أن يلقي به في حفرة كتلك التي دفن فيها وياكي حياً . هل كانت هذه هي الإشارة التي ينتظرونها ؟ ذهب الناس الى نيروبي وأقسموا أن يقضوا الليالي والأيام خارج دار الحكومة حتى يرد لهم الحاكم نفسه قائدهم هاري . كان واروي شاباً فسار الطريق كله من ثاباي لينضم الى التظاهرة . لم ينس تلك الحادثة ابداً . وعندما اعتقل جومو كينياتا قادة الحزب الآخرون عام ١٩٥٢ تذكر واروي تظاهرة ١٩٢٣ .

قال وهو يمسك لحيته بلطف : «يجب أن يفعل الشباب من أجل جومو ما فعلناه نحن من أجل هاري . لم أر أبداً ما يشبه ذلك الحشد الكبير من الرجال والنساء . لقد سرنا من هذه القرية وتلك ، ومن كل مكان . سار أغلبنا على أقدامهم وجاء بعضنا بلا طعام فتقاسمنا الكميات القليلة التي جئنا بها . لقد رأيت حباً عظيماً هناك . سقطت حبة على الأرض وتقسمت سريعاً بين الأطفال . تجمعنا ثلاثة أيام في نيروبي وكتبنا بالدم قسماً لتحريرهاري .

«في اليوم الرابع تقدم الناس الى الأمام وهم يغنون . أما رجال الشرطة الذين كانوا متربصين ببنادقهم المشرعة فقد فتحوا النار على المتظاهرين . رفع ثلاثة رجال أيديهم . قيل إنهم قبسوا حفنات من تراب الارض في قبضاتهم عندما سقطوا . حين فتحت النار مرة أخرى تفرقت التظاهرة . سقط رجل وامرأة وتدفق دمهما . تراكض الناس في كل الاتجاهات . وفي بضع ثوان تفرق الحشد الكبير ولم يبق سوى خمسة عشر حارساً خارج دار الحكومة» .

قال واروي أيضاً وقد توقف عن مسح لحيته : «حدث خطأ ما في اللحظة الأخيرة . ربما لأننا لم نكن نحمل الرماح ...»

فشلت ثورة الفلاحين . وهدأ شبح المرأة العظيمة التي أنهت الحروب القبلية بيدها المسيحية . لا بد انها تستقر الآن في قبرها بسلام .

أرسل الشاب هاري الى منطقة نائية من البلاد . ارتبك الحزب فترة محدودة . في ذلك الوقت ظهر على مسرح الأحداث الرجل ذو العينين الملتهبتين . لم يعرفه الا القليل في البداية . بعد ذلك عرف في

كل انحاء العالم باسم الرمح الملتهب .

حضر موغو مرة اجتماعاً للحزب عقد في رونجي لأن الاشاعات قالت ان كينياتا الذي عاد تواً من بلاد الرجل الأبيض سيتحدث فيه . وعلى الرغم من أن الاجتماع عقد بعد الظهر ، الا إنه لم يبق مكان شاغر . في الساعة العاشرة صباحاً وقف الناس على سقوف الحوانيت مثل الجراد المحتشد فوق الأشجار .

جلس موغو في مكان يستطيع منه رؤية الخطباء . وجلس جيكونيو النجار المعروف في ثاباي على بعد خطوات منه . وجلست مومبي الى جانب النجار ، كانت من أجمل النساء في القرى الثماني كافة . بعض الناس كانوا يدعونها وانغو ماكيري بسبب جمال نظراتها .

بدأ الأجتماع بعد مرور ساعة على موعده . علم الناس ان كينياتا لن يحضر الاجتماع . كان هناك ، على أية حال ، خطباء كثيرون من مورانغا ونيروبي . وهناك أيضاً خطيب من لوو في نيانزا ليؤكد الحزب رفع الحواجز بين القبائل . وكان كيهيكا من ثاباي أحد الخطباء الذين قابلهم الجمهور بحفاوة كبيرة ، فهو لم يتحدث بمنطق ارسال الرسائل الى الرجل الأبيض كما هو المعتاد أيام هاري .

قال : «لسنا في عام ١٩٢٠ . اننا بحاجة الى عمل ، الى ضربة يكون لها صداها» . في أثناء خطابه قطعت بعض النسوة ثيابهن وقصصن شعورهن وصرخن بفرح غامر . ان كيهيكا ، أبن الأرض ، قد بدا واحداً من ابطال التحرير . اما موغو الذي كان يرى كيهيكا في القرية عدة مرات فانه لم يشك في ان الرجل يمتلك مثل هذه القوة والمعرفة . تحدث كيهيكا عن التاريخ القبلي ومجيء الرجل الأبيض

وميلاد الحزب . ألقى موغو نظرة على جيكونيو ومومبي . كانت عيونهما مثبتة في كيهيكا كما لو كانت حياتهما معلقة بكلماته .

«ذهبنا الى كنائسهم . كان موبيا يلبس جلباباً أبيض حين فتح الانجيل وقال : «اركعوا لنصلي ، فركعنا . قال موبيا : لنغمض عيوننا ، ففعلنا . وكما تعلمون بقيت عيناه مفتوحتين كي يقرأ . عندما فتحنا عيوننا كانت الأرض قد سرقت وسيوف النار قد جردت . أما موبيا فقد واصل القراءة طالباً منا ان نضع كنوزنا في السماء حيث لا حشرة تفسدها . ولكنه وضع كنوزه في الأرض ، في ارضنا» .

ضحك الجمهور ، لكن كيهيكا لم يشاركهم الضحك . كان صغيراً ذا صوت قوي ، يتكلم ببطء ويشدد على المقاطع المهمة . وقد اشار مرة أو مرتين الى السماء والارض كما لو كان يدعوهما للشهادة على صدق ما يقول .

وقد تحدث عن التضحية الكبيرة .

«سيأتي يوم يتخلى فيه الأخ عن أخيه والأم عن ابنها عندما نسمع نداء شعب مضطهد» .

أحس موغو بانقباض في حنجرته . لم يستطع ان يصغي لكلمات لا تؤثر فيه . أي حق يملكه هذا الصبي ، الأصغر من موغو ، ليتحدث بهذه الطريقة ؟ أي غرور ! فكر موغو في أن كيهيكا تحدث عن الدم بالسهولة التي يتحدث عن أخذ الماء من النهر . أحس دائماً بغثيان عند رؤية الدم أو شم رائحته . سمع نفسه وهو يقول : «أنا أكرهه» فخاف . نظر الى مومبي وتساءل فيم كانت تفكر . ما

زالت عيناها مسمرتين في أخيها . كل العيون تتجه اليه . شعر موغو بقليل من الغيرة عندما استدار هو الآخر ونظر الى الخطيب . في تلك اللحظة تلاقت عيونهما فأحس بالذنب . خيم الصمت برهة على الجمهور وعلى العالم كله . لم يبق على المسرح الا كيهيكا وموغو . شيء ما تحفز للخروج من قلب موغو . كان ذلك الشيء ، في الحقيقة ، احساساً متوتراً بالخوف والحقد .

قال كيهيكا : « راقبوا وارفعوا الدعاء» مذكراً الجمهور بالمثل السواحيلي المعروف . عاش كيهيكا كلمات التضحية التي تحدث بها الى الجمهور . عندما اعتقل جومو والقادة الآخرون في تشرين الأول ١٩٥٢ اختفى كيهيكا في الغابة . بعد ذلك تبعه بعض الشباب من ثاباي ورونجي .

ان اعظم انتصار حققه كيهيكا هو الاستيلاء على (ما هي) . كانت (ما هي) حامية شرطة كبيرة في الوادي الصخري الذي سمي سنوات عديدة قلب التلال البيضاء . وكان فيها سجن مؤقت للرجال والنساء الذين يرسلون الى معسكرات الاعتقال . وبسبب موقعها المركزي كانت (ما هي) تغذي ، بالاسلحة والعتاد ، مواقع الشرطة والجيش المنتشرة في الوادي لحماية المستوطنين في كينيا ورفع معنوياتهم . ولو وقفت في (ما هي) ، في اي وقت من اليوم ، لرأيت جدران الخندق منتصبة كحارس رائع لواحد من أجمل الوديان في البلد . ترتفع الجدران تدريجياً الى صف من التلال الصغيرة التي نحتت قمم بعضها بشكل مدور بينما حمل بعضها الآخر فوهات براكين غلفت بطبقة من الضباب والغموض .

في الليل يختفي الوادي في الظلام ما عدا بعض الأضواء خارج (ما هي) . كان الوادي هادئاً ، فقد اقتدى الحراس بضباطهم البيض الذين اعتادوا حياة الترف والفجور . كانوا قد شربوا الخمر وذهبوا للنوم تاركين عدداً قليلاً منهم للحراسة التزاماً بالتقاليد ، لأن اسم (ما هي) وحده كاف لأن يحميها من أي هجوم . فجأة قطعت الصمت مرة واحدة أصوات الأبواق المختلفة والصفائح . وتجاوبت معها من السجن صيحة الأستقلال . اما الضابط المسؤول الذي أيقظه ذلك الاضطراب من خدر الويسكي فقد تناول الهاتف غريزياً محاولاً ان يرتدي سرواله ويدير القرص في الوقت نفسه . سقط فجأة الهاتف من يده وانطوى السروال الى الأسفل . قطعت اسلاك الهاتف . ولم تقاوم الشرطة كثيراً الهجوم المفاجىء الذي شنه كيهيكا ورفاقه . تسلق بعض رجال الشرطة جدران الوادي طلباً للنجاة . كسر رجال كيهيكا السجن واطلقوا سراح السجناء في الليل . أشعلت النار في الحامية وانسحب كيهيكا الى الغابة بعد أن أخذوا المزيد من الرجال والاسلحة والعتاد ليواصلوا الحرب بطريقة لم يحلم بها أحد أيام وياكي والشاب هاري .

أصبح كيهيكا رعب الرجل الأبيض . قال الناس انه يستطيع أن يحرك الجبال ويستنزل الرعود من السماء .

وضع ثمن لرأسه .

أي شخص يأتي بكيهيكا حياً أو ميتاً يقبض مبلغاً من المال .

بعد عام اعتقل كيهيكا وحيداً عند طرف غابة كينيني .

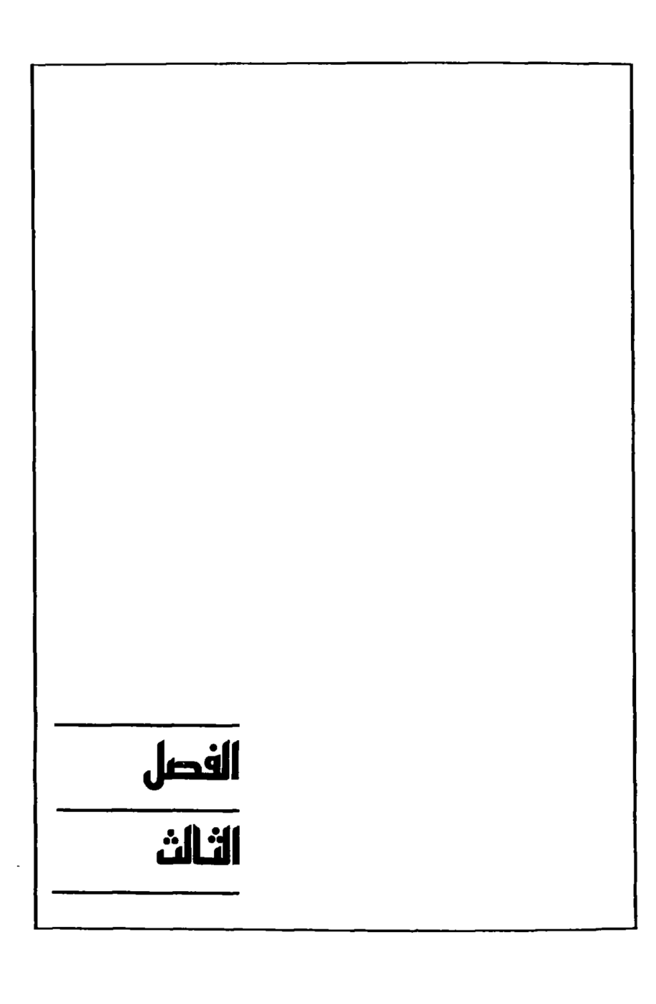
هل تصدق ذلك ؟ ان الرجل الذي يرغم الاشجار والجبال على

الانتقال من أماكنها ، الرجل الذي يستطيع الزحف على بطنه مسافة عشرة أميال في الرمال والاعشاب الشوكية لا يمكن أن تطوله يد الرجل الأبيض .

عذب كيهيكا . قال بعض إن قسم التحريات الخاصة أدخلوا عنق زجاجة في أسته كمحاولة لانتزاع أسرار الغابة منه . وقال آخرون عرضت عليه مبالغ كبيرة من المال وبطاقة سفر الى انجلترة ليصافح يد المرأة الجديدة على العرش . لكنه رفض الكلام .

اعدم كيهيكا علنا في باحة السوق في رونجي ، ليس بعيداً عن المكان الذي دعا الناس فيه الى اراقة الدماء كي تسقى شجرة الحرية . اجبر الحرس ورجال الشرطة الناس في ثاباي والقرى المجاورة على التجمع لرؤية جسد الثائر وهو معلق على شجرة كي يكون عبرة لهم .

على أية حال ، بقي الحزب حياً يتغذى من الجروح التي خلفها كيهيكا .



الفصل الثالث

قال جيكونيو بعد صمت : «لن نتأخر طويلاً . جئناك من أجل احتفالات الاستقلال يوم الخميس» .

عندما تنظر الى جيكونيو لا تصدق أنه الرجل نفسه الذي اثار زواجه من مومبي قبل ثلاث عشرة سنة موجة من الغضب بين الخطّاب الشباب . ما الذي أعجب مومبي فيه ؟ كيف يمكن لأمرأة بمثل جمالها أن تسير الى الفقر مفتوحة العينين ؟ الآن ، وبعد أربع سنوات من عودته من المعتقل الى البيت ، أصبح جيكونيو أغنى رجل في ثاباي . اشترى مزرعة مساحتها خمسة دونمات وامتلك مخزناً تجارياً في رونجي (محلات جيكونيو العامة) . واشترى سيارة نقل مستعملة للاغراض التجارية قبل يومين فقط . وفوق ذلك كله انتخب رئيساً لفرع الحزب تقديراً ، كما يقول الناس ، لرجولته التي لم يستطع أي معتقل أن يؤثر فيها . كان جيكونيو يمثل الرمز لما يطمح ان يكون عليه كل شخص ، فهو يمتلك شخصية مستقلة ويبذل كل جهده من أجل النجاح في أي مشروع يبدأ به . سأل موغو وهو يرفع عينيه الى واروي : «ماذا ... ماذا تريدون ؟ »

كانت حياة واروي تمثل قصة حياة الحزب . لقد ساهم في

الاجتماعات التي عقدها الشاب هاري ، وساعد في بناء المدارس الشعبية ، واستمع الى خطب جومو في العشرينات . وكان واروي واحداً من القليلين الذين رأوا في موظف بلدية نيروبي رجلاً قدر له ان يتسلم السلطة .

كان يقول عن جومو : «سيفعل أشياء عظيمة . يمكن أن ترى ذلك في عينيه» . نظر واروي الى الموقد . هناك مصباح نفطي يغطي السخام عنقه وجانبيه . بدأ قائلاً : «يجب علينا ، نحن أهل قرية ثاباي . أن نؤدي دورنا» . كان صوته واطئاً ، ولكنه احتضن الغرفة كلها . «نعم ، يجب ان نرقص على الأغنية بالطريقة التي نعرفها ، وان لا ندع أحداً يقول ان ثاباي لطخت بالعار أسماء ابنائها الذين فقدتهم في الحرب . كلا ، علينا أن نبعثهم حتى لو كانوا موتى ليساهموا معنا . هل هناك أغنية أحلى من أغنية الحرية ؟ في الحقيقة ، كنا ننتظرها بعيون ساهرة زمناً طويلاً . ان اولئك الذين رحلوا قبلنا ، واولئك الذين عاشوا ليروا الشمس اليوم ، وحتى اولئك الذين سيولدون غداً ، يجب أن يساهموا في الأحتفال . عندما نمسك (وياثي) بايدينا نريد أن نشرب من جرة اليقطين نفسها . نعم ، نشرب من جرة اليقطين نفسها» .

اعقب الصمت هذه الكلمات . انصرف كل شخص الى نفسه كأنه يدير الكلمات في ذهنه . تنحنجت المرأة اشارة الى انها ستأخذ الحديث من واروي . نظر اليها موغو .

لم تكن وامبوي كبيرة السن على الرغم من انها فقدت معظم اسنانها . في أيام الطوارىء كانت تنقل الأسرار من القرى الى الغابة

وتعود بغيرها الى القرى والمدن . وقد عرفت الحركات السرية في ناكورو ونجورو وايلبورغون ومناطق أخرى داخل الوادي الصخري وخارجه . قيل انها كانت مرة تحمل مسدساً مربوطاً الى فخذها ، وكانت ترتدي ملابس شتوية فضفاضة لتمثل صورة الشيخوخة المتداعية . كانت تنقل المسدس الى نيفاشا . وقد شاء سوء الحظ أن تقع في احدى العمليات البوليسية العديدة التي ابتلي بها البلد . جمع الناس في الساحة خلف المخازن . بعد ذلك جاء دورها لتفتش . بدأ سنها يؤلمها فلوت شفتيها وبدأت تتأوه . تحدر اللعاب من جانبي فمها ونزل الى ذقنها . قال رجل البوليس في جيكويو باللغة السواحيلية : أيتها الأم المسكينة ! وصدرت عنه أصوات تعاطف أخرى ، لكنه استمر في التفتيش . بدأ بالصدر ثم مد يديه تحت الابطين وحاول ان ينزل باتجاه المكان الحساس . صرخت وامبوي فجأة ، وتوقف الرجل مندهشاً .

قالت : «أي اولاد انتم هذه الأيام . هل فقدت حياءك . ما أن يأمرك الرجل الأبيض حتى تفعل ذلك . حري بك ان تلمس ... أمك . تلك المرأة التي ولدتك . حسناً ، سأرفع ملابسي لتنظر الى أمك . انها كبيرة السن ، فأي شيء ستجنيه بقية حياتك ؟» .

تظاهرت بإنها تريد فعلاً أن ترفع ثيابها وتعرض عريها ، فادار الرجل وجهه لا ارادياً . قال وهو يزمجر في وجهها «انصرفي من هنا .. التالي» . لم ترو وامبوي هذه القصة أبداً ولكنها لم تنكرها . اذا سألها الناس عنها فإنها تبتسم فقط إبتسامة مبهمة .

قالت وامبوي : «ان الأمر يشبه ما كان يفعله آباؤنا عندما

يصبون الجعة على الأرض قبل أن يشربوا . لِمَ يفعلون ذلك ؟ لأنهم كانوا دائماً يتذكرون أرواح الذين دفنوا في الأرض . نحن أيضاً لا نستطيع نسيان أبنائنا . كان كيهيكا رجلاً عظيماً» .

جلس موغو متخشباً على كرسيه . راقب واروي المصباح سيء الأضاءة الذي جعل جو الكوخ معتماً بشكل مخيف . اتكأت وامبوي بكوعيها على ركبتيها واضعة ذقنها بين كفيها . حدق جيكونيو في الفراغ .

سأل موغو بما يشبه الرعب في صوته : «ماذا تريدون ؟»

فجأة سمعوا طرقاً عالياً على الباب الخارجي . كل العيون اتجهت صوب الباب . زاد الفضول من التوتر . ذهب موغو ليفتح الباب .

حالما دخل الضيوف الجدد صرخ واروي : «الجنرال» . سار موغو خلف الرجلين . كان أحدهما طويلاً حليق الوجه ذا شعر مقصوص بعناية . اما الرجل الأقصر فقد صفف شعره جيداً . كانا من المناضلين الذين غادروا الغابة حديثاً بمناسبة العفو العام الذي رافق الأستقلال .

دعاهما موغو الى الجلوس : «تفضلا واجلسا على الفراش» . فزع من صوته . كان صوته واهناً وصدئاً ذلك اليوم . كل شيء غريب . نظرات الناس وحركاتهم تخيفني . انا لست خائفاً حقاً ، لأن ... لأن حياة انسان مثلي ليست مهمة . و ... و ... ياالهي ! لم أعد أهتم . أنا لا ... أنا لا ... لقد خفف وصول الرجلين من حدة التوتر المتصاعد . كان الجميع يتحدثون . ضج الكوخ بهمهمة واطئة مثيرة . كانت وامبوي تشرح شيئاً عن الاستعدادات لحفل

الاستقلال للرجل ذي الشعر المصفف . كان في الغابة يدعى الملازم كونياندو . أما الرجل الطويل فكان جنرالاً . الجنرال ر .

صاح كويناندو وهو يضحك : «قربان ! قربان ! سنأكل اللحم ، خروفاً بأكمله . في الغابة لم نأكل غير اوراق الخيزران والخنازير البرية ـ »

قالت وامبوي وهي تضحك معه : «وماذا تعرف عن القربان ؟ »

ـ «أوه . لقد قدمنا الكثير من القرابين ـ خنازير برية ـ ثم أكلنا لحمها بعد ذلك . كنا نصلي مرتين في اليوم وصلاة اضافية قبل كل حملة للحصول على السلاح من الحقول الأوربية . كنا نواجه جبل كينيا :

مونيانياغا اننا نصلي من أجل أن تحمي مواقع اختفائنا .
مونيانياغا اننا نصلي من أجل أن تبقي غيمة هادئة مؤقتاً .
مونيانياغا اننا نصلي من أجل أن تدافع عنا من الأمام والخلف .
مونيانياغا اننا نصلي من أجل أن تعمر قلوبنا بالشجاعة .

كنا نغني أيضاً :

لن نستريح
دون أرض
دون حرية حقيقية
أن كينيا هي بلد الشعب الأسود .»

كل شخص توقف عن الكلام وأصغى الى أغنية كونياندو . كادت النغمة الحزينة لكلماته ان تنبو عن مرجه الظاهري . ثم خيم

الصمت فجأة . لا شيء من هذا حقيقي ... ساصحو من حلمي حالاً ... سيكون كوخي خالياً ، وسأجد نفسي وحيداً كما كنت دائماً . سعل جيكونيو بجفاف . أجفل واروي :

ـ «برد ؟ أنا أقول هذا دائماً . ان شباب اليوم فقدوا قواهم . أنهم لا يستطيعون مقاومة مرض بسيط . أتعلم اننا في أيامنا كنا ننام في الغابة ليالي طويلة بانتظار ماساي . لقد دعكت الريح رقابنا وبلل الندى ملابسنا . مع ذلك لم يسعل أحدنا في الصباح ، ولا حتى اضعف الرجال فينا» .

نظر المناضلان الى واروي . لقد بقيا في الغابة اكثر من سبع سنوات . لكن لا أحد يستطيع ان يتحدى واروي .

سأل الجنرال ر فجأة كأنه يواصل حديثاً سابقاً : «ما قيمة الصلاة ؟ انها لم تساعد كيهيكا . آمن كيهيكا بالصلاة . كان يقرأ الانجيل يومياً ويحمله معه أينما ذهب . ان ما لا أفهمه هو : لماذا لم يهمس الله كلمةً ـ كلمة واحدة فقط ، ينذر بها كيهيكا أن لا يسير الى الفخ ؟ »

سأل جيكونيو بسرعة : «فخ ؟ هل تريد أن تقول إن أحداً ما خانه ؟»

قالت وامبوي : «ذكر الراديو انه وقع في الأسر في معركة قتل فيها الكثير من مجموعته» .

تمهل الجنرال ليتمتع بهذا الأهتمام الذي أثاره . حدق الى الأرض مفكراً :

«في ذلك اليوم كان ذاهباً ليلتقي شخصاً ما . غالباً ما كان يذهب

وحده ليتعقب أو يصفي شخصية خطرة مثل ضابط المنطقة روبسون . ومع ذلك كان دائماً يطلعني على خططه . في ذلك اليوم لم يخبرني بشيء . كان منفعلاً جداً . ويمكن القول إنه كان سعيداً . لكنه يغضب كلما قاطعه أحد . لم يكن ينسى أن يأخذ الأنجيل معه . لكنه في ذلك اليوم تركه خلفه . ربما لأنه لم ينو التأخر طويلاً .»

بحث الجنرال في جيبه وأخرج انجيلاً صغيراً سلمه الى جيكونيو . مد كل من واروي وو امبوي عنقيهما الى الأمام بفضول كأنهما طفلان صغيران . تصفح جيكونيو الأنجيل الصغير وتباطأ عند بعض الأسطر التي أشر كيهيكا تحتها بالأسود والأحمر . ارتجفت اصابعه . توقف عند المزمور ٧٢ حيث خط بالأحمر تحت سطرين منه .

سألت وامبوي بفضول : «ما هي تلك الخطوط الحمراء ؟»

قال واروي : «اقرأ بعض السطور» .

قرأ جيكونيو :

«سينصف الفقير من الناس . سينقذ اطفال المحتاجين ، وسيمزق الظالم ارباً»

«انه سيخلص المحتاج عندما يأتي ، وكذلك الفقير ومن ليس له معين» .

أطبق الصمت ثانية . ثم واصل الجنرال قائلاً :

«في الواقع لم يكن كيهيكا هو الشخص نفسه بعد أن قتل ضابط المنطقة روبسون ، ولذلك جئنا هنا الليلة» . في أثناء حديثه كان الجنرال يحدق الى بقعة معينة من الأرض . كان يتحدث بهدوء

ويختار الكلمات كأنه يوجه اسئلة الى نفسه . ثم رفع عينيه ونظر فجأة الى موغو . العيون كلها اتجهت الى موغو .

«اعتقد انك الرجل الذي كان يحمي كيهيكا تلك الليلة . ولذلك قبضوا عليك وارسلوك الى المعتقل . أليس كذلك ؟ ما نريد أن نعرفه : هل ذكر كيهيكا أمامك أنه كان ينوي مقابلة شخص ما من القرية في ذلك الاسبوع ؟»

تيبست حنجرة موغو . لو تكلم لبكى . هز رأسه ونظر الى الأمام .

ـ «ألم يذكر كرانجا ؟»

هز موغو رأسه ثانية .

ـ هذا كل ما أردنا معرفته . فكرنا في أنك قد تساعدنا» وعاد الجنرال الى صمته .

ـ «عجباً ! من كان يظن ـــ» . هكذا بدأ واروي ثم توقف . لكن وامبوي بدت معجبة بالأنجيل الصغير أكثر من اعجابها بانباء الجنرال .

ـ «إنجيل ! انجيل للمرء ان اباه كان قسيساً . كان المفروض أن يكون الابن قسيساً»

قال واروي : «لقد كان قسيساً . كان قسيس حريتنا» . ضحك جيكونيو بعدم ارتياح ، وضحكت معه وامبوي وكذلك الملازم كونياندو . لكن موغو والجنرال لم يضحكا . زال التوتر مرة اخرى . سعل جيكونيو وتنحنح ، ثم قال بأسلوب رجل الأعمال الذي لا يتسع وقته للطقوس : «أيها الجنرال ، لقد انسيتنا سبب مجيئنا الى هنا . ولكني سعيد بمجيئك لأن هذا الأمر يخصك أنت أيضاً . خلاصة

الموضوع هو أن الحزب وقادة القرية رأوا من الواجب تكريم الموتى . في يوم الاستقلال سنتذكر اولئك الموتى من قريتنا والضواحي القريبة . اولئك الذين فقدوا حياتهم خلال النضال من أجل الحرية . يجب ان لا ندع أسم كيهيكا يموت . انه سيعيش في ذاكرتنا وسيحمل التاريخ اسمه الى الأجيال القادمة» . ثم توقف ونظر الى موغو مباشرة . كانت كلماته التالية موجهة الى موغو باعجاب واضح :

«لا اريد أن أدخل في التفاصيل ، ولكننا جميعاً نعرف الدور الذي أديته في الحركة . ان اسمك واسم كيهيكا سيرتبطان معاً الى الأبد . وكما قال الجنرال فانك كنت تحمي كيهيكا دون خوف من خطر على حياتك . لقد عملت من أجل ثاباي هنا وفي المعتقل ما عمله كيهيكا في الغابة . لذلك فكرنا في أنك في هذا اليوم العظيم لا بد ان تتصدر عملية تقديم القرابين وتقود الاحتفالات لتكريم اولئك الذين ماتوا من أجل أن نعيش . سيطلعك الشيوخ على تفاصيل الطقوس . ولكن المهم لك هو الخطاب . سوف ننظم إجتماعاً كبيراً في سوق رونجي حيث شنق كيهيكا على شجره . ستقدم أنت الخطاب الرئيس لذلك اليوم» .

حدق موغو في الجهة المقابلة . حاول أن يستوعب معنى ما قاله جيكونيو . كان دائماً يجد صعوبة في اتخاذ القرارات . ان النكوص الغريزي عن الأقدام على عمل لا يعرف نتائجه منذ البداية جعله ينجرف الى مواقف غريبة أو جعل الشيطان يدفعه اليها . فقد ركب موجة الظروف وانحنى أمام التيار خوفاً من القدر وانبهاراً به .

وشيء من ذلك الانبهار بدأ يضيء عينيه . لكن جسمه ظل ساكناً كجثة هامدة . سألت وامبوي وقد نفد صبرها من نظرة موغو المركزة في اللاشيء : «ماذا تقول ؟» لكن واروي كان يعجب بعيون الناس وقد قال ذلك لموغو . فكّر ، ان لهذا الرجل مستقبلاً عظيماً . يمكن ان ترى ذلك في عينيه . ثم قال :

ـ «لا تحتاج الى الحديث طوال اليوم . فقد رأيت الكثير من الناس يفسدون خطاباتهم بسبب رغبتهم في الكلام حتى يجف لعابهم . ان كلمة تمس القلب تكفي ، مثل تلك التي قلتها في ذلك اليوم» .

قال موغو أخيراً : «لا أفهم» .

قال واروي : «نحن أهل ثاباي نريد أن نكرم أبطالنا . هل هذا صعب الفهم ؟»

قال جيكونيو : «أعرف شعورك . أنت تريد ان نتركك وحدك . ولكن تذكر ، على أية حال ، أنه ليس من السهل على أي أنسان في المجتمع أن يترك وحيداً ، خصوصاً اذا كان له مثل مركزك . كلا ، ليس المفروض أن تقرر الآن . ولكننا نريد الجواب سريعاً . فليس لدينا سوى أربعة أيام الى ١٢ كانون الأول» .

ثم نهض جيكونيو ليرحل . نهض الآخرون معه . تردد جيكونيو لحظة كأن هناك فكرة في رأسه لم يقلها .

ـ «شيء آخر ! انت تعرف أن الحكومة التي يقودها الحزب سوف تسمح للشعب بانتخاب النواب . ان فرع الحزب هنا يريدك ان تمثل هذه المنطقة عندما يحين الوقت» .

ثم غادر الجميع .

علت الأبتسامة شفتي موغو . ربما كانت تعني الفرح أو السخرية أو المرارة . ترك الزوّار الباب مفتوحاً . اغلق موغو الباب وجلس على السرير . بدأ يستوعب تدريجياً معنى ما قاله جيكونيو . ماذا يريدون ؟ ماذا يريدون حقاً ؟ هذا ما سأل به نفسه وهو يمسك رأسه بيديه ليحافظ على توازنه .

افترق مقاتلا الغابة عن جيكونيو وامبوي وواروي خارج كوخ موغو . كان الاثنان يعيشان عند الطرف الآخر من القرية في كوخ واحد اشتراه لهما فرع الحزب .

سأل كونياندو فجأة : «هل تعتقد انه سيساعدنا ؟»

ـ «من ؟»

ـ «الرجل»

ـ «آه ، موغو . لا أدري . نادراً ما ذكره كيهيكا . لا اعلم ان كان يعرفه جيداً» .

سارا بقية الطريق دون مزيد من الكلام . في الكوخ بحث كونياندو عما يوقد به المصباح النفطي . كان ذا جسم صغير وجلد طري ، وله عروق كبيرة تبرز في وجهه ويديه . جلس الجنرال على السرير واستغرق في التفكير . وقف كونياندو وحدق في اللهب الأصفر .

قال الجنرال مواصلاً الحديث السابق :«على أية حال ، يجب العثور على الخائن» . كان صوته واطئاً ومفعماً بالحزم .

لم يجب كونياندو مباشرة . تذكر اليوم الذي خرج فيه كيهيكا ولم يعد . كان كيهيكا قد قاد أكثر من ثلاث مئة رجل وزعهم في مجموعات تضم كل منها خمسين أو خمسة وعشرين رجلاً . عاشت

المجموعات متفرقة في كهوف مختلفة حول غابة كينيني . لم يكن الرجال يتجمعون كلهم الا لعمل كبير مثل الاستيلاء على (ماهي) . ومما كان يبهر كونياندو هو ان كيهيكا لم يفكر في الخطر على نفسه أبداً . ان الطريقة التي صُفي بها ضابط المنطقة روبسون كانت أسطورة في المعسكرات جميعها حول لونغونوت ونغونغ وحتى في نياندارو ا . لقد أعجب كونياندو بكيهيكا حد العبادة . في تلك الأوقات كان يقسم : «لن أتركه ! اقسم بالله انني لن اتخلى عنه أبداً . انه هو الذي اعطاني الأيمان حين لم أكن مؤمناً» . نعم ، لقد أعطاه روحاً جديدة حين شحذ وعيه بالقوة السوداء . وقد أحس كونياندو فعلاً بتلك القوة حين استولوا على (ما هي) . أحس بسعة القوة السوداء وهو ينتظر عودة كيهيكا . بعد ذلك أرسلوا مجموعة من الكشافة الذين أخبروهم بأن هناك عملية كبيرة . سرت الكلمة بين الصفوف وأمر الجنرال رجاله بالتهيؤ لانسحاب سريع الى لونغونوت مكان اختبائهم الثاني . لقد علموا ان كيهيكا قد اعتقل . بكى نجيري ولم تجف دموعه .

سأل كونياندو : «هل تعتقد انه كان ذاهباً للقاء امرأة ؟»

ـ «كلا . لا اعتقد ذلك . ان كرانجا هو الرجل المطلوب اذا كان ما أخبرتني به حقيقياً» .

ـ «كل شخص في غيثيما يخبرني بالقصة نفسها . انه يرتجف بطريقة لا يسيطر فيها على نفسه اذا مسه أحد من الخلف . لا يسير وحده في الظلام ولا يفتح باب داره لأحد بعد السابعة مساءً . هذه أدلة تشير الى رجل مذنب . ولكن ــ»

قال الجنرال وهو يقفز على قدميه : «ياالهي . لو كانت لهذه القملة يد في اعدام كيهيكا !» ثم أخذ يسير في الغرفة «لقد أقسمنا معاً . أقسمنا معاً» .

جلس كونياندو على السرير مدهوشاً للعاطفة التي طغت على صوت الجنرال . كان كونياندو يخافه دائماً ويشعر بصغر حجمه في حضوره . اشترك كلاهما في الحرب العالمية الثانية . قاتل الجنرال في بورما ، لكن كونياندو لم يرتق الىٰ أكثر من طباخ . بعد الحرب عمل الجنرال خياطاً ، أما كونياندو فقد انتقل من عمل الى آخر . وكان عمله الأخير في بيت الدكتورة ليند . وكانت عانساً ، بيضاء بشعة كرهها كونياندو من أول نظرة . وتعرف الى الجنرال في الغابة . برز الجنرال في المعارك دون ان يكشف عن مشاعره . وعندما اعتقل كيهيكا ظل الجنرال هادئاً ولم يظهر دهشة أو مشاعر تدل على الخسارة . بمرور الزمن نسي كونياندو ، الذي بكى في حينه ، موت كيهيكا ولم يعد يحس بالحماس للانتقام له . اما الجنرال فانه الآن يرتجف غضباً . كان كونياندو ينظر حواليه في الكوخ الخالي متجنباً النظر الى الجنرال في اثناء سيره . كانت تنتشر في الغرفة قدور واوانٍ وقنان فارغة وصفيحة ماء بطريقة تبعث الغم في النفس . تنحنح قائلاً :

ـ «ربما لا يعود علينا الأمر بأية فائدة . من الأفضل ان ننسى كل شيء» .

توقف الجنرال فجأة . نظر الى كونياندو وهو يتفحصه من الأعلى الى الأسفل . تململ كونياندو في كرسيه وهو يحس بالعداء في نظرة

الجنرال .

سأل الجنرال بصوت حاول أن يكون هادئاً : «ننسى ؟ كلا ياصديقي . يجب أن نجد الخائن ، والا كان ختاننا انت وانا دون جدوى . عليك أن تعود غداً الى غيثيما وترى مooورا بشأن الخطة الجديدة» .

أما الثلاثة الآخرون فقد ابتعدوا عن كوخ موغو قبل أن يتحدث أي منهم . علقت وامبوي قائلة : «انه شخص غريب الأطوار» .

سأل واروي : «من ؟»

- «موغو»

قال جيكونيو : «انها المعاناة . أتعرف ماذا يعني أن تعيش في معتقل ؟ ربما كان سهلاً علينا نحن الذين لم نعذب . لكن موغو عذب بقسوة ولم يعترف بشيء» .

واصل جيكونيو حديثه وقد أدهشه الحماس الذي تدفق في صوته :

«في السجن تعرف تهمتك ، وتعرف مدة محكوميتك . تعرف عدد السنين ، سنة عشراً ، ثلاثين ، ثم تخرج» .

توقف جيكونيو فجأة . لم يستطع ان يرى وامبوي وواروي في الظلام . بدا كأنه يتحدث الى الفراغ .

قال جيكونيو وهو يقف أمام البيت الذي بناه حديثاً : «ليلة سعيدة» . ذهب واروي ووامبوي دون أن يجيبا . سحر الصمت جيكونيو . لم يرغب في الدخول الى البيت . تسلل ضوء غرفة الجلوس عبر فتحات الستائر وزجاج النوافذ . لابد أن تكون مومبي

في انتظاره تلك الساعة . لماذا لا تستطيع النوم ؟ ابتعد عن الضوء دون أن يعرف أين يذهب . امتعض من حماسه أمام وامبوي وواروي . لماذا لم يسيطر على نفسه في كوخ موغو ؟ يجب على الرجل الا ينوح . كان العمل الشاق دواء لجيكونيو ضد الذكريات المزعجة .

لقد بنى بيتاً من أحسن البيوت في القرية . كان يملك ثروة صغيرة ومركزاً سياسياً في البلد . مر زمن طويل على الوقت الذي كان فيه نجاراً فقيراً . مع ذلك لم يعد يتذوق ما حققه من نجاح . كان يأكل لا رغبة في الطعام وانما على المرء أن يعيش . اصبحت القرية بعيدة عنه واشتد الظلام . أحس بأنه وحيد كأنه يمر بتجربة جديدة . أصغى . كان يسمع خطوات بعيدة . اقتربت الخطوات منه . كان يلهث وقد ارتفعت حرارته على الرغم من برودة الجو . ركض بجنون وقلبه يخفق سريعاً . كان ايقاع الخطوات على الرصيف متناغماً مع ضربات قلبه . عليه أن يتحدث الى شخص ما . عليه أن يسمع صوتاً بشرياً . موغو . ولكن ما هي الأصوات البشرية ؟ ألم يعش معها ست سنوات ؟ وفي معتقلات متعددة ؟ ربما كان بحاجة الى صوت رجل يفهمه . موغو . توقف عن الجري فجأة . الخطوات على رصيف الشارع ابتعدت عنه . انها ستعود ثانية . عرف انها ستعود لتقضي عليه . لابد ان اتحدث الى موغو . ان الكلمات التي قالها موغو في اجتماع قبل سنتين قد أثرت فيه . ياالهي ! لا بد أن موغو يعلم .

حين وصل الى كوخ موغو كان حماسه للقرار قد فتر . وقف أمام

الباب متسائلاً ان كان يطرقه أم لا . ما الذي أراد أن يخبربه موغو ؟ أحس بحماقة وقوفه وحيداً هناك . ربما يكون من الأفضل أن يأتي غداً . أو في وقت مناسب آخر يستطيع فيه أن يفتح قلبه لشخص آخر .

في البيت وجد مومبي مستيقظة لم تذهب الى السرير . جلبت له الطعام . ذكره ذلك بأنه لم يتناول الطعام طوال اليوم . جلست قبالته وبدأت تراقبه . ذاق قليلاً من الطعام ثم أبعده عنه . فقد شهيته .

قال من بين أسنانه : «اعملي لي قدحاً من الشاي»

توسلت مومبي : «يجب أن تأكل» . أشرق أنفها الصغير امام ضوء المصباح . التوسل في عينيها وفي صوتها لم يعط فكرة حقيقية عن وجهها الهادىء وعن اعتزازها بجسمها الجميل . حدق جيكونيو في منضدة الماهاغوني الجديدة اللماعة . ربما كان عليه أن يدعو موغو الى حديث رجولي .

صاح بها : «لا أريد ان آكل أي شيء»

ـ «انت لا تحب طعامي» .

حافظ جيكونيو على هدوئه . في المعتقل كان يحن الى العودة الى مومبي . هل هذه هي المرأة نفسها ؟ نظر اليها . ادارت وجهها الى الباب . ربما كانت تبكي . قال وهو يرق قليلاً : «لا أشعر برغبة في الأكل . هذا كل ما في الأمر» همست «حسناً» ثم ذهبت الى غرفة أخرى وجلبت الاقداح والابريق وقليلاً من الشاي والسكر والحليب . اضافت المزيد من الفحم الى الموقد وحملته الى الخارج لتزيد من اشتعاله بفعل الريح . انتظرت خارج البيت في الظلام .

أخرج جيكونيو دفتراً من جيب سترته الداخلي . بحث عن قلم فوجده مكسوراً . استخدم سكيناً صغيراً لبري القلم ، ثم كتب بعض الارقام وبدأ يجمع ويطرح ويضرب ويلغي . وقد حولت هذه العملية تركيزه حتى أنه نسي مؤقتاً الأشياء الأخرى خارج عائدات اليوم وشؤون العمل في الغد .

جاءت مومبي بالنار . وضعت الابريق المملوء بالماء فوق النار وجلست تراقب زوجها ثانية . يبدو أنها حبلى . كانت كالطير المستعد للطيران عند أية اشارة او كلمة من سيده . لكن مومبي تعلمت كيف تحد من رغباتها وتقبل كل ما تعطيه اياها الحياة والقدر .

غامرت بسؤاله : «هل رأيت موغو ؟»

ـ «نعم»

ـ «هل قال انه سيقودنا ؟»

ـ «سيفكر في الأمر» . لم يرفع جيكونيو رأسه عن الدفتر .

ـ «أخبرتني وامبوي بذلك» . انفجر غضبها ولكنه لم يجب فصاحت به :

«لم لا تخبرني بالأمر ؟ لا تنس انني وكيهيكا جئنا من الرحم نفسه»

ـ «منذ متى نتبادل ، انا وانت ، الأسرار ؟»

سخط على نفسه في الحال لاستخدامه تلك اللهجة . لقد وعد ان يكون رقيقاً معها ، وان لا يدع صوته يفضح مرارة احساسه وعذابه الداخلي . قالت بخضوع : «انا آسفة . نسيت انني لا شيء» .

أصبح الشاي جاهزاً . صبت قدحين لها ولزوجها . أحست كأنها

تعرضت لضغط قوة هائلة داخلها فتركت مقعدها ووقفت أمام زوجها . أحاطت رقبته بيديها الصغيرتين ثم اراحتهما على كتفيه . التمعت عيناها وارتجفت شفتاها .

همست : «لنتحدث قليلاً»

سأل وهو يرفع رأسه : «عم نتحدث ؟»

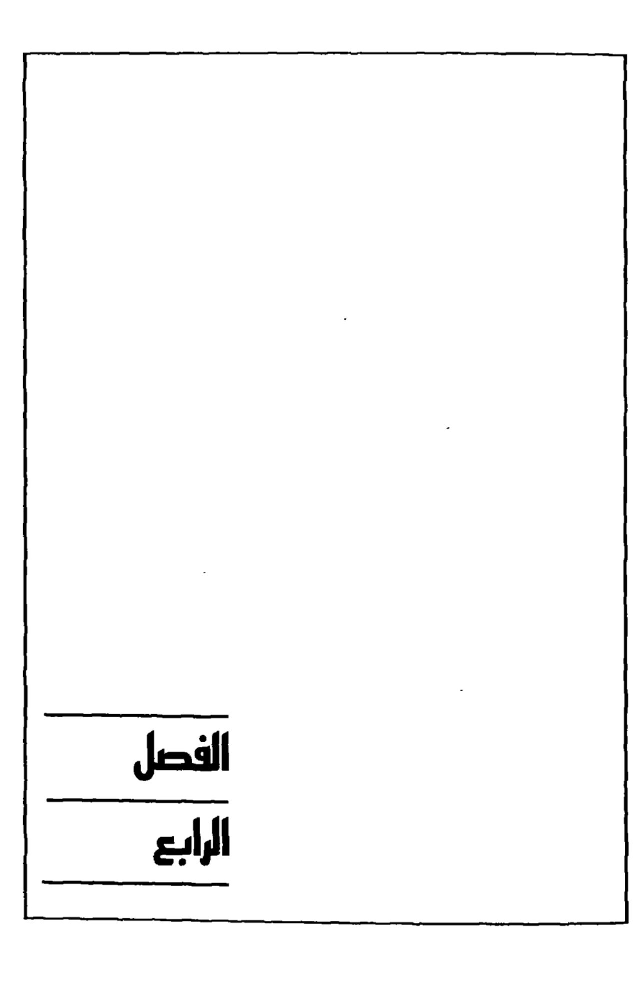
ـ «عن الطفل» .

قال بتأكيد صارم «لا يوجد ما نتحدث عنه»

ـ «اذن تعال الى سريري الليلة . لقد انتظرتك أنت وحدك طوال هذه السنين» .

سحب جيكونيو ذراعيها عنه وابعدهما قليلاً : «ماذا بك . أرجو ان تذهبي وتجلسي في مكانك . والأفضل ان تذهبي للنوم . أنك تعبة»

وقفت مومبي وهي تحس برجفة برد . كان صدرها يعلو ويهبط . انفتح فمها كأنها ارادت ان تصرخ ، لكنها فجأة لملمت ادوات حياكتها من الارض واسرعت الى غرفة نومها . في الحقيقة كان جيكونيو هو الذي يشعر بالتعب . بالتعب والشيخوخة . حك رأسه بيده اليسرى واسند كوعه الى المنضدة . رفع القلم بيده اليمنى وحاول أن يكتب رقماً . لكن رأسه لم يكن مستقراً فرمى القلم من يده . بذل جهداً لينهض من كرسيه . أخذ المصباح ووقف بضع ثوان أمام غرفة مومبي . لكنه اتجه بحزم الى غرفة نومه .



الفصل الرابع

في الايام التي كان الاوربيون والهنود المهاجرون يتنازعون على السلطة في كينيا كانت فكرة اقتراب الرجل الاسود من كرسي الحكم بعيدة تماماً عن اي خيال مهما كان واسعاً . وحين سافر الموظف الزراعي السيد روجرز بالقطار من نيروبي الى ناكورو رأى الغابة الكثيفة في غيثيما وأحس بأن عقله المخطط ينشد اليها . لم تتجه عواطفه الى السياسة التي كانت أمراً غريباً في تلك الايام انما الى تطوير الارض . تساءل مع نفسه والقطار يغذ السير نحو الجرف وينحدر الى الوادي الكبير ، لماذا لا تقام هنا محطة بحوث زراعية . بعد فترة عاد الى غيثيما لرؤية الغابة . بدأ تنفيذ خطته بالكتابة الى كل شخص ذي نفوذ وحاول دون جدوى ان يلتقي الحاكم . قالوا عنه إنه مجنون :

علوم في افريقيا المظلمة ؟

لقد سكنته غيثيما والغابة الكثيفة مثل روح شريرة . لم يهدأ له بال . تحدث الى نفسه والى كل الناس عن خطته . وفي أحد الايام دهسه القطار في تقاطع غيثيما ومات في الحال . بعد ذلك أقيمت محطة بحوث زراعية في المنطقة ليس تكريماً لاستشهاده ، بل جزء من

خطة التنمية الاستعمارية الجديدة . ثم اكتظت دائرة غابات غيثيما ومحطة البحوث الزراعية بالعلماء والاداريين الاوربين .

قيل أن شبح الرجل يسكن تقاطع سكك الحديد وان القطار يطلب في كل عام قرباناً بشرياً من مستوطنة غيثيما . وكان الضحية الاخيرة الدكتور هنري فان دايك ، موظف الارصاد السكير البدين الذي كان يقسم دائماً ، كما يقول العمال الافارقة ، بأنه سيقتل نفسه اذا اطلق سراح كينياتا من لودور ولوكيتونغ . اصطدمت سيارته بالقطار مباشرة بعد عودة كينياتا الى الوطن من مارالال . لقد حزن اهالي غيثيما وحتى اعداؤه لنبأ موته . أكان حادثاً أم أن الرجل انتحر ؟

تذكر كرانجا ، الذي يعمل في مكتبة غيثيما ـ يزيل التراب عن الكتب ويرتبها على الرفوف ويعد بطاقاتها ، الدكتور فان دايك للعبة غريبة كان يمارسها دائماً . كان يأتي الى العمال الافارقة ، يضع يده على اكتافهم ثم يضربهم على قفاهم على نحو غير متوقع . وقد اعتاد أن يبقي يده متحسساً اعجازهم وهو ينفث الكحول على اكتاف ضحاياه . وينفجر على حين غرة بضحكة صاخبة عالية . كره كرانجا تلك الضحكة . لم يكن يعرف اذا كان الدكتور فان دايك يتوقع ان يشاركه فيها ام لا . كان كرانجا يعض على ناجذه بعصبية كما جعله يكره الدكتور فان دايك اكثر . مع ذلك ، فإن نبأ موت الرجل ، انسحاقه وسيارته كليًا تحت القطار ، جعل كرانجا يتقيأ .

التقط كرانجا جذاذة نظيفة من بين كومه على المنضدة وبدأ يكتب البطاقات . تعود الكتب التي وصلت غيثيما حديثاً الى وزارة الزراعة

في نيروبي . فقد كرانجا توأ احساسه بالاشياء الاخرى سواء تعلقت بالاستقلال أو بالدكتور فان دايك . لقد ركز في البطاقة التي في يده ..: دراسات في الهندسة الزراعية الجزء ــ . أحس فجأة بوجود رجل في الغرفة . رمى الجذاذة واستدار بسرعة . ألقي وجهه ظلاً اكثر سواداً . حاول بصعوبة ان يسيطر على القلم المرتجف في يده .

ـ «لماذا لا تطرق الباب قبل الدخول» قال وهو يفح فحيح الافعى بوجه الرجل الواقف بالباب .

ـ «طرقت ثلاث مرات»

ـ كلا لم تطرق . انت تدخل كأن هذا بيت ابيك»

ـ لقد طرقت على هذا الباب ، هنا»

ـ «بوهن مثل امرأة ؟ لماذا لا تطرق بقوة مثل رجل بالغ» رفع كرانجا صوته وضرب على المنضدة في الوقت نفسه ليؤكد كل نقطة يقولها .

ـ «اسأل أمك عندما نمت معها ــ»

ـ «أنت تهين أمي . انت ــ»

ـ «استطيع ان افعل ذلك حتى الان . أومع أختك ، انهما تستطيعان ان تخبراك بان موورا رجل بالغ» .

وقف كرانجا على قدميه . حدق الاثنان في بعضهما . بدا برهةً كأنهما سوف يشتبكان بالايدي .

قال بحقد «أنت تقول ذلك لي ؟ هل توجه الي تلك الاهانات كلها ؟»

تدلت شفة موورا السفلى . بدأ بطنه يرتفع وينخفض . تسارعت انفاسه ثم بدا كأنه تذكر شيئاً ، فمسك لسانه وقال بصوت ، ما زال يشوبه التهديد .. «على أية حال ، انا أسف»

ـ «يجب ان تكون آسفاً . ماذا تريد هنا ؟»

ـ «لا شيء ، تومبسون يريد أن يراك . هذا كل شيء»

خرج مووروا . تغير مزاج كرانجا من التوتر الى القلق . ماذا يريد تومبسون ؟ ربما يريد ان يقول لي شيئاً عن الراتب . نظف بدلته ذات اللون الخاكي ومشط شعره المصبوغ واسرع عبر الممر الى تومبسون . طرق الباب بجرأة ، ثم دخل .

ـ «ماذا هناك ؟ لماذا تطرقون الباب بقوة ؟»

قال كرانجا بصوت رفيع «اعتقد انك ارسلت في طلبي ياسيدي» . كان يقف كما اعتاد امام اي رجل ابيض ، رجلاه متقاربتان ويداه معقودتان خلف ظهره في خشوع وانتباه .

ـ «آه ، نعم . نعم . هل تعرف بيتي ؟»

ـ «نعم ياسيدي»

ـ «اسرع وأخبر السيدة تومبسون بأنني لن آتي الى البيت عند الغداء . سوف أذهب .. ها .. انتظر دقيقة سأعطيك رسالة»

لقد خلق تومبسون لنفسه عبر السنين هوساً في كتابة الرسائل . كان يكتب الرسائل الى كل شخص «نادراً ما بعث رسولاً سواء الى المدير أو الى مكتب القرطاسية يطلب الورق أو الى الورشة يطلب مسماراً أو اثنين ، دون ان يزوده بورقة يدون فيها بعناية التفاصيل كافة . إنه يفضل ان يبعث للموظف برسالة حتى لو كان من الاسهل عليه أن يراه شخصياً» .

أخذ كرانجا الورقة وتمهل قليلاً آملاً ان يقول له تومبسون شيئاً عن زيادة الراتب التي قدم طلباً بشأنها . إلا أن الرئيس عاد يحدق الى كومة الاوراق على مكتبه .

استخدم السيد والسيدة تومبسون كرانجا مراسلاً شخصياً . وقبل كرانجا تكليفهم أياه اداء المهمات بامتعاض . أليس هناك في غيثيما مراسلون يتقاضون رواتب ؟ كانت السيدة ديكنسون أمينة المكتبة . وهي سيدة شابة انفصلت عن زوجها ولا تخفي علاقتها بصديقها . نادرا ما كانت تأتي الى الدائرة . وإذا جاءت تجمع الرجال والنساء لرؤيتها وارتفعت اصوات الضحكات العالية طوال النهار . لكن كرانجا يمتعض من تكليفها إياه اداء المهمات . غالباً ما ترسله الى الحي الافريقي لشراء لحم لكلبيها .

وعندما ركب دراجته القديمة هذا اليوم كان رأسه يعج بالخطط . سوف يشتكي لدى جون تومبسون من هذه المهمات التافهة . كلا ، ان ما يكرهه كرانجا هو ليس المهمات أو تفاهتها ، بل الطريقة التي تؤثر في مركزه بين العمال الأفارقة الآخرين . إلا أنه عموماً سيتحمل الاهانة حفاظاً على السمعة الجيدة التي اكتسبها في اوساط البيض . لقد عاش على تلك السمعة وعلى القوة التي زودته بها . اعتقد الناس في غيثيما بأن اية شكوى منه كافية لطرد اي رجل من عمله . وكان كرانجا يعرف خوفهم . وعندما يأتي بعضهم الى دائرته يلقي عليهم نظرات باردة ويفتعل بعض التلميحات أو يكشر في وجوههم ، وبهذه الطريقة يزيد من مخاوفهم وعدم اطمئنانهم . ولكنه هو ايضاً يخافهم ويغير هذه المواقف القاسية بود ذليل .

يحيط بمنزل تومبسون سياجٌ منظمٌ من الشجيرات . في المدخل تلتف المتسلقات الخضر على مساند خشبية . تتجمع المتسلقات كثيفة في الاعلى ثم تنحدر جانباً الى السياج الذي يحيط بحديقة من

الازهار المتنوعة مثل الزنبق الملتهب وبهاء الصباح وعباد الشمس والزهور المتعرشة . انها ، على أية حال ، حديقة ورد تفوق في الوانها الحدائق الاخرى . وقد اهتمت السيدة مارجري تومبسون بزراعة الورد الأحمر والأبيض والوردي والانواع الاخرى كافة . لقد بانت من بين حديقة الالوان هذه وجاءت الى الباب بسروال ابيض خفيف وبلوزة بدت واسعة عند صدرها الناهد .

قالت بعد أن قرأت رسالة زوجها : «ادخل الى البيت» . كانت ضجرة من بقائها وحيدة في البيت . وغالباً ما كانت تتحدث الى عامل البيت أو صبي الحديقة . وفي بعض الاحيان كانت تثور عليهما ويصل صوتها الغاضب الى الشارع . ولذا ترك العاملان البيت ، فأحست بحاجتها اليهما وبأهمية كل منهما في البيت . اندهش كرانجا لانها لم تدعه الى دخول البيت من قبل . جلس على حافة الكرسي ووضع يديه غير المستقرتين على ركبتيه ثم جال ببصره في السقف والجدران ليتجنب النظر الى صدرها . تملكت مارجري قوة شهوانية حين احست بما سببته لكرانجا من خوف وارتباك . لماذا لا ينظر اليها ؟ طالما رأته ، لكنها لم تنظر اليه كرجل . احست برغبة في معرفة الافكار التي تدور برأسه . ما رأيه في البيت ؟ في الاستقلال ؟ فيها ؟ اطلقت لخيالها العنان . احست بدفق من الحرارة فأنتصبت على قدميها وقد غضبت من اندفاع عواطفها .

ـ أتريد قليلاً من الشاي أو القهوة أو أي شيء ؟»

تمتم كرانجا قائلاً : «علي ، علي أن اذهب»

قالت مبتسمة وهي تشعر بالتسامح والسرور «أواثق بانك لا تريد

قليلاً من القهوة ؟

لا تبال بالسيدة ديكنسون .»

قال «حسناً» وزحف قليلاً فوق كرسيه وعيناه تتعلقان بالباب وبالسياج خلفها . لم يجرؤ حتى الان على الاسترخاء والاتكاء على كرسيه مرتاحاً . وفي الوقت نفسه تمنى من كل قلبه ان يحضر احد العمال ليرى كيف تكرمه بالقهوة سيدة بيضاء هي زوجة امين السر الاداري .

في المطبخ عبثت مارجري بالآنية والاكواب وعلى الرغم من انها لا تزال خجلة من عواطفها إلا أنها لم ترد لها ان تذهب سدى . تذكرت مرة انها جربت مثل هذا التأجج . كان ذلك يوم راقصت الدكتور فان دايك في فندق غيثيما بعد كارثة ريرا مباشرة . فقد جذبتها انفاسه السكرى وأثارت اشمئزازها في الوقت نفسه . وحين أخذها آخر الليل بسيارته استسلمت لإرادته . سمحت له بأن ينام معها وجربت أول مرة جمال العصيان .

لاحظ كرانجا ، وهو ينتظر في الغرفة ان ارتباكه العصبي قد يتحول الى رغبة مختلفة . وتساءل مع نفسه ، هل يطلب منها ذلك . ربما تعطيه ما يريد فعلاً : وان يسمع منها نفياً للأشاعات القائلة ان عائلة تومبسون ستعود الى انجلترة . حاول كرانجا عدة مرات أن يسأل السيد تومبسون . ولكن ماءً بارداً كان يسيل على بطنه ويخفق قلبه بعنف كلما اقترب من الرجل الابيض وكان قراره ينتهي دائماً بالنتيجة نفسها : يحيي السيد تومبسون ويتابع سيره كأنه يقصد مكاناً اخر . وما كان يخافه كرانجا اكثر من الاشاعات هو احتمال

تأكيدها . فمادام لم يتأكد من الحقيقة يمكنه ان يفسر الاشاعات بالطريقة الوحيدة التي تعطيه بعض الامل ، وهو ان حكم الرجل الاسود قريباً لا يعني ولا يمكن ان يعني نهاية سلطة الرجل الابيض . ان تومبسون الذي كان ضابط منطقة ثم امين سر اداري هو في نظر كرانجا التعبير الخفي لتلك السلطة . كيف يمكن اذن ان يذهب تومبسون ؟

عادت مارجري بكوبين من القهوة .

«هل تريد سكراً في قهوتك ؟»

قال آلياً «لا» وعرف انه يفتقر الى الجرأة ليسألها عن الاشاعات . كان كرانجا يشرب القهوة أو الشاي دون كميات كبيرة من السكر .

جلست مارجري قبالة كرانجا وصلّبت رجليها ، وضعت كوبها فوق ذراع الكرسي . وأمسك كرانجا الكوب بكلتا يديه مخافة ان تسقط قطرة على السجاد . كان يرمش كلما قرب الكوب من فمه ومنخريه .

سألت «كم زوجة لديك ؟» كان هذا سؤالها المفضل كلما قابلت الافارقة . بدأ ذلك عندما علمت ان طباخها السابق كان يملك ثلاث زوجات . فزع كرانجا كأن مارجري فتحت جرحاً كاد أن يلتئم . مومبي .

ـ «لست متزوجاً»

ـ «لست متزوجاً ؟ ظننت انكم ــ هل ستشتري زوجة ؟»

ـ «لا أدري»

ـ «هل لديك صديقة ؟» . لقد ازداد فضولها واكتسب صوتها حرارة

اكثر وقد أثار كرانجا شيئاً لم يدركه في صوتها . هل تفهم ؟ هل تفهم ؟

قال بجرأة «كان لي أمرأة . كنت أحبها» . أغمض عينيه وبذل جهداً ليعب قهوته المرة دفعة واحدة .

ـ «لماذا لم تتزوجها ؟ هل هي ميتة أو ـ ؟»

ـ «لقد رفضتني»

قالت بتعاطف : «انني آسفة» ثم تذكر كرانجا نفسه والمكان الذي هو فيه

ـ هل استطيع الذهاب الآن ياسيدتي ؟ هل من رسالة الى السيد ؟» كانت قد نسيت سبب مجييء كرانجا فأعادت قراءة رسالة زوجها وقالت وهي تودعه عند الباب «لا شكراً جزيلاً» .

كانت الساعة حوالي الثانية عشرة عندما غادر كرانجا بيت تومبسون . ان الجرح الذي فتحته مارجري اوجعه بعض الوقت ، ثم بدأ ينقشع تدريجياً . تمنى ان يراه موورا وهو في البيت ، كما تمنى ان يكون خادم البيت حاضراً ، اذن لأنتشر الخبر في كل مكان . كان عليه ، كما هو المعتاد ، ان يقوم هو بمهمة اخبار الناس عن ذلك على الرغم من ان الامر سيكون أقل تأثيراً . ولما كان وقت الغداء قد أزف فقد ذهب مباشرة الى مطعم في الحي الافريقي وهو يفكر في زيارته وفي القهوة المرة .

كان اسم المطعم (صديقك حتى الموت) ويسمونه اختصاراً (الصديق) .

وكانت الجدران الصخرية مطلية بالدهان مما جعلها مرتعاً

خصباً للذباب الذي يئز حول الزبائن ويتقافز فوق الاكواب والاواني ويتزاوج احياناً فوق وجبات الطعام الموضوعة على المنضدة . وكانت الازهار الاصطناعية تزين المناضد العتيقة وخط شعار المطعم بحروف كبيرة على الجدار : (تعالوا الينا ايها الجياع والعِطاش وسنوفر لكم الراحة) . وفي جانب آخر من الجدار قرب منضدة المحاسب علقت قصيدة مؤطرة بعناية :

ما دام الانسان يظلم الانسان

اريني انساناً أثق به

لقد وثقت بالكثيرين لسوء حظي

لذا ، ومن اجل الثقة ، تعال غداً ياصديقي .

كان (الصديق) هو المطعم الوحيد المجاز في غيثيما .

هناك رأى كرانجا موورا . قال كرانجا لنفسه بعد ان خسر الكثير من العمال ليس من الصحيح ان نخلق اعداءً .

قال كرانجا بسرعة : «انا متأسف لما حدث» ولكن دماثته لم تنجح - «ارجو ان تعدها مناوشة بسيطة بين صديقين . بعض الناس لا يفهمون ، كما ترى ، أن العمل الذي نؤديه ، اي كتابة البطاقات لكل تلك الكتب العلمية ، يتطلب تركيزاً . فإذا فتح احدهم الباب فجأة ودون سابق انذار فانك تنزعج وتشوه الحروف . أنا أقول لك ، اذا كنت تعرف امينة المكتبة كما أعرفها - أتعتقد انها انفصلت عن زوجها دون سبب - تعال ايها النادل ، هات كوبين من الشاي ، بسرعة ... والان ما هي أخبار رونجي ؟»

ان السيد تومبسون ، الرجل الطويل الملتصق جلده بعظمه ، لم

يذهب الى نيروبي ، انما بقي في غيثيما في فترة الغداء منكباً على عمله . كان يقف على قدميه ، يذهب الى الدولاب قرب الجدار ، يسحب اضبارة ثم يعود الى المنضدة بوجه أسفع مأخوذ النظرات كأن ذهنه مشغولاً بأشياء بعيدة . كانت يداه النحيفتان وعيناه فاتحتا اللون تستعرض كل اضبارة بعناية فائقة قبل ان يعيدها الى الدولاب . مَد إصبعه مرة أو مرتين يتحسس التجاعيد القليلة عند زاوية فمه .

كان تومبسون يتأمل الاوراق غير المكتوبة فوق المنضدة والقلم وقنينة الحبر وجدران المكتب البيضاء والسقف كأنه يبحث عن نموذج يجمع كل هذه الأشياء . لكن ذهنه كان ينتقل من فكرة الى أخرى . ثم تناول عدد ذلك اليوم ـ الاثنين ـ من جريدة (راية شرقي افريقيا) وهي اقدم جريدة كينية واتكأ على كرسيه . وعندما رأى التقارير عن الاستقلال والاستعدادات ليوم الخميس غمره احساس غامض بخيبه الامل . منذ قيام الحكم الوطني لم يدر ما الذي يستثير لديه مثل هذا الاحساس كلما قرأ الجريدة . هل هي اخبار الاستقلال التي يعرفها مسبقاً أو اللهجة التي تنم عن استعداد لقبول الاشياء ؟ وحين رأى صورة رئيس الوزراء على الصفحة الاولى لم يستطع ان ينظر اليها مرة ثانية ، بل سارع الى الصفحة الثانية . ثم أحس بالخجل من رد فعله ولكنه لم يستطع ان يعيد النظر اليها . علم تومبسون ان دوق أدنبرة سينوب عن الملكة . وان أنباء الاستقلال تذكرة بذلك . وبغض النظر عن نظرة تومبسون ، الا أنه أحس بوخزة من الحزن حين تصور الدوق جالساً ينظر الى العلم

ينزل ولا يرتفع ثانية على هذه الاصقاع مرة اخرى . وقد تعمق ذلك الأحساس بالحزن عندما عاد بذاكرته الى عام ١٩٥٢ حين قامت الملكة ، التي كانت أميرة آنذاك ، بزيارة كينيا . نسي تومبسون برهةً الجريدة وعاش مرة ثانية اللحظة التي صافحته فيها المرأة الشابة . كان آنذاك ضابط منطقة . احس بالفزع . وتسارعت دقات قلبه كأن ميثاقاً قد عقد بينه وبينها . إذّاك كان مستعداً لعمل أي شيء ، حتى أن يقتل نفسه ليبرهن على استعداده القيام بالمهمة التي تمثلت في شخصيتها وفي ابتسامتها وان لم يصرح بها . وحينما تذكر ذلك دفع تومبسون بالجريدة بعيداً عنه ونهض . ترقرقت عيناه بالدموع وسار الى النافذة وهو يدمدم بصوت خفيض :

ـ «لماذا حدث كل ذلك ؟»

تلاشى الانفعال المؤقت واستقر ألم في بطنه . انحنى الى الامام وجال بعينيه في المشهد امامه الذي يضم السقوف الحديدية الواطئة لثلاثة مختبرات احدها لامراض النبات والغابات ، والثاني لفيزياء التربة ، والثالث لكيمياء التربة . والى اليسار مستنبتات زجاجية في مجموعات لا تزيد على أثنين أو ثلاث . راقب الدكتورة ليند إختصاصية امراض النبات في المحطة عبر الطريق (الاسفلتية) ، اختفت د . ليند خلف البيوت الزجاجية . وبعد لحظات اندفع خلفها كلبها البني ذو اللغود السود المتدلية ، والى اليمين لم ير غير المكتبة ومجموعة من الافارقة يضطجعون على الحشيش تحت الافريز . فكر تومبسون في ان كل شيء هاديء وبدأ ينتقل بناظريه من الحشيش الاخضر الى المجمع الكيمياوي ـ أقرب المختبرات اليه . كانت انابيب

الاختبار الكثيرة مرتبة بعناية في النافذة الزجاجية . هل تبقى هذه الاشياء بعد يوم الخميس ؟ ربما شهرين ، بعدها ستتحطم أنابيب الأختبار والدوارق أو تترك على الأرض دون تنظيف . و ستزحف البيوت الزجاجية والقطع المزروعة بالنبات البري والحرش الخارجي المقصوص بعناية كلها تدريجياً لتكون مجموعة متشابكة .

ظهر الكلب من جهة مختبر الكيمياء الثانية وهو يشمشم اطراف الحشائش ثم توقف ورفع رأسه بأتجاه المكتبة . توتر تومبسون . سيحدث أمر ما . عرف ذلك وانتظر وهو عاجز عن كبح ذلك الانفعال البارد . بدأ الكلب ينبح فجأة ، كما قدر له ، على مجموعة الافارقة . صرخ بعضهم وتفرق في اتجاهات مختلفة ، غير أن واحداً منهم لم يهرب في الوقت المناسب . إتجه الكلب اليه . حاول الرجل ان يتسلل الى الخارج ، إلا أن الكلب حاصره لصق الجدار . انحنى فجأة والتقط حجراً ورفع يده في الهواء . انتظر تومبسون حدوث ما يخشى حدوثه . في تلك اللحظة ، حين كاد الكلب أن يقفز على الرجل ، ظهرت الدكتورة ليند وصرخت به . سحب تومبسون نفساً عميقاً ، ثم تلاحقت انفاسه متسارعة ، اذ ارتاح وخاب امله لان شيئاً لم يحدث .

غادر مكتبه واتجه عبر امتداد الحشيش الى المكتبة حيث يتجمع بعض الافارقة . امسكت الدكتورة ليند كلبها من شريط رقبته بيدها اليسرى ورفعت إصبع يدها اليمنى بوجه كرانجا . ثم قالت بصوت كله احتقار :

«انا خجلة من سلوكك ، خجلة تماماً من سلوكك» . طأطأ كرانجا

رأسه الى الارض وكان الخوف والغضب يظهران في عينيه وقطرات العرق لم تجف على وجهه ، وقال متلعثماً :

- «الكلب : الكلب - جاء - سيدتي» .

- «لم أكن اتصور ان تبادر بذلك - ترمي كلبي بالحجارة»

- «لا حجارة - انني لم ارم حجارة»

قالت وهي تنظر حولها الى الاخرين «اية طريقة تكذبون بها ..» ثم استدارت الى كرانجا . «ألم أرك وانت تلتقط الحجارة ؟ كان علي ان ادعه يهاجمك . واكاد اقتنع حتى الآن بضرورة اطلاق الكلب ليهجم عليك - »

في تلك اللحظة وصل السيد تومبسون . فسح له الافارقة الطريق وتوقفت الدكتورة ليند عن تعنيف كرانجا ثم ابتسمت لتومبسون . رفع كرانجا رأسه مستبشراً ، في حين نظر الأفارقة الاخرون الى تومبسون وتوقفوا عن الدمدمة والغمغمة فأربك الصمت المفاجىء والعيون الكثيرة تومبسون . تذكر المعتقلين في ريرا يوم اعلنوا الاضراب . احس الآن بجو العداء نفسه . كان عليه ان يتماسك حتى النهاية من اجل كرامته . لكن الخوف تملكه . ودون ان ينظر الى احد قال الكلمات السواحيلية الاولى التي خطرت بباله : «سأتولى انا هذا الامر» واحس مباشرة بخطأ ما قاله - لأنه يتضمن اعتذاراً اكثر مما يجب . تبدد السكون . بدأ الرجال يصرخون ويشيرون الى الكلب ، وعمل آخر إشارات غامضة في الهواء . وضع تومبسون يده على كتف المرأة وسحبها بعيداً .

قادها عبر الممر الضيق الذي يربط بناية المكتبة بالبناية الادارية

دون أن يعرف وجهة سيره . كل شيء كان يأتيه من الماضي : ريرا والكلب . وكانت الدكتورة ليند تتحدث طوال الوقت .

ـ «انهم افظاظ بسبب منح الاستقلال قريباً . لقد تغير حتى احسنهم طبعاً»

ـ اراد أن يحدثها عن الكلب ، الا أنه وجد صعوبة في ذلك ، عرف ان عليه ان يفعل شيئاً . ماذا لو مس الكلب كرانجا ؟ كان المفروض فيه ، وهو امين السر الاداري ، ان يعالج علاقات الموظفين والعمال ، وكان قد تلقى عدداً من الشكاوي عن كلب الدكتورة ليند من اتحاد موظفي كينيا المدنيين (فرع غيثيما) . لقد وصلا الآن الى مشتل الاشجار الكبيرة المحاط بالاسلاك .

جلسا عند بقعة خضراء . اراد أن يخبرها بالحقيقة ـ لكن ذلك يعني أن يخبرها بشلله ، وكيف انه وقف مذهولاً متوقعاً إراقة الدماء . بدأ قائلاً :

«في الواقع لم تكن غلطة الصبي ، لقد رأيت الكلب يهاجمه» . كان تومبسون مثل غيره من الاوربيين في كينيا ، يتعاطف مع الحيوانات الاليفة وبخاصة الكلاب . قبل عام أخذ مارجري الى نيروبي لمشاهدة مسرحية (خذي بندقيتك يا آني) التي قدمتها في المسرح الوطني فرقة ممثلي المدينة . لم يذهب الى ذلك المسرح من قبل ـ لأنه لا شيء يحدث هناك ، بل كان دائماً يذهب الى مسرح دونوفان مول . ان الطريق من غيثيما الى نيروبي يمر بالريف . كان الظلام دامساً . رأى فجأة عبر ضوء مصابيح السيارة كلباً يحاول عبور الشارع . كان بمستطاع تومبسون ان يتوقف أو يبطىء السير

ويستخدم جهاز التنبيه . كان لديه الوقت الكافي والمسافة اللازمة . إلا أنه استمر . لم يكن يريد قتل الكلب لكنه عرف انه سيسحقه . تسمر على كرسيه خائفاً مما لا يمكن تجنبه . علت فجأة صرخة . استعاد تومبسون حيويته . اوقف السيارة ثم فتح الباب وخرج منها . أخذ معه مصباحاً يدوياً . عاد الى الخلف بضع ياردات . لم يكن هناك كلب في اي مكان . نظر الى جانبي الطريق ولم يعثر على اثر للكلب او الدم . مع ذلك كان قد سمع صوت الارتطام والصرخة . عندما عاد الى السيارة وجد مارجري تبكي . ولدهشته كان هو ايضاً يرتجف ولم يستطع تهدئتها . قالت : «ربما كان تحت السيارة» خرج ثانية وحدق تحت السيارة . لا شيء هناك . قاد سيارته حزيناً كأنه قتل انساناً .

لقد عاش المشهد المرعب ثانية في اللحظة التي رأى كلب الدكتورة ليند يهاجم كرانجا . وكانت الحادثة قريبة حين حاول ان يخبر الدكتورة ليند بما حدث ، وتكمن الصعوبة في التفريق بين ما حدث خارج مكتبه على الحشيش ـ وهو فقط ما اراد ان يخبرها به ـ وما أعتمل في نفسه .

لشد ما اندهش واحس بالضيق حين رآها تبكي . ولما نظر بعيداً رأى الكلب يتجول بين الاشجار الصغيرة ويقف عند مجموعة من اشجار الكافور .

قالت الدكتورة ليند «أنا آسفة» ورفعت منديلاً ابيض الى عينيها . كانت ذات شعر اشيب وتجاعيد فوق خديها وتحت عينيها . كانت تنتقل يومياً في المجمع بين البيوت الزجاجية والمختبرات والحقل ـ

مخلوقاً متوحداً مثل شبح .

قال «لا تجعلي الامر يقلقك» وتابعت عيناه الكلب .

ـ حاولت ذلك ولكن ـ ولكن ، انا اكرههم ، كيف امنع ذلك ؟ كلما رأيتهم اتذكر أتذكر ـ»

تململ بعصبية فوق الحشيش واحس بسخافة موقفه من هذه المرأة التي اراد ان يهرب منها عند ذاك بحيث فترت رغبته في اخبارها عن الكلب . غير أن الدكتورة ليند كانت في مزاج يعكس فيضاً مباشراً في رثاء النفس الذي يشعر به الانسان عندما يكون قريباً من شخص آخر وإن كان غريباً . إذ ذاك يكون مستعداً للإفضاء بمخاوفه الداخلية وهمومه . وهكذا أخبرته عن الحادثة التي حطمت حياتها ودنست جسدها . فقد عاشت وحيدة في موغوغا في منزل قديم تعرشت به الاحراش الى السقف . احبت البيت والوحدة والسلام . كان ذلك ايام الطوارىء . ولكن ضابط المنطقة حذرها مراراً عديدة طالباً منها أن تغادر ذلك المكان الموحش وتذهب الى غيثيما أو نيروبي حيث تضمن الحماية والامان . فلم تصغ اليه ولم تخفها القصص الكثيرة عن جرائم قتل النساء في البيوت الريفية البعيدة . لقد جاءت الى كينيا لاداء عمل وليس للانخراط في السياسة . احبت البلد والجؤ فقررت البقاء . لم تؤذ احداً ابداً . حقاً انها كانت تهين عامل البيت ، لكنها كانت تعطيه الهدايا والملابس ، كما بنت له بيتاً من الطابوق خلف بيتها ، ولم تحمله فوق طاقته . كان من رونجي وكان ضئيلاً ، سبق أن عمل طباخاً أو شيئاً من هذا في اثناء الحرب العالمية الثانية ، الا أنه بقي عاطلاً فترة

طويلة حتى جاء اليها . وقد نشأت بينه وبين الكلب صداقة مؤثرة . وذات ليلة كان الظلام دامساً ، طلب الفتى انْ تفتح له الباب بسرعة . وعندما فتحت له اندفع رجلان اليها واقتاداها الى غرفة الجلوس وتبعهم الفتى . نظرت اليه طلبا للمساعدة ، لكنه كان يبتسم . انتظرت ان يقتلاها لانها بعد الصدمة الاولى استسلمت للموت . غير أنها حين علمت بما يريدان منها احست بقشعريرة تدب في جسدها . يقول الناس ان النساء يغمى عليهن في هذه الحالات او يقاومن . رغبت في أن يغمى عليها أو تموت . ولكن المرعب في الأمر انها رأت كل شيء بوعي كامل . وبعد مدة اعتقل الرجلان واعدما ، لكن الفتى لم يعتقل أبداً . كان عليها ان تشتري وتدرب كلباً آخر (كان الفتى قد سمم الكلب الاول تلك الليلة) . لم تكن قادرة على نسيان رائحة الرجلين الخانقة وعيونهما المجنونة الشريرة ، كلا ، كلا ، لا يمكن ان تنسى ذلك الى الممات .

نظر اليها تومبسون وهو ينكمش من صوتها ومن جسدها ومن وجودها كله . غادرا الحقل واتخذ كل منهما اتجاهاً مختلفاً كأنهما خجلان من تقاربهما الاخير . احس بالخوف الذي استيقظ في داخله اكثر مما عرفه . في المكتب حاول ان يقمع ذلك الخوف ولكنه لم يفكر الا في الكلب . وتذكر الكلب الاخر حينما سلط اضواء السيارة على عينيه . ماذا حدث له ؟ ماذا كان يحدث لو أن كلب المرأة قفز على كرانجا ومزق لحمه ؟ أي عداء احس به في عيون الرجال عندما اقترب منهم . كان الصمت مفاجئاً كما حدث في ريرا . هناك رفض المعتقلون الكلام . جلسوا على الارض ورفضوا الاكل والشرب ، كان

عنادهم كالحديد . تبعته اعينهم اينما حل . العذاب والارق والتفكير في كيفية كسر الصمت . وفي الظلام كان يرى أعينهم . لقد شخص اعينهم ونظراتهم نفسها في الرجال الذين تجمعوا قرب المكتبة .

عمل جون تومبسون ضابط منطقة في العديد من نواحي كينيا . بذل جهداً كبيراً ، وكانت قدرته على التعامل المؤثر السريع مع الافارقة موضع اعجاب . وكانت تنتظره حياة وظيفية لامعة في الادارة الاستعمارية . وفي فترة الطوارىء كان مسؤولاً عن معسكرات الاعتقال لتوطين رجال الماماو على الحياة الاعتيادية كرعايا بريطانية . وفي ريرا حدثت مأساة حياته : الاضراب عن الطعام والتعذيب وموت احد عشر معتقلاً . تسربت الحقيقة الى الخارج . ولأن تومبسون كان مسؤولاً فقد طرح اسمه في مجلس العموم وفي الصحافة العالمية . اصبح مشهوراً فجأة . الفت لجنة تحقيق ، ونقل الى غيثيما ابعاداً له عن الادارة العامة التي احبها . ولكن الجرح لم يندمل . ما ان يشار الى الموضوع حتى يتذكر كل الاذلال الذي أحس به آنذاك .

عندما حدق الى أعينهم رأى فيها الآن شيئاً جديداً فظيعاً . هل يستطيع ان يتحمل تحقيقاً آخر تجريه هذه المرة الحكومة السوداء لو ان شيئاً ما حدث لكرانجا ؟

مع انه لم يستطع العمل ، إلا أن فترة ما بعد الظهر مرت سريعاً . قد يأتي غداً لانجاز عمله . اغلق النافذة وتذكر مرة اخرى المشهد وخوفه منه . كان كرانجا ينتظره في الممر . ماذا يريد ؟ ماذا يريد ؟

ـ «نعم ؟»

ـ «أوصلت الرسالة»

ـ «وبعد ؟»

ـ «اريد ان اشكرك»

تذكر تومبسون كذبته . حدق الى الفتى ومضى ـ فكر ثانية ونادى كرانجا .

ـ «عن ذلك الكلب ــ »

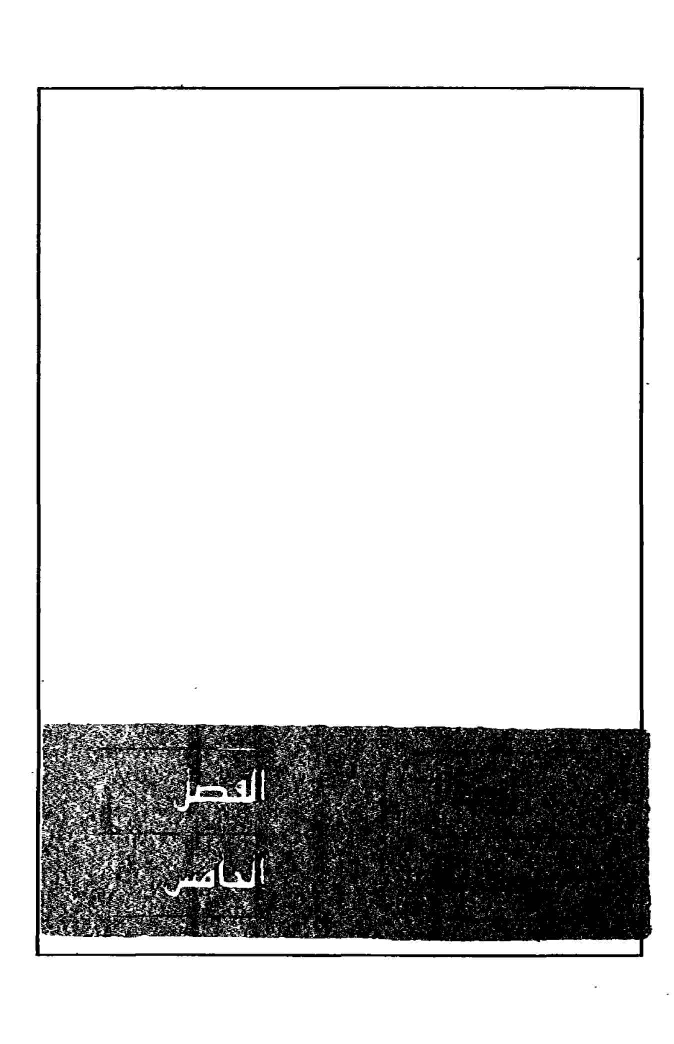
ـ «ما الامر ياسيدي ؟»

ـ «لا يقلقك ذلك . سأتولى الامر بنفسي»

ـ «اشكرك ياسيدي»

واستمر تومبسون وهو يغلي من الداخل . أكان عليه ان يطمئن كرانجا ؟ ما الذي توصلنا اليه !

احس بالدموع تبلل اطراف عينيه ، فاندفع الى السيارة وهو يكاد لا يعي .


الفصل
الخامس

أراد جون تومبسون أن يخبر مارجري عن الدكتورة ليند . فتح فمه مرتين ولكنه انتهى بالشكوى من حرارة الجو . حاول ان يركز ذهنه في المستقبل : حفل التوديع غداً ورحيلهم بعد غد وحياتهم الجديدة في بريطانيا . لكن ذهنه انصرف الى الماضي والى الجانب التافه منه ، مثل حادثة الكلب ذلك اليوم .

سألته وقد أحست بارتباكه : «ماذا عملت في نيروبي ؟»

قال : «لم أستطع الذهاب الى هناك» .

ـ «لماذا ؟»

تمتم وهو يلتقط عدداً قديماً من مجلة پَنْش كأنه يحمي نفسه منها .

ـ «كثرة العمل في المكتب»

ـ «أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام ـ اعني في المكتب»

ـ «نعم . كنت أراجع بعض الأضابير . وهناك أضابير أخرى سأراجعها غداً . بعض الرسائل تحتاج الى الرد . كل شيء يهيأ من أجل المسؤول الجديد»

ـ «نعم . لا ـ لا اعتقد ذلك»

ـ «هل يحتمل أن يكون أفريقياً ؟ أعتقد ان هناك أفارقة في كل مكان الآن»

وضع الجريدة على ركبتيه . تصلب جسده كأنه ثبت بمسمار . عادت اليه رؤية ذلك اليوم باكثر حدة . الاواني المكسورة وانابيب الإختبار الملقاة على أرض المختبر . شملت الآن مكتبه الذي بدا مليئاً برسائل لم يرد عليها واوراق وغبار منتشر على الأرض . أحس بالغيرة على مكتبه وعلى النظام الذي أوجده . واحس بكره للرجل الذي سيخلفه . ود لو يستطيع أن يحمي كرسيه من أية اهانة . أحس أيضاً بذلك الألم الذي يحسه الناس إذ يعرفون في النهاية أنهم يمكن الأستغناء عنهم ، وان المدرسة التي تركوها والجامعة والنادي ستستقبل دون أسف رجالاً آخرين مهما كانوا متهورين ولا مسؤولين كانه لم يكن لهم وجود يوماً ما ، وكأنهم لم يتركوا بصماتهم على أشياء عدوها ملكهم . وتوجه غضب تومبسون الى زوجته بلا سبب واضح . اراد أن يسألها سؤالاً ، أن يتحداها ليعرف اذا كانت هي أيضاً ضده . ما اراد أن يعرفه هو : لو كان قد مات بالأمس أو في ريرا أو في غابة كينيني . لو مات اليوم فهل تذهب الى رجل آخر ؟ ألقى بالجريدة وسار الى الغرفة الثانية دون أن يجيب عن سؤال مارجري . عاد بعد دقائق حاملا اضبارة تحتوي على الكثير من الأوراق وبدأ يتصفحها .

نهضت مارجري لرفع الاكواب والآنية . تمهلت قليلاً عند كوبه ونظرت اليه . تذكرت الأيام السالفة قبل أن يرتبطا بالخدمة الأستعمارية ، عندما كان يفتح لها قلبه ويحملها عالياً على أمواج

رؤيته الأخلاقية وتفاؤله بالمستقبل . كان ذلك بعد أن عاد جون الى اوكسفورد من الحملات الأفريقية في الحرب العالمية الثانية . ارتاحت قليلا بعد هذه الذكرى ولاحظت التوتر على وجهه ففكرت بازالته عنه برقة والى الأبد . ثم خمدت رغبتها تحت ثقل الافكار والذكريات التي ضاق بها صدرها . متى بدأ تماماً كل منهما يسير في طريق مختلفة ؟ أسرعت في جمع الأشياء الباقية وذهبت الى المطبخ . ربما أبعده العمل عنها . عندما انغمس في عمل الإدارة اليومي وشخص بعينه الى الترقية . تضاءلت رؤاه وأصبح من الصعب عليها ان تفهمه ، حتى آلمها ان تظهر له الحد الأدنى من العاطفة والحنان . بذلت في اثناء كارثة ريرا جهوداً استثنائية لمساندته وتوفير اسباب الراحة له . ولكن أين العاطفة التي يجب ان تحسها كزوجة ؟ لا تستطيع أن تشاركه في معاناته . وبدلاً من ذلك أحست بخجل الطفل الذي يضبط رجلاً متلبساً بمطاردة فراشة في الحقول والطرقات .

لم تكن مارجري لتسمح لفكرة واحدة ان تتسلط عليها طويلاً . حين كانت تغسل الأطباق في المطبخ استعادت ذكرى الدفء الذي أحسته في بداية هذا اليوم . قالت لنفسها ، ما أسخف ذلك وهي تستعيد تفاصيل مقابلتها مع كرانجا . ربما كان ذلك لأني على وشك أن أغادر أفريقيا . كلا ، ربما لأني أتقدم في السن . يقال ان حرارة الافارقة تفعل ذلك بالنساء . ضحكت بهدوء ، ثم توقفت فجأة .

أحقاً أنها تستخدم هذا المطبخ آخر مرة ؟ أحقاً انها لن ترى غيثيما ثانية أبداً ؟ هل تعني أزهارها شيئاً بالنسبة الى من يحل

محلها في هذا البيت ؟ إن كل شيء في هذا البيت ، كل كرسي ومنضدة وسرير يحمل ذكراها . خلال تجوالها من منطقة الى أخرى في طول كينيا وعرضها لم تتعلق بأي بيت أو مكان مثلما تعلقت بهذا البيت . لم يعطها أيٰ بيت آخر مثل هذه الراحة والحرية والقوة .

في غيثيما قابلت الدكتور فان دايك واستيقظ في داخلها شيء لم تكن تعرف أنها تملكه . أحست انها ضعيفة ، ضعيفة ضعفاً مبهجاً أمام الرجل . ومع ذلك فما أقرف عاداته في الشرب وما ازعج ضحكته العالية المتكررة . كان على خلاف جون تماماً . ان جون يهتم بملابسه وسلوكه ولم يسمح لنفسه بالسكر ابداً . غمرت مارجري طاقة جديدة امدتها بها السرية والجرأة والمتعة الفوضوية لمخالفة القانون . كل ذلك زاد من اثارة عملها . كانت لليلة الأولى رائحة خاصة . عاشت لحظات حبلى بالخوف والفضول والعجب . عرفت ان شيئاً ما سيحدث في اللحظة التي اعتذر زوجها عن الرقص . عندما عرض عليها فان دايك أن يوصلها الى البيت أحست بالامتنان حد أنها احتضنت ذراعه . في السيارة التي توقفت عند احدى الغابات المنتشرة في غيثيما أغمضت عينيها ولامست شفتاه شفتيها .

صب انفاسه في أذنها : «لنذهب الى المقعد الخلفي»

همست بضعف : «ليس اليوم يافان ، ليس اليوم»

قال وهو ينزع عنها ملابسها ويتحول الى المقعد الخلفي : «اليوم .. الآن»

تبعته طائعة غير قادرة على الكلام . بعد أن وجدت صوتها قالت :

ـ «أرجوك ، لنكن حذرين»
ـ «نعم ، نعم»
ـ «كن لطيفاً ـــ» وقطع كلماتها جسده الذي ارتمى فوقها . تعلقت به كأن السيارة والعالم كله سينخسفان بها . ان الظلام والأزيز المتواصل في الغابة قد أضفيا جواً خاصاً على تلك اللحظات . بعد ذلك بكت وهي تتساءل كيف يمكنها أن تواجه زوجها .
ـ «لماذا تبكين ؟»
ـ «زوجي»
ـ «الى الجحيم» ، قال ذلك هامساً .

لم تكن حياتهما الجديدة سعيدة . اصبحت تغار عليه اكثر فاكثر . في الحفلات كانت تمتعض ان رأته يتحدث الى امرأة أخرى أو يضحك معها . ولكنها لم تستطع إظهار مشاعرها أو اعلان علاقتها به . وهكذا كانا يتخاصمان في لقاءاتهما السرية التي يفترض أن تكون سعيدة . في أحد الأيام سافر تومبسون لحضور مؤتمر في اوغنده . جاء الدكتور فان دايك الى البيت وحدثها أول مرة عن عمله . تحدث بتعال ودون تأكيد . كان فخوراً بعمله :

«لا يعرف الناس ما نواجهه في كينيا . فكما ترين . في بلاد كبريطانيا المستوية نسبياً في السهولة ان نحدد مثلاً منطقة الضغط الواطىء فوق البلد . لكن من الصعوبة معرفة الجو في كينيا حيث يمكن أن تؤثر المرتفعات العالية في حدوث تغييرات مفاجئة غير متوقعة في مناطق الضغط» .
ـ «ولكن لا بد من أن تكون لديكم بدائل» .

ـ «آه ، نعم . مع آخذ الكثير من العوامل بنظر الأعتبار فان ما يجعل الأنواء الجوية في أماكن مثل كينيا وجنوبي أفريقيا اكثر أثارة ...»

دخلت عالماً جديداً رأت فيه أموراً أكثر مما تعلمته في المدرسة عن مقاييس المطر ودوارات الريح وخطوط الضغط الجوي والكتل الهوائية . علمت منه أيضاً أنه ولد وتلقى تعليمه في جنوبي أفريقيا وانه عمل في روديسيا الجنوبية ، وكان يشعر في كل مكان بأنه مسكون بأشياء لم يدركها . ظل يهرب بعيداً الى أن جاء الى غيثيما حيث لا شيء يبقي على توازنه غير الشراب . كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن عمله . واتجه الحديث تدريجياً الى حياتهما معاً فبدأت تتذمر من علاقاته مع النساء الآخريات . صرخ بها قائلاً : «الى الجحيم . انا لست زوجك» ثم خرج من البيت في منتصف الليل تاركاً إياها وحيدة بائسة . قالت مع نفسها : «لا أريد رؤيته ثانية أبداً»

وفي اليوم التالي بعثت اليه طالبة ان يعود اليها سريعاً .

كانت من النوع الذي يميل غالباً الى تحليل المواقف الذاتية . وقد أعادت النظر في علاقتها بزوجها . لم تنكر أن لجون تأثيراً فيها وانها تخصه هو . هل كان ذلك هو المعنى الجوهري للزواج ؟ في مثل تلك اللحظات التي تخوض عبرها في مستنقع الشعور بالذنب وكره الذات كانت تشعر بالحنان عليه ، كانت رغبتها قوية في الأعتراف والتخفيف عن النفس . لذا كرهت الدكتور فان دايك . ولكن ، كلما كرهته أكثر أحست بسيطرته عليها أكثر . لقد رغبت في جسده ، في الخوض داخل عالم مجهول مظلم ، في طقوس الشد واليأس

والجاذبية . ان الغيرة والخوف مما قد يفعله من وراء ظهرها قد أقضّا مضجعها وسلبا راحتها .

سحق القطار عشيقها فجأة وبشكل غير متوقع . ومما استغربته هو انها لم تشعر بالحزن عليه ، لم تشعر بأي شيء . في الواقع ، كان رد فعلها الأول هو الأحساس بأستعادتها السلام وطمأنينة النفس . ثم أحستْ فيما بعد بالأضطراب مثل شخص فقد شيئاً لا يعلم ما هو . بدأت تزرع الزهور بنشاط جديد . انها الهواية التي أهملتها في اثناء علاقتها مع دايك .

كل هذه الذكريات مرت بذهنها وهي تغسل الاطباق . تحول الحزن الى ارهاق ونفاد صبر على زوجها . فكرت انهما على وشك الدخول في مرحلة تغيير . لكن زوجها لم يتكلم . لقد سبب الأستقلال أزمة في حياتهما ، الا انه يتصرف كأن شيئاً لم يحدث . ليس لأنها تعرف تماماً ما تريده أن يتحدث عنه ، ولكن لا بد للزوج والزوجة من ان يشارك بعضهم بعضاً فيما يقلقهما بصدد الماضي وحفلة الغد وعودتهما الى الوطن يوم الأربعاء .

نعم ، سترغمه على الكلام هذه الليلة . حين قررت ذلك توقفت عن مسح الصحون وعادت بهمة الى غرفة الجلوس . كان جون يحدق الى كومة من الدفاتر والأوراق أمامه . وبين آونة وأخرى يكتب شيئاً بيد مرتجفة . انحنت عليه من الخلف وطوقت رقبته بذراعيها ، ثم داعبت أرنبة أذنه اليسرى بلسانها . تعجبت من نفسها لأنها لم تفعل ذلك منذ سنوات . تلاشى عزمها على تحويل علاقتهما الى أزمة مكشوفة .

ـ «طبت مساء»

ـ «طبت مساء»

ـ «لا تتأخر» قالت ذلك وهي تتجه الى الحمام ثم الى غرفة النوم .

جاء تومبسون أول مرة الى شرقي أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية ضابطاً في الكتيبة الأفريقية الملكية . وقام بدور فعال في حملات مدغشقر عام ١٩٤٢ . وعدا ذلك قضى معظم وقته في كينيا يقوم بمهمات تدريبية وعسكرية . بعد الحرب عاد الى دراسته في اوكسفورد . هناك ، وهو يدرس التأريخ ، وجد نفسه مهتماً بتطور الامبراطورية البريطانية . في البدء كان اهتمامه تاريخياً دون أن يعنيه الأمر شخصياً . لكنه أحس بالأضطراب واستيقظت الشعلة عند قراءته قصائد روديارد كيبلنغ . رأى في نفسه واحداً من رجال القدر ، رجلاً كتب له أن يقوم بأعمال عظيمة في المستقبل . درس حياة اللورد لوغارد وأعماله . وحين ألتقى مصادفة اثنين من الطلاب الافارقة تحولت امنياته الى قناعات ثابتة . تحدثوا في الأدب والتاريخ والحرب . كانوا متحمسين لرسالة بريطانيا في العالم . كان الطالبان الأفريقيان اللذان انحدرا من عوائل الشيوخ فيما كان يسمى بساحل الذهب قد أظهر تفهماً حقيقياً للتاريخ والأدب . وقد أثار ذلك استغراب تومبسون واعجابه . بدأ ذهنه يعمل . هناك طالبان أفريقيان لا يختلفان عن البريطانيين في الملابس وفي الكلام وفي القوى العقلية . أين اللامعقولية والتناقض والخرافة التي كانت صفات الافارقة والأجناس الشرقية . لقد حلت محل ذلك ثلاثة مبادىء اساسية من العقلية الغربية هي مبدأ العقل ومبدأ النظام

ومبدأ القياس . فكر أياماً وأسابيع في موضوع متكرر واحد . ان الطالبين الأفريقيين فخوران بتراثهما وتقاليدهما البريطانية . تحمس تومبسون وهو يعي مسيرته في خط الاكتشاف العظيم . ما هي تماماً طبيعة التراث ؟ استيقظ ذات ليلة مبتهجاً ورأى مصيره يتقرر عبر فكره . .

كتب فيما بعد : «امتلأ قلبي فرحاً . اقتنعت بإن نمو الامبراطورية البريطانية ابتدأ من تطور فكرة اخلاقية عظيمة ، على أن تؤدي الفكرة الى خلق امة بريطانية واحدة تضم شعوباً من كل الألوان والعقائد استناداً الى الإفتراض العادل أن كل الناس خلقوا متساوين . وأشرق ضوء عظيم في الظلام أمامي» .

تحويل الامبراطورية البريطانية الى أمة واحدة ، ألا يفسر هذا أشياء عديدة ؟ لماذا قدم الكثير من الافارقة انفسهم الى الموت في الحرب ضد هتلر على سبيل المثال ؟

منذ البدء ، وحالما أمسك بالقلم ليخط أفكاره طاف بذهنه عنوان مسودة الكتاب . سوف يسميه : بروسبيرو في افريقيا . قال فيه : أن تكون انجليزياً هو أساساً موقف فكري . انه طريقة في النظر الى الحياة والى العلاقات الانسانية والى التنظيم العادل للمجتمع الانساني . ألم يكن ممكناً توجيه الناس الى طريقة الحياة هذه بتغيير حياتهم الاجتماعية والثقافية ؟ كان كتاب بروسبيرو نتيجة الغوص المثابر في التاريخ الانجليزي وفي التاريخ العام للأستعمار منذ عصر الرومان حتى الآن . وقد تأثر بسياسة الإحتواء الفرنسية لكنه انتقدها انطلاقاً من ايمانه بما أسماه (مفهوم لوغادر المعاكس للحكم غير المباشر) .

«يجب علينا أن نتجنب الغلطة الفرنسية في احتواء القلة المثقفة فقط . يجب ان نشمل فلاحي آسيا وأفريقيا في هذا البرنامج الأخلاقي للإصلاح . في بريطانيا العظمى لدينا فلاح ولدينا عامل ، والجميع جزء لا يتجزء من مجتمعنا» .

كان يفضي بطموحاته تلك الى مارجري . وقد جذبها في بادىء الأمر الحزن والعمق في سيماء وجهه . اعجبت بذكائه . ان حماسه المبدئي أعطى الحياة معنى . خرجا مرة يتمشيان في لندن . وقفا قليلاً في متنزه القديس جيمز . ارتفعت عيونهما الى كنيسة ويستمنسر والى مجلس العموم البريطاني . وضعت مارجري رأسها على كتفه كأنها ترغب في أن ينقلها معه الى تلك البلدان التي تحدث عنها . وقد فعل ذلك بعد بضع سنوات . أبحر السيد والسيدة تومبسون الى شرقي أفريقيا ليكونا في مركز مسرحية الادارة الإستعمارية .

كتب عند وصوله الى مومباسا : «يسرّني أن ألمس الأرض الحمراء في كينيا . كنت هنا أيام الحرب وقد احببت الجو . لم أكن اعرف انني ساعود في مهمة مختلفة» .

كان دائماً يتذكر تلك الكلمات . حتى اليوم ، وهو على وشك مغادرة شرقي افريقيا ، فإن ملامسة أصابع مارجري اعادت اليه ومضة الايمان الذي كان مستحوذاً عليه آنذاك . ان ايمانه بالأستعمار البريطاني جعله يصرح مرة : أن تحكم شعباً يعني أن تحكم روحاً . كان يتحدث الى مجموعة من الضباط في فندق ستانلي الجديد . بعد الغداء كتب تلك الكلمات في دفتر يومياته . كلا . لم

يكن دفتر يوميات ، انما دفتر يضم مجموعة من الملاحظات كتبها في اوقات وأماكن مختلفة خلال عمله ، على أمل أن يصوغ منها فلسفة متماسكة في كتابه (بروسبيرو في أفريقيا) . هذه الملاحظات هي التي كانت أمام تومبسون . كان يقرأ فيها ويتريث عند بعض المداخل التي تلفت انتباهه .

- نايبري مكتظة بالجبال والتلال والوديان العميقة المغطاة بغابات لا يمكن اختراقها . هذه الاشجار البدائية ارهبت دائماً العقول البدائية . ان ظلام الغابة وغموضها قد قادا الانسان البدائي الى السحر والطقوس .

- ما هذا الشيء الذي يسمونه ماو ماو ؟

- يقول الدكتور شفيتزر : «أن الزنجي طفل . ولا شيء ينفع مع الأطفال غير استخدام السلطة» . عملت حتى الآن في نايبري وغيثيما وكيسومو ونغونغ .

- عدت الى نايبري . يرحل الناس الى القرى لقطع اتصالهم بالارهابيين . حرق البيوت في القرية القديمة . أحسست فجأة ان حياتي وصلت الى طريق مسدود .

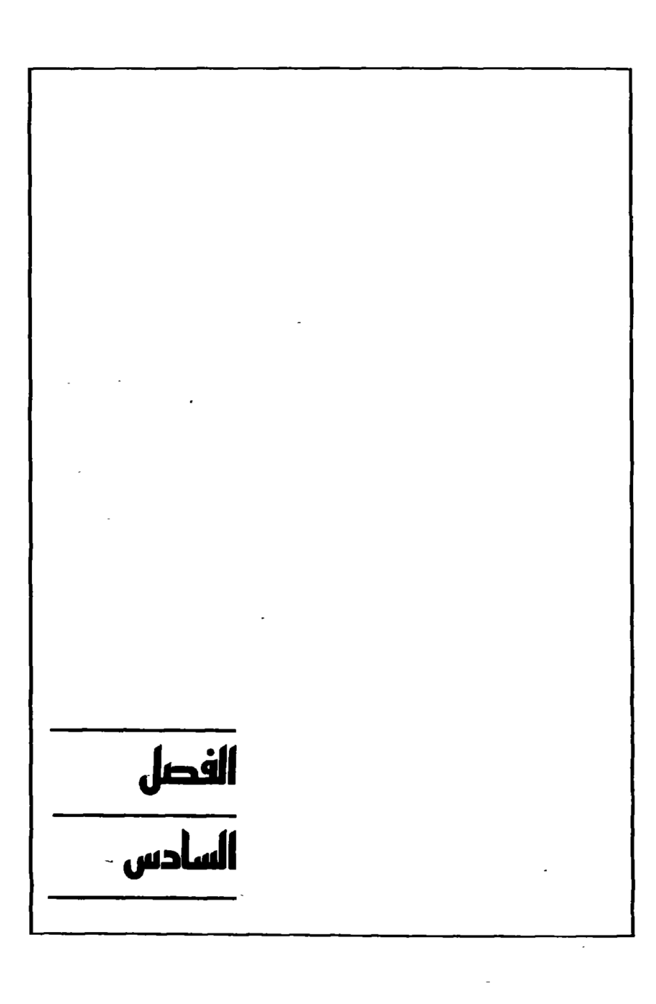
- الكولونيل روبسون ، الضابط الأول لمنطقة رونجي في كيامبو قتل بوحشية . انا احل محله في رونجي . يجب ان يستعمل المرء العصا . ليس هناك حكومة تتحمل الفوضى . لا يمكن ان تقام المدينة على هذا العنف وهذه الوحشية . حركة الماوماو شر . ان عدم قمع هذه الحركة يعني التدمير الكامل لكل القيم التي قامت عليها مدنيتنا .

ـ كل رجل أبيض معرض لتحطيم قيمه تدريجياً خلال الصراع اليومي المستمر مع الانسان الافريقي . الدكتور البرت شفيتزر .
ـ في تعاملك مع الأفريقي ترغم على القيام بأعمال غير متوقعة . جاء رجل الى مكتبي يوم أمس . أخبرني عن مكان قائد ارهابي مطلوب . أدركت منذ البدء أنه يكذب . ربما كان يمثل للايقاع بي أو لإخفاء دوره في الحركة . بدا كأنه يسخر مني ، تذكر أن الأفريقي يولد ممثلاً ، ولهذا من السهل عليه أن يكذب . بصقت فجأة في وجهه . لم أدر لماذا ، لكنني فعلتها .

عاد تومبسون الى الحاضر . حدق الى المسودة دون أن يرى شيئاً . قبل حادثة ريرا كان طريقه الى القمة واضحاً ومفتوحاً . الآن ، وفي غيثيما أحس بسخرية كلماته التي كتبها ، السخرية التي أكدتها حقيقة ان زوج الملكة سيكون ضيف شرف في احتفالات الاستقلال . ان مداعبة زوجته اعادت اليه حلمه وسخرت منه : ما الذي كان سيحصل حتى لو وصل الى القمة ، الى درجة حاكم البلاد ؟ كل ذلك انتهى الآن مثل هذا البيت والمكتب وغيثيما والبلاد كلها . فليبق الحمقى مثل الدكتورة ليند ، لأنهم في النهاية سيطردون بلا احتفال . لهذا قدم تومبسون استقالته ليرحل قبل الاستقلال . لماذا ينتظر الناس مهانة ان يزيحهم عن كراسيهم خدم بيوتهم ؟ تذكر الدكتورة ليند وقصتها وكذبته على كرانجا . اراد ان يتحدث الى مارجري هذه الليلة لأنها استعادت ايمانها به . ان صوتها وعينيها الهادئتين ستزيح عنه الهلوسات التي ابتلي بها . كم كبرنا . نشط نفسه من أجل الجهود التي سيبذلها . خفق قلبه بالأمل

والخوف وهو يسير الى الحمام استعداداً للاعتراف الكبير .

فتح باب الحمام بحذر ودلف الى الداخل . لم يفتح الأضواء لأنه أحس بأن الظلام يخلق جواً مناسباً . ولد الانسان ليموت ويولد من جديد . كانت يداه ترتعشان قليلاً اذ احس ان الظلام يزحف نحوه عندما وصل الى سرير النوم . الا أن مارجري كانت نائمة . شعر تومبسون بارتياح كبير . ذهب الى سريره لكنه لم ينم فترة طويلة .



الفصل السادس

يقول الناس وهم يشيرون الى الانسان العصامي الذي يحقق ثروة ومركزاً اجتماعياً ، ان الله يساعد من يساعد نفسه ، متناسين الآلاف الذين يكدون طوال حياتهم ولكنهم يعانون الجوع يوماً بعد آخر دون أن يستطيعوا رفع مستواهم المعاشي . هذه المقولة الجاهزة تنطبق على جيكونيو . يقول الناس في ثاباي : ان معسكرات الاعتقال علمته كيف يدير شؤونه .

كان جيكونيو ضمن المجموعة الأولى التي مرت من الانبوب قبل عودته الى القرية (الانبوب هو التسمية المخففة الرسمية لسلسلة معسكرات الاعتقال التي يمر بها كافة المعتقلين) . حين عاد لم يكن معه غير منشار قديم ومطرقة . ومن حسن حظه أنه عاد في موسم حصاد آب وأيلول ، اي الفترة التي يكثر فيها الطلب على النجارين لعمل سقائف الذرة والحبوب والبطاطا ومخازنها . عرفه الناس قبل الطوارىء . اما الآن فقد بدأ العمل بجهد أكبر وأنهى كل سقيفة في موعدها المحدد . انهالت عليه الطلبات . إلا أنه حين ينجز واجبه حسب الاتفاق لا يتوقع غير ذلك من الجانب الآخر . لهذا أصر على الحصول على أجره تماماً في اليوم المتفق عليه . لم يرض بالتأجيل .

وقد تعامل مع الفقراء والأغنياء بالتساوي . الفرق الوحيد هو أنه أعطى وقتاً أطول لبعض المحتاجين كي يتدبروا المال . لكن يجب ان يكون الأجر جاهزاً في الموعد المتفق عليه سواء بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة . كانوا يشكون : «ان المعتقل قد غيره» لكنهم وثقوا بامانته واحترموها . على الأقل كان ينجز ما يمليه الاتفاق في الوقت المحدد .

وبدل أن يشتري ملابس له ولعائلته عمل جيكونيو كما يعمل التجار الهنود . اشترى كميات من الذرة والحبوب بسعر رخيص في موسم الحصاد وحفظها في أكياس ثم خزنها في كوخ أمه حيث يعيش هو مع مومبي . فكر ان زوجته وأمه عاشتا عاريتين تعانيان الجوع ست سنوات ولا يضيرهما الانتظار بضعة شهور أخرى . عندما تنتهي زحمة العمل التي يجيء بها الحصاد يقوم جيكونيو بأعمال عديدة هنا وهناك بانتظار الفرصة الملائمة . في ثاباي والقرى المجاورة لرونجي ينتهي خزين الناس من الطعام في كانون الأول . يعقب ذلك عادة شهر أو شهران من الجفاف قبل بدء موسم الأمطار في آذار . وينتظر الناس نمو الزرع حتى في ذلك الوقت . عندها يتوقف جيكونيو عن عمله كنجار ويدخل السوق . كان يذهب مبكراً الى السوق ويشتري كيساً أو أثنين من الذرة بسعر الجملة من المجهزين المجازين ، واحياناً من السوق السوداء . ثم تلتحق به في النهار زوجته وأمه . وكما تفعل نساء السوق الآخريات فان مومبي ووانغاري كانتا تبيعان الذرة بسعر المفرد مستخدمتين اليقطين للوزن . ثم يشتري جيكونيو بالنقود كيساً آخر تبيعه المرأتان بسعر المفرد . وهكذا يستثمر الأرباح في عمل اليوم التالي . يشتري بعض

الأحيان كيساً من الذرة ويبيعه لشخص آخر بسعر أعلى . لم يكن فظاً مع الزبائن . كان يتحدث بتواضع ويخدمهم ، وكان مستعداً دائماً للاعتذار ويعيرهم اهتماماً كبيراً . بهذه الطريقة جمع المال . أحب الناس ، وخصوصاً النساء ، التعامل معه ، كن يقلن : «لسان عذب وانسان أمين أيضاً» . هكذا انتشرت سمعته في السوق . كان جيكونيو ينتظر دائماً أن تشح الذرة . ان تجهيزات المزارع الاوربية في الوادي العميق تخضع لسيطرة مشددة . وفي الوقت المناسب يعرض في السوق كل ما خزن باسعار عالية .

كانت حياة كفاح شاقة . في البداية احتقره الناس لقيامه بعمل النساء . لكنه حين اغتنى بدأوا يحترمونه . وحاول بعضهم ان يقلده بدرجات متفاوتة من النجاح . ان قصة غنى جيكونيو أصبحت مثلاً أخلاقياً تحكيه كل أم في ثاباي لأبنائها :

«ان زوجته وامه العجوز لم تعودا بحاجة الى حشر نفسيهما مع النساء الآخريات في السوق . كل ذلك لأن الإبن لم يخف من أن تتسخ يداه . انه لم ينم في منتصف النهار كما يفعل الاوربيون» .

في الحقيقة ، كان جيكونيو ينهض مبكراً . ولم يسمح لهموم قلبه أو لأي شيء آخر أن يثنيه عن هدفه المباشر . في الصباح الذي اعقب زيارته موغو ، على سبيل المثال ، نهض من النوم قبل طيور الصباح وذهب الى كيريتا خلف المرتفعات حيث اشترى الخضر التي نقلها بعدئذ الى نيروبي . ان تجهيز نيروبي بالخضر عمل مربح (وكانت لدى جيكونيو طلبات كثيرة) ، خصوصاً اذا أحسنت رشوة شرطة المرور وشرطة السوق الذين يثيرون المتاعب دائماً لرجال الأعمال

الأفارقة . فالحكومة المحلية لم تغير من معاملتها الحسنة للأوربيين والآسيويين . لم يكن جيكونيو يجيد السياقة فاستخدم رجلين كان أحدهما سائقاً والآخر مساعداً له ، وجعلهما مسؤولين عن هذا الجانب من أعماله . لكنه أبقى عينيه مفتوحتين دائماً على كل شيء . على أية حال كان يحب أن يرسم الطريق لعماله بنفسه . وفي فترة الغداء عقد اجتماعاً مع اللجنة المسؤولة عن تزيين الساحة التي تقام فيها الألعاب والرقصات في يوم الأستقلال .

وبعد الظهر كان على موعد مع نائب المنطقة . فقبل شهر من ذلك التاريخ قرر جيكونيو وخمسة من الرجال الآخرين شراء مزرعة صغيرة تعود الى السيد برتون . كان السيد برتون احد المستوطنين الأوائل الذين شجعتهم الحكومة البريطانية على الاستيطان في كينيا . وقد جاء بعد انتهاء خط سكك الحديد الممتد الى اوغندا وحصل على قطعة أرض بثمن بخس . كان اطفاله قد ولدوا في كينيا وتعلموا في مدارسها . ذهب الأولاد الى مدرسة أمير ويلز والبنات الى مدرسة كينيا الثانوية (أو مدرسة هيفر بوما ، كما يسمونها) ، ثم رحلوا الى وطنهم انجلترة لاكمال الدراسة الجامعية . بقي معظمهم هناك عدا ولداً وبنتاً عادا الى كينيا . وقد عمل الولد في احدى شركات النفط الكبيرة في نيروبي . لم يعرف برتون وطناً آخر غير كينيا الى أن أصبح شيخاً كبيراً . لم يرغب في مغادرة البلاد (لم يذهب الى بريطانيا حتى في الإجازات أو لاغراض علاجية) . الى أن رأى ان السلطة ستنتقل الى أيدي السود دون شك . لم يتوقع السيد برتون أو المستوطنون الآخرون ان الحكومة البريطانية سوف تتنازل حقاً

على الرغم من تلميحات قائدهم السير مايكل بلندل . عرض السيد برتون أن يبيع الأرض التي أحبها ووضع فيها الكثير من حياته ليعود الى وطنه بريطانيا . اتصل جيكونيو بالسيد برتون وعمل الترتيبات الأولية . لم يكن في حوزة جيكونيو وشركائه اكثر من نصف المبلغ الذي يريده برتون نقداً . ذهب جيكونيو لرؤية النائب ليتأكد ان كان يذكره ويستخدم نفوذه من وراء الستار ليحصل لهم على قرض من الحكومة . اصغى النائب باهتمام الى طلباتهم ودوّن كل تفاصيل المزرعة على الورق . ثم طلب من جيكونيو أن يعود هذا اليوم . قال وهو يصافح جيكونيو بقوة : «هذه هي حقاً روح هارامبي . هكذا يساعد الانسان نفسه حقاً» .

كان جيكونيو متفائلاً جداً حين خرج من الاجتماع مسرعاً ليلحق بالحافلة المتجهة الى نيروبي . كانت الحافلة التي سميت (الطفل المجتهد) تعود الى واحد من تجار رونجي الذين أثروا خلال حرب الاستقلال . كان اولئك الرجال قد حصلوا عن طريق تعاونهم مع الحكومة الاستعمارية على اجازات تجارية وحتى على قروض لتطوير اعمالهم . وعلى الرغم من ان جيكونيو كان متفائلاً الا أنه أحس بمشقة قطع كل هذا الطريق الى نيروبي . ان القليل من النواب لهم مكاتب في دوائرهم الانتخابية ، اذ ما أن يتم انتخابهم حتى يسرعوا الى نيروبي . ويندر أن يظهروا في مناطقهم الا حين يعودون مع القادة الوطنيين لالقاء الخطب في الاجتماعات السياسية . وقبل ان يصلوا الى نيروبي أوقف شرطيان الحافلة . صعد أحدهما ليحصي عدد الركاب بينما طلب الآخر اجازة السوق . كان في الحافلة راكبان

اضافيان . بدأ السائق يحاور الشرطيين . نزل جابي النقود واخذ الشرطيين جانبا ثم اشار الى السائق ان يتحرك . فهم السائق الاشارة . حرك الحافلة بضع ياردات ثم توقف . بعدها جاء الجابي مسرعاً وصعد الى الحافلة . قال : «كانا يريدان بضعة قروش لشراء الشاي» . ضحك ركاب الحافلة . واستمر (الطفل المجتهد) في رحلته الى المدينة . كان شارع الإستقلال (الاميرة اليزابيث سابقاً) مزداناً باعلام كينيا ذات الألوان السوداء والخضراء والحمراء ، وباعلام الدول الأفريقية الأخرى . نسى جيكونيو برهةً مهمته في المدينة . كان قلبه يخفق مع الأعلام . نزل من الحافلة وسار في شارع كينياتا وهو يشعر كأن المدينة تعود له حقاً . ان تمثال لورد ديلامير المهيمن على الشارع الذي يحمل أسمه قد أزيح واقيمت مكانه نافورات تجمع حولها الافارقة الذين تدفقوا الى ساحات فندق ستانلي الجديد وكلهم يشيرون الى نافورات الماء الدوارة ويتحدثون عنها . سمع جيكونيو احدى النساء تقول : «هناك انابيب كثيرة تتنافس في قذف الماء» . ضحك بعض الناس الواقفين قربها . رأى جيكونيو ان نيروبي مستعدة للأستقلال . قرر أنه سيثير حماساً أكثر لتزيين رونجي عندما يعود الى ثاباي .

عبر شارع الحكومة الى شارع فكتوريا وبدأ عقله التجاري يعمل مرة أخرى . بدأ يتساءل ، وكان يتساءل دائماً كلما عبر هذين الشارعين ، لماذا لا يوجد دكان أفريقي واحد في المركز التجاري لنيروبي ! لم تكن نيروبي ، في الحقيقة ، مدينة أفريقية على خلاف كامبالا (كما يقول كاريوكي ، على الأقل) . أن الأوربيين والهنود

يسيطرون على الحياة التجارية والاجتماعية للمدينة . ولا يعمل الأفارقة هناك الا في تنظيف الشوارع وقيادة الحافلات . وعند هبوط الظلام يتسوقون ويعودون الى منازلهم في ضواحي المدينة .

هناك حشد من الناس ينتظر خارج مكتب النائب لأنه لم يأت . لقد اعتادوا على مخالفة المواعيد وخرق الوعود . كان بعضهم يأتون الى المكتب يوماً بعد آخر دون ان يروا ممثلهم .

اشتكت احدى النساء قائلة : «كأننا نريد مقابلة الرب»

ـ «لماذا ، ما الذي تريدين طلبه منه ؟»

ـ «ابني يريد بعثة الى امريكا . وانت ؟»

ـ «بعض المشاكل . في السبت الماضي اعتقلوا زوجي لأنه لم يدفع الضرائب . ولكن كيف يدفع ضريبة التصويت وهو بلا عمل ؟ لقد ترك اطفالنا المدرسة لأننا لا نملك النقود .»

جاء بعض الناس بصدد مشاكل الأرض وجاء آخرون طلباً للنصيحة في مشاكلهم الزوجية . وهناك وفد جاء يناشد النائب دعم طلبهم من أجل بناء مدرسة ثانوية في منطقتهم . كان أحد الشيوخ فيهم يقول :

«لا يجد ابناؤنا مكاناً يذهبون اليه بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية»

وصل النائب بعد ساعة او اكثر من موعده . كان يلبس بدلة غامقة اللون ويحمل حقيبة يدوية ، وكان يدخن غليوناً . حيا كل الناس كما يحيي الأب أو مدير المدرسة أولاده . دخل مكتبه دون اعتذار وبدأ الناس يقابلونه واحداً بعد الآخر .

خفق قلب جيكونيو بالأمل . لو أنهم يحصلون على القرض ! انفتحت أمامه رؤية مستقبل جديد . سيديرون المزرعة على أساس تعاوني . سيربون أبقاراً جديدة وسيزرعون الشاي والذرة وكل شيء . ربما تتسع التعاونية بعد ذلك لتضم آخرين . وبعد انتظار طويل جاء دوره . بدا كأن النائب دهش حين رآه .

قال بلطف : «اجلس ، اجلس» واشار الى احد الكراسي بيده اليسرى بينما أسند الغليون الى فمه بيده اليمنى . أخرج ملفاً من احد الأدراج وفتحه . بدا كأنه مشغول حقاً بضع دقائق . انتظر جيكونيو بلهفة . رفع النائب وجهه عن الملف واتكأ الى الخلف على كرسيه . أبعد الغليون عن فمه .

ـ «والآن ، عن هذه القروض . ليس من السهل الحصول عليها ، ولكني أبذل قصارى جهدي . ربما أحصل على انباء جيدة لك خلال أيام قليلة» .

قال جيكونيو دون أن يخفي خيبة أمله : «ومتى أستطيع العودة ؟» تصفح النائب مفكرته ثم نظر الى جيكونيو : «آه ، اليوم هو ..... لندع الأمر هكذا : سآتي لرؤيتك او الكتابة اليك عندما أحصل على نتيجة . انت تملك دكاناً في رونجي : أليس كذلك ؟»

ـ «نعم»

ـ «هذا يوفر عليك الكثير من المتاعب . هل اتفقنا على ذلك ؟»

قال جيكونيو وهو ينهض «حسناً» . وعند الباب استدار وسأل : «هل تعتقد اننا سنحصل على القرض أو ينبغي لنا البحث عن وسائل أخرى للحصول على المال ؟» .

بدا لجيكونيو انه لاحظ فزعاً على وجه النائب الذي قال وهو ينهض : «اوه ، كلا ، كلا ، لا توجد صعوبة حقيقية في الأمر . القروض موجودة ، والأمر يتوقف على معرفة السبل الصحيحة . اترك الأمر لي . إتفقنا ؟»

قال جيكونيو : «حسناً» وقرر الذهاب لرؤية السيد برتون في اليوم التالي . لو يقبل السيد برتون نصف المبلغ الآن فمن المؤكد أنهم سيعطونه النصف الثاني عند استلام القرض أو يجمعونه له بوسائل أخرى . وقبل أن يبتعد جيكونيو سمع الناس يصفرون له . استدار الى الخلف فرأى الناس يشيرون اليه . النائب يريده . مرة ثانية صعد الدرجات الى المكتب .

ـ «فيما يتعلق باحتفالات الاستقلال في رونجي ، أرجو أن تشكر الفرع وشيوخ القرية على دعوتهم إياي . لكن اعضاء البرلمان كلفوا في ذلك اليوم بمهمات عديدة هنا . لذا اعتذر نيابة عني الى الناس وقل لهم إنني لا أستطيع الحضور» .

ـ «يحيا الاستقلال»

ـ «يحيا الاستقلال»

بعد يومين كان الناس يتحدثون عن موغو في القرى الثماني كلها المجاورة لثاباي . كانوا يتحدثون بدرجات متفاوتة من المبالغة عن كيفية تنظيمه الاضراب في ريرا ، ذلك العمل الذي دفع فينا بروكوي الى أن يثير الاسئلة في مجلس العموم البريطاني . ان ميله الى العزلة وسلوكه الغريب جعلا منه الرجل المختار .

ان اعوام الاعتقال والمعاناة لم تضعف جسده القوى ، بل

أحكمته . كان طويلاً ذا عينين واسعتين . خطوط وجهه مستقيمة ومُعْلَمة بوضوح كأنها منحوتة في حجر . انه واحد من اولئك الناس الذين يبعثون بنظراتهم الامل والثقة .

لكن لم يكن لدى موغو أي هاجس يوم الأحد ولا يوم الأثنين بأن اعجاب الجمهور يتجه اليه ، في الواقع ، كان اقتراح الحزب المفاجىء قد أخل بتوازنه . وعندما استيقظ صباح اليوم التالي تمنى ان يكون ذلك حلماً آخر من أحلامه . إلا أن منظر الكراسي التي جلس عليها اعضاء الوفد قد شتت أمله . دارت كلماتهم برأسه كأنها كابوس . لماذا يريدون منه ان يقود احتفالات الاستقلال ؟ لماذا لم يختاروا جيكونيو أو واروي أو واحداً من مقاتلي الغابة ؟ لماذا موغو ؟ لماذا ، لماذا ؟

فكر في الذهاب الى المزرعة . كلا . انه لا يستطيع القيام بأي عمل . اضافة الى انه لا يريد السير في طرقات القرية . لا يريد مقابلة واروي او وامبوي أو غيثوا أو المرأة العجوز . الذهاب الى رونجي أفضل . كان يوماً حاراً آخر . أحرقت الشمس قدميه العاريتين . تجمع التراب ملتصقاً بأصابع رجليه التي ترشح العرق . زادت الحرارة من حمى انفعاله واضطراب أفكاره . نعم ... انهم يريدونني .. أنا .. أن القي خطاباً ... امتدح كيهيكا و ... وكل تلك الأمور ... ياالهي ... لم ألق خطاباً في حياتي .. آه ، نعم ... لقد فعلت ... هم قالوا ذلك ... قالوا إنه خطاب جيد ... ها ! ها ! ها ! اخبرهم باكاذيب بعد اكاذيب ... انهم يصدقون ... أي شخص ، لماذا أنا ... أنا ... أنا ... يريدون الايقاع بي ... جيكونيو نسيب

كيهيكا ... الجنرال ... الملازم كونياندو ... آه ، نعم ... كلمه ... كلام ... كلمات ...

لم يلق موغو سوى خطاب واحد حقيقي في حياته . كان ذلك في اجتماع خارج مخازن كابوي قرب ثاباي . عقد الحزب ذلك الاجتماع ليقدم المعتقلين العائدين الى الجمهور . وافق موغو على حضور ذلك الإجتماع لأنه فكر في العودة الى حياته الطبيعية في القرية . ولماذا يلفت النظر الى نفسه برفضه الحضور ؟ جاء الكثير من الناس الى الاجتماع لأننا في ذلك الوقت حصلنا على حق عقد الاجتماعات السياسية . حضر بعض الناس الاجتماع للتمتع بقصص الهروب والأعمال البطولية . كان الوضع في كينيا آنذاك كما يلي : انتهت حالة الطوارىء رسمياً (قبل عام تقريباً) ، لكن جومو كينياتا ورفاقه الخمسة ما زالوا معتقلين في السجن . وكانت الجروح التي عانى منها الناس ما زالت طرية لا تستطيع العين ان تراها ولا اليد ان تلمسها .

تحدث قادة الحزب في المنطقة بادىء بدء . طالبوا باطلاق سراح جومو كينياتا ليقود كينيا الى الاستقلال ، فالناس لا يقبلون أي شخص غيره رئيساً للوزراء . حثوا الجمهور على التصويت لمرشيحهم في الأنتخابات القادمة . ان التصويت للمرشح هو تصويت لكينياتا . كان الاجتماع حقاً لتقديم الرجال الذين جعلوا هذه الانتخابات ممكنة بفضل تضحياتهم وولائهم للوطن .

تسلم المعتقلون العائدون الاشارة ونهضوا للحديث . تحدثوا عن المعاناة في ظل الرجل الأبيض واوضحوا ذلك بقصص كشفت عن

حبهم العميق لكينيا . وكان الناس يغنون بعد كل متحدث : كينيا هي بلد الشعب الأسود . وقد جسد أحد المعتقلين هذه الكلمات بقوله : «لا شيء أعظم من حب الانسان لوطنه . ان حبي لكينيا هو الذي أبقاني حياً وجعلني أتحمل كل شيء . لذا يمكن القول بحق ان كينيا هي بلد الشعب الأسود» .

في هذه المرحلة من الفعاليات قام بعض المعتقلين ممن سمعوا عن دور موغو في ريرا ، ودفعوه الى الأمام . كان بينهم نيامو (الذي انتخب بعدئذ سكرتيراً لفرع الحزب) وكان في ريرا عندما عُذب احد عشر معتقلاً حتى الموت . وقف موغو أمام الجمهور . أفزعه صوته الذي كان صدئاً وبلا لون . تحدث بلهجة جافة متعبة كأنه يتحدث عن مشاهد لا يريد أن يتذكرها .

«أخذونا للعمل في الطرق وفي مقالع الحجر . شملت الأشغال الشاقة حتى أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً . كانوا يدعوننا مجرمين ، ليس لاننا سرقنا أي شيء أو قتلنا أي أنسان ، ولكن لاننا طالبنا فقط بالشيء الذي هو ملكنا من زمن آغو وآغو . أرغمونا على الحفر ليلاً ونهاراً . أُصبنا بالمرض ونمنا وبطوننا خاوية . كانت ملابسنا ممزقة ومهلهلة حتى أن المطر والريح والشمس تنفذ الى أجسادنا . في تلك الأيام لم نبق احياء لأننا آمنا بقوة قضيتنا ، ولم نبق أحياء بسبب حبنا لوطننا . لو كان ذلك هو كل شيء لما بقي أحد حياً .

«كنا نفكر في البيت فقط .

«اشتقنا الى اليوم الذي نرى فيه نساءنا تضحك واطفالنا يتخاصمون ويبكون . عندما كنا نفكر في أننا سنعود في يوم من الأيام

الى البيت لرؤية وجوه امهاتنا وزوجاتنا واطفالنا وسماع أصواتهم كنا نشعر بالقوة . نعم ، كنا أقوياء حتى في الأيام التي بدت القضية التي اريقت من اجلها الدماء «كأنها ... كأنها ...»

في البداية تمتع موغو بالمسافة التي أقامها بينه وبين صوته . لكن الصوت اثار اشمئزازه . أراد أن يصرخ ، ليس الأمر هكذا أبداً . لم أرد العودة . لم أشتق الى أمي أو زوجتي أو طفلي لأني لا أملك أياً منهم . اخبرني إذن من أحببت ؟ توقف في منتصف الجملة وغادر المنصة باتجاه كوخه .

بعد الأجتماع التجأ موغو الى التكتم . انشغل الناس باعمالهم اليومية . وبدأوا يصلحون ما تعرض للخراب . جاءت الانتخابات . صوت الناس للحزب وعادوا الى كدحهم اليومي . ظن موغو أن اهالي ثاباي قد نسوه . لكن الأساطير تنمو حتى في ارض قليلة الخصوبة . قال الناس في الاجتماع إن الرجل قد انفعل انفعالاً لم يستطع فيه مواصلة الكلام . وكلما علق واروي على الاجتماع قال : «لم تصدر تلك الكلمات عن قلب عادي» .

سار موغو بثبات كأنه ينوي الوصول الى هدفه مبكراً . رأى فجأة كل ماضيه في ومضة تشبه البرق الذي يشق الليل نصفين . كل حياته ضغطت في تلك الومضة . انتقى بعدئذ بعض الأحداث وحاول أن يتجاوز تلك التي تسبب له الألم . تذكر ذلك الاجتماع ثم عاد بفكره الى اجتماع ليلة أمس . «انه سينصف الفقير من الناس . سينقذ اطفال المحتاجين وسيمزق الظالم ارباً» . أفزعته الكلمات . أشرقت ومضة أخرى داخله . وقف متجمداً . تدفقت افكاره فجأة

وازاحت تلك الومضة . هل كان الجنرال يسأله كل تلك الاسئلة لو لم يشك في أمره ؟ يلتقي شخصاً ما خلال أسبوع ؟ كرانجا ؟ نعم ، هل يمكن أن يطلبوا منه احتلال مكانه في المجتمع بمديح الرجل الذي كان قد خانه ؟

انتابت موغو تلك المخاوف والشكوك والآمال في ذلك المساء عندما طرق جيكونيو الباب ودخل . وقفا برهة وقد احس كل منهما بالحرج من وجود الآخر . وضع له موغو كرسياً قرب النار وقال : «تفضل بالجلوس» .

بعد أن جلس جيكونيو بدا بداية خرقاء : «اعرف انك لم تتوقع مجيئي»

ـ «لا تبالي . اظن انك جئت لتسمع قراري»

ـ «كلا . ليس ذلك ما دفعني الى المجيء هذه الليلة» . ثم أخبر موغو بزيارته نيروبي ولقائه النائب .

كان موغو جالساً على السرير قبالة جيكونيو . انتظره ليكمل حديثه . كان في الموقد ثلاث قطع من الحجر تحيط بالنار .

ـ «لكن ذلك ليس سبب مجيئي هنا . انها متاعبي الخاصة . متاعب قلبي» ابتسم جيكونيو وحاول ان يبدو طبيعياً . ثم انتهى بموقف مسرحي : «في الحقيقة جئت لأطرح عليك سؤالاً» .

تأرجح قلب موغو بين الخوف والفضول .

واصل جيكونيو حديثه بحذر شديد : «أتعرف اننا كنا مرة في المعتقل نفسه ؟» ارتاح موغو قليلاً مع ان الشكوك ما زالت تساوره . «حقاً ؟ لا أتذكر ذلك . كان هناك الكثير من الناس»

ـ «كنا في معسكر موهيا . عرفنا انهم سيجلبونك هناك . كنا طبعاً قد سمعنا عن دورك في اضراب ريرا . لم تخبرنا السلطات لان المفروض أن يبقى ذلك سراً . ولكننا عرفنا» .

تذكر موغو تومبسون الذي عذبه . أما في موهيا فلم يتذكر غير الاسلاك الشائكة والمنطقة المسطحة الجافة . لكن كل المعسكرات تقع في مثل تلك المناطق .

ـ «لماذا تخبرني بذلك ؟ انا لا أحب أن أتذكر» .

ـ «وهل تنسى ؟»

ـ «أحاول ذلك . تقول الحكومة ان علينا ان ندفن الماضي»

صرخ جيكونيو : «أنا لا أستطيع أن أنسى . لن أنسى أبداً»

سأل موغو بتعاطف : «هل عانيت كثيراً ؟»

ـ «كلا ، لم أعان ، أقصد .. هل تعرف انني لم أتعرض للضرب ولا مرة واحدة . هل يدهشك ذلك ؟»

ـ «هناك أشخاص لم يضربوا . أعرف ذلك»

ـ «وهل ضربت أنت ؟»

ـ «نعم . عدة مرات»

ـ «كنت شجاعاً ولم تعترف . لقد اعجبنا بشجاعتك واخفينا رؤوسنا خجلاً»

ـ «لم يكن هناك ما اعترف به»

ـ «نحن اعترفنا . انا كنت على استعداد للقيام بأي شيء كي اعود الى البيت»

ـ «لديك زوجة وأم»

ـ «نعم . انت تفهم»
صرخ موغو بصوت مرتفع : «كلا . انا لا افهم . انا لا افهم أي شيء»
ـ «اذن لماذا تحدثت بتلك الطريقة ؟»
ـ «متى ؟»
ـ «في الاجتماع ! أتتذكر ؟ لقد تحدثنا بطريقة زائفة لاننا اردنا أن نخدع أنفسنا ، فذلك يقلل من العار . تحدثنا عن اخلاصنا للحكومة وحبنا الوطن . تعرف انني مرت بي لحظات لم اهتم فيها باستقلال البلاد أبداً . كنت فقط اريد العودة الى البيت . كنت على استعداد لبيع كينيا الى الرجل الأبيض مقابل حريتي . أنا معجب بالناس الذين يشبهون كيهيكا . انهم يمتلكون من القوة ما يكفي للموت من أجل الحقيقة . لذلك كنا فخورين بك في المعتقل ، ولكننا رفضناك وكرهناك في الوقت نفسه . انت تعرف ان الناس من امثالك ، اولئك الذين رفضوا التخلي عن رجولتهم كشفوا لنا ما يجب أن نكون عليه . لكننا لم نملك عظاماً حقيقية في أجسادنا . لقد كنا جبناء»
ـ «ليس ذلك جبناً . لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه»
ـ «ولماذا لم تفعل ؟»
قال موغو وقد نسي نفسه : «تريد أن تعرف ، أليس كذلك ؟» ثم تبخر الإغراء من رأسه فقال بهدوء وبلا حماس : «لم يكن لي بيت آتي اليه . أعتقد أنني لم أرغب في العودة» .
قال جيكونيو بفيض من الاعجاب الحقيقي : «كلا . ليس الأمر كذلك . إن لك قلباً عظيماً . ان الناس من أمثالك يجب أن يكونوا

أول من يتذوقون ثمار الاستقلال . ولكن من هم الآن الذين يركبون السيارات الطويلة ويغيرونها كما يغيرون ملابسهم ؟ أنهم اولئك الذين لم يشتركوا في الحركة ، اولئك الذين اختبأوا في المدارس والجامعات والدوائر . تراهم اليوم يهتفون للاستقلال في الاجتماعات السياسية ، ذلك الاستقلال الذي قاتلنا من أجله . أين قاتلوا ؟ انهم أولاد لم يبلغوا الرجولة ، وهم لا يعرفون من المعاناة غير الأسم . كان عليهم أن يسمعوا كلمتك في ذلك اليوم . عندما كنت تتكلم احسست بأنك تقرأ قلبي ...»

قال موغو بنبرة حيادية كأنه اراد أن يغير الموضوع : «هل كان الانتظار صعباً عليك ؟» وكان جيكونيو بحاجة الى قليل من التشجيع فقط .

ـ «نعم . ظننت انني لن أعود أبداً . ان تجربة الحياة الشاقة في المعتقل علمتني انني أستطيع أن أصنع شيئاً عظيماً من حياتي مع مومبي» .

تحدث جيكونيو عن عالم يمكن أن يتحقق فيه الحب والسعادة . تساءل موغو مع نفسه ، لماذا هو مضطرب أذن ؟ انه يملك كل ما يحتاجه المرء لتحقيق السعادة : الثروة والمركز الاجتماعي والعائلة التي تعنى به .

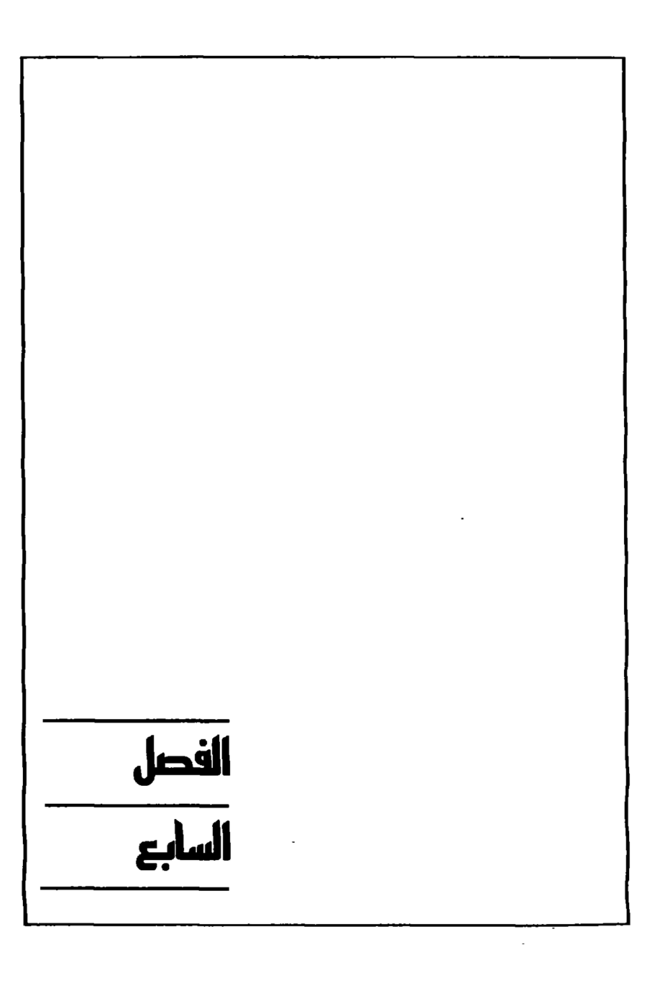
علق موغو : «انت تحب زوجتك ؟»

أجاب جيكونيو ببطء وتأكيد : «نعم أحبها» . ران الصمت في الكوخ . ما زالت النار تلتهب بينهما وما زال المصباح الزيتي يشعشع .

أوضح جيكونيو وهو يحدق الى الموقد : «كانت هي كل حياتي . كل حياتي . أتعرف» استمر باللهجة الهادئة نفسها : «أتعرف انني عندما عدت وجدت لن كل شيء قد تغير ـ الحقول والقرى والناس ...»

ـ «مومبي ؟»

قال جيكونيو بهمس : «هي أيضا تغيرت . ياالهي ، أين مومبي التي تركتها ؟»



الفصل السابع

كانت تلال ثاباي وما زالت تنحدر من المرتفعات الغربية الى سهل صغير يضم مركز رونجي التجاري . والمركز مجموعة من البنايات المسقفة بالصفيح يواجه بعضها بعضا في صفين مستقيمين . وتستخدم المسافة بينهما سوقاً تتجمع فيه النساء من مختلف نواحي التلال لبيع الطعام وشرائه وتبادل النميمة . اكتشف التجار الهنود هذا السوق وبدأوا يتوافدون عليه من نيروبي فيساومون النساء على الأسعار ويتفوهون بكلمات ماجنة تضحك النساء ثم يأخذون الخضروات وقطع الفخار الى نيروبي حيث يبيعونها لأهالي المدينة بأسعار عالية . وقد استقر بعض الهنود في المنطقة . ان مسيرة بضع دقائق من الحوانيت الأفريقية توصلك الى حي الهنود حيث كانت بناياتهم التي نظمت بصفين مستقيمين أيضاً قد شيدت بصفائح الحديد . اعتاد اولئك الهنود أن يشتروا البطاطا والبازلاء والفاصوليا والذرة من سوق رونجي في موسم الحصاد . كانوا يخزنونها في مؤخرة حوانيتهم ليبيعوها في الأوقات الصعبة .

وعلى الرغم من أن سقوف الحوانيت الأفريقية كانت من الصفيح المتهرىء الا أن جدرانها شيدت بالحجر أو الطابوق . ويدعى الناس

ان رونجي هي أول مركز شيدت فيه مثل هذه البنايات في بلاد جيكونيو كلها . وتمتلك رونجي مزايا أخرى أيضاً . فالافعى الحديدية امتدت أول مرة عبر هذا السهل قبل أن تتسلق الخندق في طريقها الى كيسومو وكامبالا . وقد ظلت ثاباي فترة طويلة موضع حسد الكثير من القرى التي لم يمر بها خط سكك الحديد . جاء الناس من كل مكان ، حتى من القرى الواقعة على حدود ماساي لزيارة المنطقة بين آن وآخر لرؤية القطار حسب وهو يسعل ويتقيأ الدخان اثناء مروره . كانت ثاباي فخورة برونجي . شعر الناس بأن المركز يخصهم . حتى خط سكك الحديد والقطار يرتبطان بثاباي . الم يكن الناس هناك أول من يستقبل السكك والقطار في قلب البلد ؟ لقد أشيعت قصة ما زال الناس يروونها في البقاع الأخرى حتى الآن . تقول القصة إن الرجال والنساء والأطفال هجروا ثاباي اسبوعاً كاملاً عندما ظهرت الأفعى الحديدية التي تنبأ بها عراف القرية . بقوا صامتين بحذر ثم هربوا ملتجئين الى القرى المجاورة . وتقول القصة انهم لم يعودوا الى أن أخبرهم رجال الطلائع من المحاربين المسلحين بان الأفعى غير مؤذية وان الغرباء الحمر يلمسونها .

وأصبح رصيف المحطة فيما بعد مكاناً للقاء الشباب . كانوا يتحدثون جماعات في البيوت ، يذهبون للتنزه في الريف . وكان بعضهم يذهب الى الكنيسة ، ولكن أذهانهم كانت دائماً مشغولة بقطار يوم الأحد حيث يلتقي في محطة رونجي بعد ظهر الأحد قطار الركاب الصاعد الى كامبالا بالقطار النازل الى مومباسا . ولا يذهب

الناس الى هناك لاستقبال اصدقاء قادمين من مومباسا أو كيسومو أو كامبالا . انهم يذهبون هناك ليلتقي بعضهم بعضاً فيتسلون بالاحاديث والضحك واغتياب الآخرين .

في ذلك المكان ولد الكثير من علاقات الحب . وكان رصيف المحطة منطلقا للكثير من الزيجات بكل ما فيها من احزان وافراح .

ـ «هل تذهب الى القطار اليوم ؟»

ـ «آه ، نعم»

ـ «لا تتركني هنا ياصديقي»

ـ «اذن استعد في الوقت المناسب . يقال إنك تحتاج يوماً كاملاً لارتداء ملابسك»

ـ «هذه كذبة في وضح النهار»

تذهب البنات عادة الى النهر يوم السبت لغسل ملابسهن . ويخصصن صباح الأحد لكي الملابس وتصفيف الشعر . عند الظهر يكن مستعدات للسير أو الجري الى المحطة . لم يكن للرجال مثل هذه الطقوس ، فهم مستعدون دائماً . انهم يقضون معظم وقتهم عند حوانيت رونجي أي على مسافة قريبة من المحطة .

أصبح القطار هوساً . وحين لا تلحق به يثقل الهم قلبك بقية الأسبوع ، وتشتاق الى مرور القطار التالي . ثم يأتي يوم الأحد وتذهب في الوقت المناسب فتشعر فوراً بانك شفيت .

بعد المحطة يذهب الشباب للرقص في غابة كينيني المطلة على الوادي الصخري . يحتل عازفو القيثار مكان الصدارة في المجموعة وتحيط بهم الفتيات بعيون ممتنة . ثم يبدأ الرجال بشراء الرقصات .

عندما يشتري الشخص رقصة يغنى له عازف القيثار ويمتدح اسمه . يرقص الرجل وحده على الأنغام أو يدعو اصدقاءه الى الإنضمام اليه بينما يظل الآخرون متفرجين . لا يستطيع أحد آخر ان يتقدم . ان التقاليد التي تحكم رقصات الغابة مفهومة بوضوح .

وغالباً ما تنتهي الرقصات بالعراك . هذا أمر معروف . لذا يأتي الرجال وهم مستعدون له . يسعى بعضهم الى الشغب عن طريق الكلمات والاغاني المهينة للآخرين . كانوا ينظمون أنفسهم في مجموعات حسب مناطقهم . وكانت ثاباي مشهورة لأن رجالها يقاتلون الآخرين بمهارة وينتزعون منهم فتياتهم . وكانت الفتيات يرغبن في رجال ثاباي ، لذا فأن أخذهن اسيرات لم يكن عملاً بطولياً صعباً .

عند رصيف المحطة تختلف الأمور . لا أحد يفكر في العراك هناك . وقد تجد نفسك صديقاً لمن صرعك واخذ فتاتك في الأحد الماضي . فانتما تتحدثان وتضحكان معاً . ولكنه يعرف انك تنتظر فرصة في الغابة لطعنه واخذ فتاته منه .

تذكر جيكونيو بعد سنوات ، حين أصبح الأمر أشبه بالأسطورة : «نادراً ما تخلفت عن القطار . كنت أحب التدافع بالاكتاف مع الرجال والنساء» ثم أخبر موغو : «ومع ذلك فان اليوم الذي تخلفت فيه عن القطار كان من أسعد أيام حياتي» .

كان جيكونيو حينذاك يعمل نجاراً في ثاباي . وعلى الرغم من أنه كان مهاجراً مع أمه الى المنطقة ، إلا أنهما اندمجا في المجتمع وفي حياته اليومية . عندما جاء الى ثاباي كان طفلاً معلقاً في ظهر أمه .

نزحت عائلته من منطقة البرغون في الوادي الصخري حيث عمل أبوه واروهيو مزارعاً في الحقول الأوربية . ولما كان واروهيو عاملاً مجداً فسرعان ما وجد نفسه مركز جذب للكثير من النساء . تزوج عدداً منهن وكان يشكو دائماً من ان فخذي زوجته الاولى لم تعودا دافئتين . كان يضربها لابعادها عنه ، إلا أن وانغاري أصرت على البقاء . وأخيراً أمرها واروهيو بمغادرة البيت فحكم على الأم وابنها بحياة التجوال في ارض الله الواسعة . لم تتجول وانغاري كثيراً . لابد انها وجدت ترحيباً في منطقة جيكويو . قالت في يوم من الأيام وهي تجلس على صخرة قرب محطة البورغون : «يعتقد واروهيو بأنني سأموت جوعاً لانني فقيرة ولا أملك شيئاً آكله» . ثم ضمت طفلها الى صدرها وتحدت واروهيو بصمت حين ركبت القطار الى ثاباي .

أرسلت وانغاري ابنها الى المدرسة . لكن جيكونيو لم يبق هناك طويلاً لأن امه لم تملك ثمن النفقات المطلوبة . ومن حسن حظه أنه تعلم في المدرسة شيئاً عن النجارة . لذا قرر أن يجعلها مصدر رزقه .

أحب النجارة كثيراً .

كان الامساك بفأرة النجارة لتسوية قطعة خشبية يبعث الخوف والعجب في نفس الشاب ، وكانت رائحة الخشب تثيره . ثم تطورت حاسة الشم لديه حتى اصبح يميز نوع الخشب بشم اية قطعة خشبية حسب . ولم يكن النجار الشاب ليكشف عن بساطة هذه العملية . لقد اعتاد في الحقيقة ان يمثل بعض الطقوس التي تختلف

باختلاف من كان حاضرا . كانت المسرحية تجري بالشكل التالي :

تأتي امرأة بقطعة خشبية . انها تريد ان تعرف نوع ذلك الخشب . يأخذها النجار ويلقي عليها نظرة عابرة ثم يرميها بغير اكتراث بين كومة من القطع الخشبية الاخرى . يواصل العمل الذي بين يديه . تقف المرأة وهي مبهورة بحركة عضلاته . بعد فترة يرفع الخشب واضعا نهايتها البعيدة على المنضدة . يغلق عينه اليسرى ويحدق الى قطعة الخشب بعينه اليمنى نصف المفتوحة . ثم يغلق عينه اليمنى ويؤدي العملية نفسها بالعين الاخرى . عندما ينتهي من ذلك يضرب القطعة الخشبية ضربا خفيفا متناغما بعقدة سبابة يده اليمنى كأنه يستحضر منها الارواح . ثم يأخذ المطرقة فيضرب ويصغي ، يضرب ويصغي . بعد ذلك يشم القطعة باهتمام ويعيدها الى المرأة ، ثم يستأنف عمله .

تغامر المرأة بالسؤال وهي مبهورة بضرباته وطريقة شمه : «ما نوع الخشب ؟ هل هو بودو ؟»

ـ «بودو ؟ همهم . اعطني اياها» . يشمها ببطء . يدير القطعة حول نفسها ويهز رأسه . ثم يقضي بضع دقائق وهو يشرح لماذا هي ليست من خشب البودو . ثم يقول بحكمة هادئة : «انها كافور . ألم تسمعي به من قبل ؟ انه ينمو غالباً في أعالي ابرديرز وحواليّ جبل كينيا . انه خشب جيد ، والا لماذا ترين الرجل الابيض يستحوذ على تلك المنطقة لنفسه ؟»

كان المحل لايتعدى منضدة صغيرة مرصوفة على جدار كوخ جيكوينو . عند المساء تأتي وانغاري دائما الى المحل فتبحث في

نشارة الخشب عن بعض القطع الخشبية الزائدة لاستعمالها وقوداً للنار .

تسأله بابتسامة : «هل تحتاج هذه ؟»

ـ «اوه . اتركيها ياأمي . لاترين قطعة من الخشب الا ترغبين في احراقها . ان هذا يكلف مالاً كما تعلمين . لكن النساء لايفهمن ذلك ابدا» .

ـ «وماذا عن هذه ؟» لم يكن من السهل ان تثبط همة وانغاري . لقد أحبت صوت ابنها وهو يلومها .

ـ «حسنا . ولكن لاتأتي مرة اخرى»

في اليوم التالي ، وفي الوقت نفسه تقريبا ، تكون هناك . تلتقط منشارا او مطرقة او اية اداة وتتفحصها باهتمام كأنها شيء غريب . كان ذلك يضحك جيكونيو .

ـ «من الممكن ان تكوني نجارة جيدة يا أمي»

ـ «مهما نقل فان هؤلاء الناس اذكياء حقا . كيف فكروا في هذه الأدوات التي تقطع كل شيء ؟» كانت وانغاري تسمي البيض هؤلاء الناس .

ـ «اذهبي واطبخي . هذه الاشياء ليست من اختصاص النساء»

ـ هل تحتاج الى هذه القطعة هنا ؟»

ـ «اوه ، ياامي»

ان طموح جيكونيو السري هو ان يمتلك قطعة صغيرة من الارض تستقر فيها امه . ولكن ذلك يحتاج الى المال . وكان طموحه في الحصول على الثروة يزداد كلما رأى مومبي او فكر فيها ، تلك الفتاة

التي كان صوتها ووجهها يسببان له خفقاناً موجعاً . لكنه فكر ان قلبه يخفق في الفراغ . من المؤكد ان مومبي ، اجمل فتيات المنطقة ، لاتفكر في أن تجلب اناء القرع مملوءاً بالماء البارد وتقول :

اشرب هذا من أجلي . مع ذلك ، فقد انتظر وسار في طريقه ببطء . رأى مومبي مرة وهي تسير في طريق الحقول بين ازهار البازلاء ونباتات الفاصوليا والذرة ، فاستجمع قواه ليفاتحها بحبه . لكن الشجاعة خانته فحياها وانصرف .

كان مبوغوا ، أبو مومبي ، شيخاً معروفاً في المنطقة ، وهو يمتلك بيتاً كبيراً يتكون من ثلاثة اكواخ ومخزنين لحفظ الحبوب بعد الحصاد . وكانت الاحراش ومجموعة كثيفة من النباتات المتسلقة والعليق والنباتات الشوكية تشكل سياجا طبيعيا حول البيت : وحول البيوت والاكواخ كافة في ثاباي القديمة . لم تكن تلك الاسيجة تشذب ابداً . وكانت الحيوانات البرية تستخدمها وجاراً او عريناً .

وقد اكتسب مبوغوا مركزه المرموق في القرية من انجازاته كمحارب وكفلاح . وقيل ان اسمه فقط كان يبعث الخوف في اوساط القبائل المعادية . كان ذلك قبل تدخل الرجل الابيض لانهاء النزاع القبلي . لكن شهرة مبوغوا استمرت الى فترة السلم . لذا ، فعندما يبدي رأيا في مجلس الشيوخ يعد رأيه هو المرجح دائماً . كانت زوجته وانجيكو تدعوه دائماً محاربها الصغير . انها صغيرة الجسم على خلاف محاربها الضخم الاطراف ، يبعث صوتها الدفء والحنان في النفس . وكان صوتها هو الذي داعب اوتار قلبه قبل اي شيء اخر (كانت في شبابها تغني في اجتماعات الرقص) . أحبت

وانجيكو ابنها كاريوكي اكثر من غيره لانه الاصغر والاخير . لكن مبوغوا كان معجبا بابنه كيهيكا اكثر لانه هو الذي سيخلفه في الشجاعة والكبرياء .

اعجب كاريوكي ايضا باخيه كيهيكا . كان الصبي يتطلع الى اليوم الذي يصبح فيه رجلا ويكون حرا في لمس صدور الفتيات اللواتي يأتين لزيارة بيتهم في الليل . التحق كاريوكي بالمدرسة في مانغور - وهي واحدة من اولى مدارس جيكويو المستقلة في البلد . أحب الكتب وكان يقرأ في الليل مستعينا بضوء نار الخشب . لكن كيف يمكنه التركيز عندما يأتي الشبان والشابات ليسهروا مع اخيه ويروون النكات والقصص ؟ كان المفروض ان لايرى ولايسمع اي شيء ، فالشباب يحذرونه ان رأوه يضحك : «سنرميك خارج البيت ، انت ياكيهي» . كان جيكونيو يجلب له الحلوى واشياء اخرى ، لذا فقد احب كاريوكي النجار . وغالبا ماروى جيكونيو قصصا ممتعة لكاريوكي . لكن جيكونيو اصبح بمرور الزمن هادئا وقليل الكلام عند حضور مومبي . اما كرانجا فقد تصدر الحديث دائما وجعل النساء يسكرن ضحكا . كان لكرانجا اسلوب في عرض قصصه وحكاياته حتى انه اصبح بطل تلك اللقاءات . ونتيجة لذلك اعجب به كاريوكي لشجاعته وحكمته وتعدد مواهبه .

ان بيوتا من نوع بيت مومبي تضم فتيات جميلات يكثر تردد الشباب اليها . كانت وانجيكو تجهز لهم الطعام دائما ، فهي تقول ان البيت المليء بالاطفال لايشكو من الوحدة . وحين يصل الرجال تختلق لنفسها عذراً لمغادرة الكوخ قائلة لمومبي : «قدمي لهم

الطعام» .

كانت مومبي تذهب كثيرا الى المحطة ايام الآحاد . وكان صوت القطار يثيرها . تمنت احيانا ان تكون هي القطار . لكنها لم تذهب ابدا الى حلبات الرقص في الغابة . كانت تعود دائما الى البيت بعد مغادرة القطار مع واحدة او اثنتين من الفتيات الاخريات . كانت لعينيها السوداوين نظرة حالمه تتوق الى امر تعجز القرية عن تحقيقه . وغالبا ما تستلقي في الشمس وتحن الى حياة يمتزج فيها الحب بالبطولة والمعاناة والاستشهاد . لقد عاشت على قصص تقتحم فيها نساء جيكويو مجاهل الغابة لأنقاذ الناس ، وقصص الفتيات الجميلات اللواتي يقدمن الى الآلهه كقرابين قبل موسم الامطار . ورأت في الانجيل نفسها مثل إستر . سرها جواب إستر عن سؤال الملك أهاسورا ، اذ قالت وهي تشير بشكل مسرحي الى الانسان : العدو هو الإنسان الشرير .

كانت تستمتع بالإعجاب الذي تثيره في عيون الاخرين . فهي عندما تضحك تلقي برأسها الى الخلف وتلتمع رقبتها في الضوء . في مثل هذه الحال لايفهم جيكونيو مايدور حوله من حديث . يقال ان ريتشارد ابن الرجل الجليل جاكسون تقدم لخطبتها . كان جاكسون رجل دين بارزاً في كيهينغو . وقد أشيع ان ريتشارد الذي كان في السنة الاخيرة في مدرسة سيريايا الثانوية سيذهب بعدئذ الى اوغندا او الى انجلترة لاكمال دراسته . على اية حال ، رفضت مومبي طلبه دون ان تجرح كبرياءه . فبقيا اصدقاء . واعتاد ريتشارد ان يتسلل من بيته ليلا لرؤية مومبي في ثاباي . لذا كان جيكونيو يساءل

نفسه : اذا كانت قد رفضت مثل هذا الرجل ، فأية فرصة بقيت لي ؟

بذل اقصى جهده في النجارة . عمل كراسيّ لأهل ثاباي ، اصلح دواليب الملابس ، وعمل ابوابا وشبابيك لاكواخهم . جاءته امرأة يوما بكرسي مكسور . ارادته أن يثبت له رِجلاً جديدة . نظر اليه باهتمام وهو يصفر لحنا شعبيا ، ثم قال :

- «ثلاثة شلنات»

- «ماذا ؟ ثلاثة شلنات ياولدي»

- «لايمكن ان اعمل ذلك مجانا كما تعلمين»

- «ياولدي ، انا مثل امك . سأعطيك شلنا»

- «حسنا» قالها وهو يعرف انها قد لاتعطيه شيئا .

تذهب المرأة مطمئنة الى انه سيصلح الكرسي في النهاية (حتى لو استغرق شهرا او شهرين) . وسوف تعطيه .نصف المبلغ المتفق عليه . واذا اعطته اياه فانها ستقسط المبلغ على عدة شهور .

كان يشكو لأمه : «اذا استمرت الامور على هذه الحال فسأموت فقيرا» احس بالتعب يوما فأخذ قيثاره وبدأ يعزف . لانه قضى فترة الصباح وبعد الظهر في عمل اثاث لعروسين تزوجا حديثا ووعده الرجل بدفع الثمن في نهاية الشهر . احب جيكونيو قيثاره . كان قديما ، لكنه دفع لقاءه مبلغا كبيرا من المال الى التاجر الهندي .

عزف بهدوء وهو يغني لنفسه محاولا ان يأتي بنغم جديد ثم استغرق في عزفه وغنائه وارتخت عضلاته . كانت الشمس توشك ان تغرب والظلال الطويلة للاشجار والبيوت تمتد ببطء .

سمع خشخشة على نشارة الخشب . فزع جيكونيو . واحس

بالحرج والاثارة عندما رأى مومبي . كانت تحيك شيئا وضعته تحت ذراعها . ابتسمت :

- «لماذا توقفت ؟»

- «لا اريدك ان تسمعي صوت نجار وتري يديه تحطمان الاوتار والاغنية»

- ألهذا السبب لاتتكلم عندما تأتي الى بيتنا ؟» ومض بريق خبيث في عينيها .

- «حقا ، لاأتكلم ؟»

- «المفروض ان تعرف ذلك . على اية حال ، كنت واقفة هناك طول الوقت . وقد سمعتك تغني وتعزف . كان اداؤك جيداً»

- «أصوتي أم يداي ؟»

- «كلاهما»

- كيف تعرفين ذلك وانت لاتذهبين الى الرقص ايام الآحاد ؟»

- «آه . انا لااذهب حقا . ولكن هل تظن ان كل الرجال بخلاء مثلك ؟ ان كرانجا يعزف لي وحدي في البيت . انا أجلس أحيك الصوف وهو يعزف . انه عازف ماهر» .

أيد جيكونيو كلامها وهو يقول بجفاف : «انه عازف ماهر» . لم تلاحظ مومبي ان جيكونيو كان يبتلع شيئا ، لانها في تلك اللحظة تغيرت من المرح الى الجد .

قالت بصراحة اسعدت جيكونيو : «انت تعزف ايضا . لم اكن اعرف انك تعزف هكذا . كان عزفك مؤثرا ، ربما لانك تعزف لنفسك»

ـ «ربما اعزف لك بعض الاحيان»

قالت بلهفة : «اعزف لي الان ـ ارجو ان تعزف لي» ـ اعتبر جيكونيو الامر تحديا ـ وخاف ان تخور قواه ـ

قال وهو يأخذ آلته : «اذن ستغنين وانا اعزف ـ ان صوتك جميل جدا» ـ

الا انه وجد يديه ترتجفان ـ ضرب على الاوتار قليلا ليوطن نفسه ـ انتظرت مومبي ان يبدأ باللحن ـ عندما استعاد ثقته بنفسه احس ان ثاباي تمر من تحت اصابعه ـ بعث صوت مومبي رجفة في فخذيه ـ كانت اصابعه تنساب وقلبه يمتلىء ـ وهكذا شق طريقه ببطء وعزم في الظلام الى مومبي ـ ضرب على الاوتار بمناجاة ، اذ عرف ان قلبه يغذي اصابعه بالقوة ـ انتشى سروراً ومرحاً ـ

صدح صوت مومبي بالعواطف وهي تموجه حسب ذبذبة الاوتار ـ غمرتها احاسيس العبادة وثاباي والارض والسماء ، وكل هذه الاشياء مجتمعة موحدة ـ لسع قلبها فجأة شيء ما فركبت موجات غريبة ـ وحدها تتحدى الريح والمطر ، وحدها تحارب الجوع والعطش في الصحراء ، وحدها تقاتل الشياطين في الغابة لتعيد ابناء سارة الى شعبها ـ

انتهت الاغنية ـ احس جيكونيو بهدوء المساء ـ تساءلت :

ـ «الريف هادىء ومسالم الآن»

ـ «انه دائما هكذا قبل حلول الظلام»

ـ «أتدري ـ احسست كأني روث عندما كانت تجمع الحُزَم لنفسها في الحقل»

ـ «اعتقد انك ستذهبين الى الجنة . انت دائما تروين قصص الانجيل»

مضت تقول جادة : «لاتهزأ . هل تعتقد ان الارض ستكون دائما كذلك ؟»

أجاب بمثل لهجتها : «لاأدري يامومبي . هل سمعت بالاغنية الجديدة ؟»

ـ اية اغنية ؟ غنها»

ـ «انت تعرفينها . اظن ان كيهيكا هو الذي جاء بها . اتذكر كلمات مجموعة المغنين فقط» خرجت مومبي عن وقارها وضحكت بهدوء . سألها .

ـ «ما الامر ؟»

ـ «آه ايها النجار ، ايها النجار . انت تعرف اذن لِمَ جئت ؟»

قال بحيرة : «لااعرف»

ـ «لكنك تغني لي : وجيكويو تخبرنا انها احترقت عند المقبض»

في تلك اللحظة ظهرت وانغاري التي كانت قد ذهبت لجلب الماء من النهر . سرت لرؤية مومبي . قالت مومبي تداعبها :

ـ «كان عليك ان تنجبي فتاة بدل هذا الولد الكسول»

اجابت وانغاري ضاحكة : «انه سوء حظي . ولكن الامر سهل لأن حاجات المرأة العجوز قليلة . وهذا الرجل كسول حد انه لايستعمل ماءً كثيرا لغسل جسمه وملابسه»

ـ «انك تظلمينني ياأماه . وستجعلين كل الفتيات يهربن مني»

ـ «هل أعمل لك قدحاً من الشاي ؟»

قالت مومبي بسرعة : «كلا . يجب ان اصل البيت قبل حلول الظلام» ثم استدارت الى السلة الصغيرة التي كانت تحملها واخرجت منها فاساً صغيرة .

ـ «هذه الفأس كما ترى بحاجة الى مقبض خشبي . والفأس القديمة إحترقت خطأً في النار . تريدها أمي بسرعة لانها الوحيدة التي تستخدمها في قطع الاشجار»

اخذ جيكونيو الفأس وتفحصها بدقة .

سألت مومبي : «كم ؟»

ـ «لاتعيري اهمية لذلك . الأمر بسيط»

ـ «لكنك لاتعمل بلا أجر»

قال بانفعال : «لست هنديا من اصحاب المخازن» .

مر به كرانجا وكيهيكا وجيتوغو ورجل اخر . كان محل جيكونيو مكاناً اخر يتجمع فيه الشباب لتبادل الحديث . نادى كرانجا وانغاري :

ـ «يأم الرجال . نحن هنا فاعملي لنا الشاي» .

وصلهم صوت وانغاري من الكوخ : «انتظروا قليلا . الماء جاهز فوق النار»

كانت مومبي ، التي تحدثت مع جيتوغو ، قد قالت إنها عائدة الى البيت . احتج الجميع بصوت واحد ، لكنها اصرت على الذهاب .

عرض عليها كرانجا بشهامة : «حسنا : اذن سأوصلك»

قالت مومبي : «تعال ايها المخلص» . وسرعان ما غيبهما الظلام .

قال جيكونيو للاخرين : «تعالوا ندخل الكوخ» كان صوته واطئا

بشكل غير اعتيادي . حسد كرانجا على بساطته وثقته بنفسه امام النساء . وقد حزت في نفسه فكرة عزف كرانجا لمومبي .

عندما عاد كرانجا لاحظ الجميع انه هادىء ومشغول الفكر .

قال الرجل الجالس بقربه : «هية ، يارجل . هل وقعت في حب الفتاة ؟»

ضحك الجميع عدا جيكونيو . وابتسم حتى كرانجا .

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي بدأ جيكونيو العمل في صنع مقبض الفأس . خفق قلبه بموجات خفيفة وهو يختار قطعة الخشب التي سيعمل منها مقبضا ، ان لمس الخشب يثير فيه الرغبة في خلق شيء ما . شعر في حينها بان حياته تعتمد على انصرافه الكامل الى ذلك العمل . كانت يداه ثابتتين . دفع فأرة الخشب ، التي اشتراها حديثا ، فوق السطح الخشن . رأى جيكونيو مشية مومبي وحركاتها في حركة الفأرة بيده . وكان صوتها يطوف في الهواء عندما انحنى ليتتبع شكل الفأس على الخشب . اعطته انفاسها القوة والنشاط . وقد صرف تلك القوة في عمل القطعة الخشبية . كان ينحت ويزيل الاجزاء غير المرغوب فيها لعمل قطعتين بالشكل المطلوب . وقد اجهد نفسه خصوصا في عمل الثقوب . كانت نشارة الخشب تتلوى في ثقوب المثقب الدائرية وتتجمع فوق المنضدة . اصبحت الثقوب جاهزة . هيأ بعدئذ المسامير الثلاثة التي ثبت بها قطعتي الخشب في الفأس . وعندما طرق النهايات الحادة للمسامير بشكل مسطح اجتاحته موجه اخرى من النشاط واكتسبت يده اليمنى قوة جديدة . انزل المطرقة ورفعها ثم انزلها ورفعها .. واحس انه حر .

كان كل شيء تحت سيطرة يده بما في ذلك ثاباي والعالم كله . تلاشت فجأة موجة القوة لتتحول الى نشوة واحساس بالسمو . حل السلام والهدوء المقدس في قلبه . حينذاك احب الارض كلها .

قرر اخذ الفأس اليها صباح الاحد . عندما حان الوقت بدأ الشك يضعف قناعته الذاتية . بدأ يجد اخطاء . لم يعد عقله قادرا على رؤية النعومة والدقة . رأى المقبض عاديا ، من النوع الذي يمكن ان يعمله اي نجار . وماذا عن الخشب ؟ من المؤكد انه سيخدش يد المرأة بعد بضع دقائق فقط من استعماله . تحول الى مزاج التحدي . ماذا يهم ان كان يعجب مومبي او لا ؟ ان لم تعجبها الهدية عليها ان تشتغل في النجارة او تطلب من كرانجا ان يساعدها . على اية حال ، قد لاتكون في البيت . تمنى الا يجدها في البيت . ولكنه عندما اقترب من الممر الضيق الذي يؤدي الى ساحة البيت عبر السياج بدأ يقلق خشية الا يجدها في البيت . لن يكمل عمله دون مشاركتها .

وجدها جالسة على كرسي ذي اربع قوائم امام كوخ امها . تظاهر جيكونيو بعدم الاكتراث . سأل بصورة طبيعية : «هل امك في البيت ؟» . كان يتشوق الى ان يريها الفأس .

ـ «ماذا تريد من امي ؟ الا تعلم ان لها زوجاً ؟» كانت عيناها تضحكان له . لم يستجب جيكونيو لابتسامتها . جهد ان يبدو جاداً .

قالت : «إجلس» ونهضت لتعطيه كرسيها ، ثم رأت الفأس . اندفعت واخذتها من يده . وقفت لحظة تنظر باعجاب الى المقبض

الجديد . فجأة وثبت الى الكوخ وهي تصيح : «اماه ! اماه ! تعالي وانظري» . انتفخ جيكونيو بدفء جميل . بدا عليه السرور . لقد اثمر عمله . فمن اجل ابتسامة مومبي ، من اجل نظرة التقدير تلك كان مستعداً لأن يعمل كراسيّ ومناضد وخزانات ويصلح السقوف والبيوت المهدمة والابواب والشبابيك دون ان يأخذ اجراً . قد لايجمع المال وقد يظل فقيراً ، ولكنه سيحصل عليها .

كان واقفاً منتشياً باحساس غامض حين عادت مومبي حاملة كرسياً اخر ودعته الى الجلوس مرة اخرى .

اعترض دون قناعة : «انا مستعجل جداً» .

ـ «هل انت ذاهب الى حفلة عرس ؟»

ـ «كلا ، مالم يكن عرسك» . ضحك ، لكنه تذكر كرانجا فتوقف وجلس دون ان ينطق بكلمة اخرى .

قالت : «لم العجلة ؟ لن نأكلك» وحاولت عبثا ان تظهر الغضب في صوتها ، مما افرح جيكونيو .

راقب مومبي وهي تصفف شعرها . طالما اشتاق ان يلمسه . حين فكر في ذلك اندفع الدم الى اطراف اصابعه . وضعت مومبي مرآة صغيرة بين ركبتيها وارتفع كفاها فوق رأسها بينما تغلغلت اناملها في شعرها . وكانت بين الحين والاخر ترمق جيكونيو بنظرات سريعة وتبتسم له . انتشى جيكونيو بذلك .

حينذاك وصل كيهيكا وكرانجا . احس جيكونيو بأنه يكرههما لانهما افسدا خلوته مع مومبي . لماذا ظهرا في تلك اللحظة ؟ وفي سبيل القبول بالامر الواقع انضم جيكونيو الى الحديث الذي تركز في

السياسة والعاصفة التي تتجمع في الافق .

...

بدأ اهتمام كيهيكا بالسياسة عندما كان صبيا يجلس عند قدمي واروي ويستمع الى قصص عن اغتصاب الارض من الشعب الاسود . كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، اي قبل ان يزج الافارقة في القتال الى جانب البريطانيين ضد هتلر في حرب لاتعنيهم . كان واروي بحاجة الى من يصغي الى حديثه عن اعمال وياكي والمحاربين الاخرين الذين قتلوا عام ١٩٠٠ وهم يناضلون من اجل طرد الرجل الابيض عن ارضهم ، وعن الشاب هاري وما حدث لتظاهرة عام ١٩٢٣ ، وعن موثيريغو والمدارس التبشيرية التي منعت الختان من اجل ان تتآكل جذور مجتمع جيكويو وجزعه دون ان يشعر احد ، غلظ قلب كيهيكا على اولئك الناس قبل ان يرى وجه اي منهم . ثم عاد الجنود من الحرب وبدأوا يروون اقاصيصهم عما رأوه في بورما ومصر وفلسطين والهند . ألم يكن القديس مهاتما غاندي يقود الشعب الهندي ضد الحكم البريطاني ؟ تغذى كيهيكا من تلك القصص وعلمه خياله وملاحظاته اليومية ما تبقى من معرفته . وكانت له منذ البداية تصورات عن نفسه كقديس يقود شعب جيكويو الى الحرية والقوة .

بناء على نصيحة رجل الدين جاكسون كيغوندو ارسل كيهيكا ، اول مرة ، الى ماهيغا ، وهي مدرسة تابعة لكنيسة اسكتلندا ليست بعيدة عن ثاباي ، كان جاكسون ، كما يدعوه الناس ، صديق مبوغوا ، وكان يحب زيارة الناس في بيوتهم . وخلال احاديث المساء

يسرب اليهم جملة او اثنتين عن المسيح . وكلما جاء الى ثاباي كان يزور مبوغوا ويعظه بالديانة المسيحية : «ان نغاي ، اله جيكويو ، هو الاله نفسه الذي ارسل ابنه المسيح ليقود المسيرة من الظلام الى النور» . وبذلك حاول جاكسون ان يبين ان للديانة المسيحية جذورا في التراث الذي يقدسه اهل جيكويو ، كان مبوغوا يصغي باهتمام ثم يذهب الى الزاوية ليأتي بجرة البيرة ويقدمها الى جاكسون . كان يقول :

- «الان وقد تحدثنا طويلا دعنا نتناول ماء الرجال القدامى لنروي به ظمأنا»

يضحك جاكسون لهذا الاغراء ويخرج من البيت على امل العودة ثانية لإكمال لعبة الكلمات والافعال . كان نحيفا وصغير الحجم يكسو وجهه جلد مشدود وعينان غائرتان تحملان حكمة السنين . كان دائما يلبس ياقة رجل دين وقبعة تغطي صلعته اللامعة . كان الناس في القرية والقرى المجاورة لرونجي يحترمونه . وكان مجلس شيوخ القرية يدعوه الى المشاركة في القضايا المهمة التي تخص قرى المنطقة (مجلس شيوخ القرية ليس هيئة رسمية ، انما هيئة تقليدية تناقش وتقرر وتحل النزاعات بين اهالي القرية) .

يقول احد كبار السن في مثل هذه الحالات : «الشيخ المحترم سيقرأ لنا شيئا من كتابه ويخبرنا بما يراه في هذا الشأن» . استمر ذلك عدة سنوات قبل ان تصل حركة الإحياء الى كينيا وتكتسح القرى كما تلتهم النار الهشيم . تلك كانت حركة المسيحيين الذين رأوا النور بصرف النظر عن الاسماء . ولانهم اعترفوا بخطاياهم

علناً فقد انقذوا انفسهم . يقال ان تلك الحركة الانجيلية (التي لاتزال بقاياها في بعض القرى) بدأتها بعثة تبشيرية بيضاء في رواندا وانتشرت بسرعة في اوغندا وكينيا . وبعد ايام قليلة من اعلان حالة الطوارىء انضم جاكسون الى هذه الحركة . فقد وقف امام حشد المصلين في ماهيغا وضرب صدره كالمأخوذ قائلا :

«كنت اسمي نفسي مسيحيا . لبست ياقة بيضاء حول عنقي واعتقدت ان ذلك سيخلصني من النار . باطل الاباطيل . يقول الواعظ ، باطل الاباطيل . كان ذلك باطلا ، لان قلبي احتوى افكار الغضب والغرور والغيرة والسرقة والزنى . كنت ارافق السكارى والزناة . سرت في طريق الظلام وخضت في وحل الخطيئة . لم ار المسيح . لم اجد النور . ولكن في ليلة ١٢ كانون الثاني ١٩٥٣ اصابتني فجأة صاعقة الرب . صرخت : يالهي ، ماالذي افعله لانقاذ نفسي ؟ اخذ المسيح كلتا يدي ووضعهما الى جانبه ورأيت اثار المسامير في كفيه . صرخت ثانية : ياالهي ، طهرني بدمك . قال : ياجاكسون ، اتبعني» . ثم اعترف بانه كان يخدم الشيطان بمشاركته الخاطئين طعامهم وشرابهم ولهوهم ، وبتساهله مع شيوخ القرية واولئك الذين رفضوا المسيح ، وبانه لم يدع دم المسيح يسقي البذرة حتى تمد جذورها . اصبح الان جنديا مسيحيا مستعدا للحرب . اما السياسة فهي قذرة وهي خطيئة دنيوية ، «وطني هو السماء . اما هنا على الأرض فانا عابر سبيل» .

نهض الاخوان والاخوات في المسيح وبدأ بعضهم ينشد في الكنيسة بينما تقدم الاخرون الى الامام ليحتضنوا جاكسون ويقبلوه

قبلة مقدسة . مزق جاكسون ياقته وقبعته علامة على التواضع وانكسار القلب . كانت حركة الأحياء هي المنظمة الوحيدة التي سمح لها بالانتعاش في ظل حالة الطوارىء . وقد اصبح جاكسون قائدها في منطقة رونجي .

وكان جاكسون ضمن اول مجموعة من المسيحيين تقتل في رونجي .

عثر على جثته صباح احد الايام وهي ممزقة بالفؤوس . وقد حرق بيته وممتلكاته التي تحولت الى فحم ورماد . ومن حسن الحظ ان لاتكون زوجته واطفاله في البيت وان يكون ريتشارد في انجلترة . انتشرت اخبار موت جاكسون في ثاباي والقصبات المحيطة . تساءل الناس عمن سيكون الشخص التالي الذي تصرعه الماوماو . تذكروا المعلم مونيو وهو ايضا من حركة الإحياء ويقال انه شرطي سري كان قد صرع بالطريقة نفسها قبل ايام من ذلك الحادث . شكر الاحيائيون الرب وقالوا ان جاكسون ومونيو تبعا خطوات المسيح بموتهما . ولن يصيب المسيحي شرف اعظم من ذلك .

في الفترة التي كان كيهيكا يذهب الى المدرسة ويكتشف عالم الكلمة المطبوعة كان القليل من الناس يدركون طبيعة الصراع في البلد . تأثر الصبي بقصة موسى التي سمعها في دروس الاحد التي يلقيها مدير المدرسة في الكنيسة كجزء من المنهج الدراسي .

وحين تعلم القراءة اشترى كيهيكا نسخة من الانجيل وقرأ القصة عدة مرات وحكاها لومبي ولأي شخص اصغى اليه .

لكن كيهيكا ترك المدرسة بشكل مشين نسبيا ، حدث ذلك في يوم

من ايام الاحد عندما تحدث المعلم مونيو عن ختان النساء وعدّه عادة وثنية .

ـ «اننا كمسيحين يجب ان نمتنع عن مثل هذه الممارسات»

ـ «اسمح لي ياسيدي»

ـ «نعم ، كيهيكا»

نهض الصبي وهو يرتجف من الخوف . حتى في تلك الايام كان كيهيكا يلفت النظر بقول اشياء أو فعلها يعرف ان الاخرين لايجرؤون على قولها او فعلها . كان كبرياؤه يكمن في هذه الخاصية التي ساعدته على ان يشق الصمت بالقول :

ـ «هذا غير صحيح ياسيدي»

ـ «ماذا ؟»

ـ «الرجل الابيض هو الذي يقول ذلك . اما الانجيل فلا يتحدث عن ختان النساء»

ـ «اجلس ياكيهيكا»

تهالك كيهيكا على كرسيه وهو يمسك بالمنضدة . أحس بالندم على اندفاعه . اخذ المعلم مونيو نسخة من الانجيل وطلب من التلاميذ ان يفتحوا الإصحاح الذي يناقش فيه القديس بول ختان النساء . أحس مونيو بالانتصار عندما بدأ يقرأ بصوت عال . لكنه بعد جملتين فقط ادرك الخطأ الذي ارتكبه ، اذ لم تذكر النساء في الإنجيل ، كما ان الختان عامة لم يحرم . اغلق الانجيل متأخرا ، فقد ادرك كيهيكا انه انتصر وبدأ يبحث عن التأييد في عيون الاولاد الاخرين الذين فرحوا لان واحداً منهم أذل المعلم . حاول مونيو عبثاً

ان يفسر الآيات بسذاجه ثم اخرج التلاميذ من القاعة . صار كيهيكا محط الانظار كبطل صغير .

بدأ الاولاد يناقشون ماسيفعله المعلم بعد ذلك ويعلقون عليه . في يوم الاثنين لم يقل المعلم شيئا . في صباح الثلاثاء جمع كل منتسبي المدرسة طلابا ومعلمين في بناية الكنيسة . وبصوت يرتجف انفعالا حذرهم من الكفر بالكلمة المقدسة . دوى صوته العميق في ارجاء الكنيسة : «من نحن حتى نقول ان الكلمة التي تأتي من فم الرب هي كذبة ؟» .

على اية حال ، كان مونيو قد ناقش حادث الاحد مع كبار رجال الكنيسة وقرر ان يعطي الصبي فرصة لانقاذ روحه ، وذلك بجلده على قفاه العاري عشر جلدات امام الجميع . كل هذا من اجل روح الصبي ومن اجل كل الحاضرين . وكان المفروض ان يشكر كيهيكا معلمه بعد الجلد وان يشجب علنا الكلمات التي تفوه بها يوم الاحد . كانت الكنيسة هادئة جدا . وقد زاد السعال الذي سمع مرة او اثنتين من التوتر . التفت مونيو الى زميل له وطلب منه ان يجلب العصوين الموجودتين فوق المذبح .

ـ «انهض ياكيهيكا» . لم يكن قد نطق باسم كيهيكا حتى ذلك الحين . كان يتحدث عن تلميذ معين . استدار الكثير من الصبية ، بما فيهم اولئك الذين عدّوه مثالا لهم في الاحد الماضي ، ونظروا اليه شزرا ليخلصوا انفسهم من ذنبه .

ـ «تقدم الى الامام»

التصقت قدما كيهيكا بالارض . كان عالمه الداخلي اجوف كأن

كل محتوياته قد ازيحت عنه . وقبل ان يبدأ الحركة افسح له الاخرون الطريق .

ـ «قلت تقدم الى الامام»

تظاهر بانه يتحرك . جالت عيناه في السقف ، في المعلم ، في العصوين ، وفي المذبح . صعد فجأة فوق المنضدة وقفز الى اخرى . وقبل ان يعرف الناس ماذا حدث كان قد وصل الى اقرب نافذة وخرج من الكنيسة الى عالم الحرية . لم يتوقف عن الجري حتى وصل البيت واستلقى على الارض باكيا من الخوف .

حين اقترح ابوه ان يرسله الى مدرسة اخرى قال : «افضل العمل في الارض» .

ظل الحادث يغلي في ذهنه زمنا طويلا . قرأ الكثير من الكتب حتى انه علم نفسه اللغتين السواحيلية والانجليزية قراءة وكتابة . وبعد نهاية الحرب العالمية ذهب للعمل في نيروبي ، وحضر عدة اجتماعات سياسية ، ثم اكتشف الحزب فوجد رؤية جديدة .

قال كيهيكا : «انت تسأل عما تحتاجه . سأخبرك شيئا . ان شعبنا ظل يتكلم وقتا طويلا جدا» .

سأل كرانجا : «ماالذي نستطيع عمله ؟» كانت عيناه تنتقلان من كيهيكا الى مومبي ، «انهم يملكون البنادق والقنابل . الم ترَ كيف دحروا هتلر ؟ ان روسيا هي البلد الوحيد الذي يجعل البريطانيين يرتجفون» .

بدأ كيهيكا يشرح بحماس : «انها مسألة واحدة . ان مثال الهند قريب منا . ظل البريطانيون هناك مئات ومئات السنين . اكلوا ثروة الهند وشربوا دماء ابنائها . لم يصغوا الى حديث السياسة . انه

حديث بضعة رجال . فما الذي حدث ؟ لقد جاء ذلك الرجل غاندي . تذكروا ان غاندي يعرف الرجل الابيض جيدا . التفت حوله الجماهير الهندية حتى اصبحت سلاحا اقوى من القنبلة . قالوا بصوت واحد : نريد استعادة حريتنا . ضحك البريطانيون . انهم بارعون في الضحك . ولكنهم ندموا على ضحكاتهم عندما اصبح الامر جادا . ماذا فعل الطغاة ؟ اعتقلوا غاندي اكثر من مرة . الا ان جدران السجن لم تستطع ان تمسك به . سجن الآلاف وقتل الآلاف . كان الرجال والنساء والاطفال يرمون انفسهم تحت القطارات سالت الدماء كالمياه في انحاء البلد كافة . لكن القنبلة لاتستطيع ان تقتل الدم ، الدم الاحمر للشعب الذي ينادي بحريته . ياالهي ! كم مرة يجب أن ينتحب اليتامى وتبكي الارامل على هذه الارض حتى يتعلم الطاغية الدرس ؟»

ان كلماته وصوته المتهدج قد اثرت في الحاضرين . وانعكس تأثيرها في الصمت الذي اعقب حديثه . كانت مومبي تتأثر دائما بكلمات اخيها عن ماضي الاقوام الاخرى البطولي الذي خلدته اعمال الاستشهاد والتضحية . احاط الضباب الطقوس بتلك الاراضي البعيدة والسنوات الماضية فانتابها احساس بالامتلاء الغامض . لم تستطع ان ترى شيئا بطوليا في الرجال والنساء الذين تسحقهم القطارات . ان التفكير في تلك المناظر المضببة اثار انفعالها ، لأن فكرتها عن المجد اقرب الى عذاب المسيح .

قالت بسرعة : «اكره ان ارى قطارا يسحق أمي أو أبي أو أخوتي ، أوه ، ماذا كنت أفعل ؟»

قال كرانجا كأنه يمزج : «الجبن صفة النساء» .

اجابت مومبي بغضب : «هل تحب ان يسحقك قطار ؟» احس كرانجا بغضبها فلم يرد عليها .

علق كيهيكا بروح مرحة : «اخبر المسيح شعبه بان يحملوا الصليب بعده . ان على كل من يأتي بعدي ان ينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني . لأن من ينقذ نفسه يفقدها ، ومن يفقدها من اجلي سيجدها ، اتعرفون لماذا نجح غاندي ؟ لأنه جعل الهنود يتخلون عن ابائهم وامهاتهم ويخدمون الام الوحيدة التي هي الهند اما نحن فان كينيا هي أمنا» .

تأثر جيكونيو بصوت كيهيكا وببريق عينيه اكثر مما تاثر بمناقشاته . علقت مومبي : «سيغمى علي ان رأيت الدم» . اخبرها كيهيكا : «ان مانريده في كينيا هو رجال ونساء لايهربون امام السيف»

سأل جيكونيو : من اجل المشاركة في النقاش «وكيف نوحد الناس ؟» جاءت وانجيكو الى الباب واعلنت ان الشاي جاهز .

قالوا انهم يريدون تناول الشاي في الخارج تحت اشعة الشمس . عند ذاك انضمت اليهم فتاتان من ثاباي .

سألت وامبوكو : «هل اصبحتم اوربيين كي تأخذوا الشاي في الخارج ؟»

اجاب كرانجا وهو يقلد صوت اوربي متشدق : «نعم ، نعم اصبحنا اوربيين حقيقيين ماعدا الجلد الاسود» . ضحك الجميع .

قالت نجيري : «احسنت الأداء»

كانت وامبوكو ونجيري صديقتين لومبي ، وكانتا تداعبانها في حب كرانجا لها . اشرق وجه كيهيكا لرؤية وامبوكو . كان كيهيكا يرقص مع وامبوكو دائما ويستمتع بالتحدث اليها . شاركت الفتاتان في تناول الشاي ، لم يرفع كرانجا عينيه عن مومبي . وكان جيكونيو يراقب اذا كانت مومبي ترد على كرانجا بابتسامة مثل الابتسامة التي ردت بها عليه . استدارت عينا نجيري الى كيهيكا الذي تبادل نكتة مع وامبوكو . وحين تركت دون اهتمام خاص من احد حاولت نجيري ان تسلي نفسها بمراقبة المنافسة بين كرانجا وجيكونيو . حاول النجار ان يشركها في الحديث ، لكنه لم يكن متحمسا . بعد ان اكملت مومبي تسريح شعرها دخلت الكوخ لارتداء ملابس الأحد . نهضت نجيري بكسل وخرجت لتتسلق التل المجاور . ثم بدأت تصيح فجأة : «القطار ! القطار !» انحدرت مسرعة من التل : «لقد تأخرنا على القطار»

سمع الاخرون صوت القطار . نهضت وامبوكو واخذت يد كيهيكا اليمنى لتسحبه . ثم تركت يده وانطلقت راكضة عبر الطريق الى المحطة . تبعها كيهيكا ذو الوجه الحزين . صاحت نجيري : مومبي ، مومبي ، القطار . ثم التقطت المنديل الذي تركته على الكرسي وتبعت الاثنين الاخرين . تردد كرانجا وجيكونيو قليلا كأن كلاً منهما ينتظر المبادرة من الاخر .

نهض كلاهما عندما ذكرت نجيري القطار . نظرا الى الكوخ ثم الى الاشخاص الراكضين . خرجت مومبي وهي تشد الحزام حول خصرها النحيل . سمعت صوت وانجيكو وهي تخبرها ان تأخذ

المنديل الذي تركته في الداخل . عادت الى الكوخ ثانية . ما زال كرانجا وجيكونيو ينتظران وهما يتظاهران بالاستعداد للركض .

قالت مومبي : «لنذهب» وسبقتهما عدة ياردات . تبعها جيكونيو وظل كرانجا في المؤخرة . كان قطار كيسومو يحثهم : اركضوا ، اركضوا ، اركضوا . وكان الطريق من بيت مومبي الى المحطة يمر عند نهايته بغابة صغيرة . وصلت نجيري الى الغابة ، لكن وامبوكو وكيهيكا اختفيا عن الانظار .

تمكن كرانجا من تخطي جيكونيو لانه اطول منه . استجمع النجار كل قواه في السباق من اجل مومبي ، لكن كرانجا تخطى مومبي ايضا واندفع الى الامام . كان يرى إكليل الغار فوق رأسه . غاص قلب جيكونيو خوفا من الاهانة وهو يجتاز مومبي . كان يلهث وقد ادرك انه لايستطيع اللحاق بكرانجا الذي اختفى في الغابة .

توقفت مومبي عن الجري ونادت على جيكونيو الذي توقف وانتظرها . قالت :

ـ «انا تعبت»

ـ «لماذا توقفت ؟ سيفوتنا القطار»

ـ «هل هو مهم الى هذه الدرجة ؟ وهل يمكن ان تموت اذا لم تره اليوم ؟» تساءل جيكونيو ، لِمَ كانت غاضبة عليه ؟

واصلت حديثها برقه : «لااريد ان اذهب هناك اليوم»

سارا جنبا الى جنبٍ . تألم جيكونيو بسبب اندحاره في السباق الى المحطة . ولكن عندما وصلا الى الغابة زال الألم لأنه أحس فجأة بأنه وحيد مع مومبي التي كانت هي الموضوع الرئيس للسباق . كان

يبحث عن الكلمات ويأمل ان لاتسمع الفتاة دقات قلبه العالية . اتكأت مومبي على جذع شجرة ولاحظ جيكونيو ان الابتسامة عادت الى عينيها . كانت الغابة تحميهما من اشعة الشمس . والحشائش والاعشاب المزهرة ترتفع عاليا بينما تتدلى اغصان الشجر الى الارض . قالت مومبي :

ـ «لابد من انك بذلت جهداً كبيراً في عمل المقبض لتلك الفأس . كان خفيفاً وناعماً ، وقد فرحت به أمي كثيراً» .

ـ انه لاشيء»

ـ «لاشيء ؟»

ـ «أعني انه عمل بسيط . وقد سرني أن أقوم به»

ضحكت برقه : «وتقول انه لاشيء» . كان خداها ممتلئين ، وتغلغل صوتها في جسمه . استمرت قائلة : «من الرائع ان تكون نجارا ، ان تعمل في الخشب . انك تحول القطع الخشبية المكسورة الى شيء ما»

ـ «انت ايضا تحيكين البلوزات»

ـ «هذا امر مختلف . رأيتك مرة وانت تعمل . بدا لي كأنك تتحدث الى الأدوات»

اقترح جيكونيو بصوت يرتعش بالعواطف : «لنكتشف الغابة» . وصلا الى مكان مفتوح وسط الغابة . كان الحشيش الأخضر يصل الى ركبتيهما . وقف في مواجهة مومبي واسلم نفسه الى قوة عرف انها تجذبهما الى بعض . امسك بيديها بأصابع مليئة وحساسة جدا : «مومبي ...» . حاول ان يقول شيئا وهو يضمها الى صدره .

مالت اليه واختلطت دقات قلبيهما . كان كل شيء هادئا . ارتجفت مومبي مما بعث القشعريرة والخوف والمتعة في دمه . سحبها تدريجيا الى الارض وغطتهما الحشائش الطويلة . كانت مومبي تتنفس بصعوبة ، لكنها لم تستطع ولم تجرؤ ان تتكلم . بدأ جيكونيو يخلع ملابسها قطعة فقطعة كأنه يمارس طقسا من طقوس السود في الغابة . اشرق جسدها تحت اشعة الشمس . صارت عيناها ناعمتين ومتوحشتين ، مطيعتين ومتحديتين . مرر جيكونيو يديه على شعرها وصدرها واستطاع ببطء ان يرخي تصلب جسدها ، الى ان استسلمت رخوة بين يديه ، عند اللحظة الحاسمة حين غطس في العمق المظلم سمع تأوهاً يخرج من بين شفتي مومبي المفتوحتين . شدته بقوة الى جسمها . اصبح تنفسهما واحدا وسكنت الارض تحت جسدهما الواحد .

في المحطة وجد كرانجا ان الحشد كئيب والقطار كئيب . كان متعبا ومعدته فارغة . تبخرت الاحتمالات المثيرة التي داعبته عند وجود مومبي . حاولت عيناه عبثا ان تعثرا على مومبي بين الحشود المائجة .

كانت النسوة كالمعتاد يرتدين ملابس اكثر تلونا من الرجال ، وكانت الازياء تختلف حسب مناطقهن . فاللواتي جئن من نديا والمناطق البعيدة عن رونجي كن يلبسن قماشاً منقطاً براقاً أزرق أو أخضر أو أصفر ، يمر من تحت الابط وينتهي بعقدة تشبه الزهرة فوق الكتف اليمنى . وكانت الاحزمة الصوفية او القطنية الرفيعة تتدلى من خصورهن وتخفق طويلة الى الخلف عندما يمشين على

الرصيف ليعرضن انفسهن امام الرجال . واغلب الفتيات اللواتي جئن من ثاباي او كيهنجو او نجيكا كن يرتدين فساتين قطنية مزركشة متخلفة سنتين او ثلاث عن ازياء نيروبي .

لم يكن الرجال كذلك .

جاء بعضهم بسراويل وسترات فضفاضة اشتروها مستعملة من الحوانيت الهندية او الافريقية في رونجي . كانت ركبهم تظهر ، كرؤوس سوداء صغيرة ، من شقوق السراويل حين يسيرون على الرصيف وينقلون خطوهم بثبات . كانت كل خطوة تأكيدا غير ضروري لرجولتهم .

وقف كرانجا بعيدا عن الحشد المتحرك . دبت الغيرة في نفسه ، وهذا امر غريب لانه رفض دائماً ان يعد جيكونيو منافساً له . كيف يمكن لنجار بلا ذكاء ولا دماثة خلق ان يجرؤ على ذلك ؟ ولكنه يعرف ان جيكونيو ومومبي وحدهما الان معا في مكان ما . كان غاضبا من هذا الاستنتاج . كيف يمكن لمومبي ان تجعله يلهث ويعرق من اجل لاشيء ؟ كيف يمكن ان تتركه يجري بعيدا كالطفل من اجل ان تبقى مع جيكونيو في المؤخرة ؟ فكر في ان يسرع بالعودة فيبحث عنها ويهينها ويجبرها على الركوع امام الناس الى ان تبكي متوسلة لانقاذها . كان الحافز لتنفيذ ذلك قويا حتى انه ابتعد فعلا عن الرصيف قبل ان تختمر الفكرة . ثم توقف وفكر فيما اذا كان عليه ان يركض أم لا كأن الطريقة التي يعود بها من الرصيف هي التي تقرر نجاحه في المهمة التي أوكلها لنفسه . ماذا لو وجدها بين ذراعي جيكونيو ؟ بدأ ذهنه يتتبع يدي النجار الخشنتين فوق جسد مومبي

من الصدر الى السرة الى ... كلا ! انه لايجرؤ ، يجب ان يفكر في هذا . بدأ يسب ويعذب نفسه بصور اكثر بشاعة . كلا ، ليس النجار . ارتجف واستعان الرب . لايمكن ، والا فلتسقط السماء ولترتجف الارض ، ليتهاوى الناس في الحفر الفاغرة افواهها وهم يتأوهون عذاباً حتى الموت .

ادهشته ردود فعله العنيفة وحاول ان يسيطر على ارتجاف جسمه مقنعا نفسه بانه ، على اية حال ، لم يخبر مومبي بحبه . ويمكن ان لايكون قد حدث شيء بين جيكونيو ومومبي . ارتاح لهذا التفكير وتمسك به وحاول ان يجد له مبررات عديدة . حاول ان يبتسم كي يبدد القلق الذي يحوم حول الهدوء الذي أحس به .

فكر في الانضمام الى مجموعة من الرجال على بعد خطوات منه . وقرر ان يعمل بسرعة ويفتح قلبه لمومبي . كان الرجال يتحلقون حول كيهيكا بوجوه حية وآذان صاغية . وعلى مسافة اخرى توجد مجموعات من الرجال والنساء يتمشون او يقفون على رصيف المحطة . ان منظر الرجال والنساء وهم يضحكون ويمرحون معا جعل كرانجا يفتقد مومبي .

انطلق الصفير فجاة وتحرك القطار الى خارج المحطة وكان كرانجا الذي راقبه باهتمام قد واجه تجربة غريبة . حين بدأ الصفير أحس بان العربات ترتطم به . (وقد ظل هذا الاحساس يراوده فترة طويلة) . وقف فيما بعد على حافة الرصيف وحدق الى الفراغ الابيض . وأقسم بعد ذلك انه رأى كل شيء يدور بسرعة ، سكك الحديد والناس والرصيف ومحلات رونجي والبلاد كلها ، ثم تتوقف

الدنيا فجأة . توقف الناس عن الكلام ولم يتحرك شيء او يصدر صوتا . فزع كرانجا من هذا التوقف المفاجيء ونظر حوله ليؤكد حقيقة مايرى . لم يكن قد توقف اي شيء . كان الناس يتراكضون كأن كل واحد منهم خشي ان تخسف الارض تحته . كانوا يركضون في كل الاتجاهات ، الرجال يتعثرون بالنساء والامهات ينسين اطفالهن . وقد ترك المعوقون والضعفاء على الرصيف . كل فردا انصرف الى نفسه وربه . ارتعب من رؤيته الواضحة . حث كرانجا نفسه للصراع من أجل الحياة . قال لنفسه ، دون ان يتحرك ، يجب ان ابتعد عن هذا المكان . بدأت الارض تدور ثانية . يجب ان أهرب . لماذا اخشى السقوط على الاطفال والعاجزين والضعفاء بينما يفعل الاخرون ذلك ؟

وضع الرجل الواقف قربه ذراعيه حول كرانجا ليمنعه من السقوط على الارض الصلبة : «مابك ايها الرجل ؟ هل انت سكران ؟»

قال كرانجا وهو يفرك عينيه كمن يستيقظ من النوم «انا .. انا لاادري» بدا كل شيء طبيعيا على رصيف المحطة . كان القطار يتوارى في الزاوية البعيدة . قال كرانجا للرجل الذي ساعده : «انه رأسي . كان يدور ويدور»

ـ «ذلك بسبب الشمس . انها تجعل الانسان يشعر بالدوار . لِمَ لاتجلس في الظل وتستريح ؟»

ـ «انني بخير الان» حاول كرانجا ان يبتسم بصعوبة وذهب لينضم الى المجموعة المحيطة بكيهيكا . لم يشاهد حالته الا القليل

من الناس . وجد كيهيكا يشرح شيئا عن المسيح :

ـ «لايمكن ان ينجح النضال من اجل وياثي دون رجل كهذا . خذوا الهند مثلا . لقد كسب مهاتما غاندي حرية شعبه بعد ان دفع ثمنها من دمه الخاص» .

احس كرانجا بالغضب لانه مازال تحت تأثير رؤيته . قال يخاطب كيهيكا :

ـ انت تقول الان شيئا ، وبعد ساعة تقول شيئا اخر ، قلت هذا الصباح ان المسيح فشل . والان تقول اننا نحتاج الى المسيح . هل اصبحت من حركة الإحياء ؟»

كانت لهجة الاحتقار والسخرية التي عبرت عن عدم ايمان كرانجا قد آلمت كيهيكا . تردد قليلا . لم يكن يدري كيف يرد على هذا التحدي المكشوف لصديق . اقترب الناس اكثر ومالوا برؤوسهم ليروا اذا كان كيهيكا قد افحم حقا . كبح كيهيكا جماح غضبه وواصل الحديث :

ـ «نعم . قلت انه فشل لان موته لم يغير شيئا ، لم يجعل شعبه يعثر على مركز في الصليب . كل الناس المضطهدين لديهم صلبان يجب ان يحملوها . رفض اليهود ان يحملوا الصليب وتفرقوا مثل ذرات التراب في انحاء المعمورة كافة . هل كان موت المسيح يعني شيئا لهم ؟ في كينيا نحتاج موتا يغير الاشياء اي اننا نريد تضحية حقيقية . ولكن علينا اولاً ان نكون مستعدين لحمل الصليب . انا اموت من اجلكم وانتم تموتون من اجلي ، وهكذا كل منا فداء للاخر . وانت ياكرانجا ، يمكن القول إنك المسيح وانا المسيح وكل

انسان يقسم على الوحدة من اجل تغيير الوضع في كينيا هو المسيح» .

جاءت نجيري وواميوكو وبعض الفتيات للانضمام الى المجموعة .
انتهى حديث السياسة بعد ان تأثر الكثير من الشباب بذكاء كيهيكا . خف التوتر على وجوههم فابتسموا وضحكوا مع الفتيات .

بقي كرانجا وكيهيكا بعيدين عن بعضهما لاسباب عديدة . فقد تجنب كل منهما الاخر دون ان يخططا لذلك . بقيا صامتين طوال الطريق الى ساحة الرقص في الغابة .

كان الجو هادئا وباردا في غابة كينيني . وتفرق الرجال والنساء في مجموعات كما هو المعتاد وبدأوا الضحك والصخب اللذين بعثا الحياة في الغابة . وضع احدهم قيثاراً بين يدي كرانجا وصاحت الفتيات : «اعزف» . عندما يعزف كرانجا على قيثارة الخاص يشعر دائما باستجابة الاوتار للمسات أصابعه . لكنه اليوم لم يات بآلته فحاول ان يسيطر على هذا القيثار . وقد انعكست انفعالاته على الاوتار ووصلت الى الناس الذين بدأوا الرقص . كانت الرقصات الاولى حرة .

رقصت واميوكو مع كيهيكا . انفعلت بالموسيقى فبدأت تلتصق بجسم كيهيكا . مال رأسها الى الخلف وهي تنظر اليه بعينين براقتين . كان نهداها الناتئان يهتزان ويحتكان بكيهيكا الذي نسي حادثة المحطة . عندما رآهما كرانجا ملتصقين ببعض تذكر مومبي . لقد عزف مرة او اثنتين في بيتها . احس برغبة في ان يعزف لها مرة اخرى . ايقظت هذه الرغبة دماءه وانتقلت الى اصابعه ، فكانت الاوتار تعبر عن مكنونات قلبه . وتجاوز نشدان تلك الرغبة الغابه الى

القرية والى مومبي .

كان كرانجا يعزف بطريقة تختلف عن طريقة جيكونيو . ان جيكونيو يتعامل مع الآلة الموسيقية بنوع من الغضب الاسود . احيانا تحتويه الآلة ويكتسب عزفه قوة بدائية . لكن كرانجا يتحكم بالآلة . انه يسيطر عليها كما يسيطر النجار على ادواته . لذا فان عزفه دقيق ومتقن .

تقدم رجل الى المكان الذي تقف عنده نجيري ، الا انها رفضت الرقص بهزة حالمة من رأسها ، تابعت عيناها كيهيكا وواميوكو وهما يدوران حوب الاشجار الصامتة وتبعثر اقدامهما الاوراق الساقطة من الشجر . بدا كأن جذوع الاشجار تتحرك مع الراقصين . غنى كرانجا بنشوة حزينة . كانت الغابة والناس كلهم ملكه . لكنه اراد ان تسمعه مومبي فقط . انها ستسمع الرغبة العارمة في صوته وستهرع اليه ، سوف تتبعه قطعا ، اذ لايمكنها ان ترمي نفسها على نجار . اعادت هذه الذكرى الألم الى نفسه فانتهى صوته وصوت القيثار الى صمت فجائي جميل .

اعقب ذلك تصفيق حاد وصيحات استحسان شقت صمت الغابة . تسلل كيهيكا وواميوكو الى مكان منعزل . تركا الجانب الكثيف من الغابة والراقصين وعيني نجيري الجائعتين خلفهما . في ذلك المكان تنحدر الاشجار الخضر والاعشاب الطويلة نحو الوادي . وعلى البعد ، الى الجهة اليمنى استطاع كيهيكا ان يرى حدود مركز شرطة (ماهي) ، رمز القوة التي سيطرت على كينيا وامتدت الى كل كوخ فيها .

فكر كيهيكا : «حطم ذلك المركز فيرحل الرجل الأبيض . انه يحكم بالسلاح كل ابناء الشعب الاسود في كينيا» . لمع بريق في عيني كيهيكا ونبض قلبه بشدة منفعلا بذلك التصور الذى انتشى به وكاد ينسى المرأة بجانبه على الرغم من احساسه بانفاسها قربه . بدا كأنه جاء بها هنا ليريها ذلك الشيء . اخذ يدها بين يديه وكانت عيناه مازالتا تحدقان في (ماهي) وفي الوادي الصخري .

قال بصوت متأن : «هذا هو الطريق . هذا هو الطريق الذي سلكه الرجل الأبيض للوصول الى قلب الأرض» . كان يفكر في خط سكك الحديد الذي رآه ممتدا عبر منحدرات ايسكاربمنت في الوادي .

قالت وامبوكو بنفاد صبر : «ألايمكن ان تنس السياسة ياكيهيكا ؟» تأرجح السؤال بين الغضب والرغبة .

لم تكن وامبوكو جميلة إلا عندما تضحك او عندما تستثار عاطفيا . عندئذ تنسبل عيناها وتنفرج شفتاها ويشرق وجهها الداكن انتظارا فتكون جذابة بصورة لاتقاوم . كانت امرأة ذات قدرة كبيرة على التمتع بالحياة ، تعيش ليومها وتفجر امكانيات متنوعة لتعب منها . ارادت الحياة مع كيهيكا لكنه كان يقف دائما عند حافة الاعتراف . عندما كانا وحدهما معا انتظرت حدوث شيء ما . كان قلبها يخفق بالخوف من المجهول . غير ان كيهيكا لم يبادر بشيء لانه مأخوذ بفكرة معينة . حسبت وامبوكو ان الشيطان يبعده عنها . لو كانت فقط تفهم الامر ، لو قابلت ذلك الشيطان وجها لوجه لعرفت كيف تقاتله بكل قوة المرأة . لو كان الشيطان امرأة منافسة ! لكن

كيف تقاتل شيطانا لايتخذ شكل امرأة ؟ كيف تقاتل شيئًا مختفيا في الظلام ؟

قال : «انها ليست سياسة ياوامبوكو . انها الحياة . هل يكون رجلاً من يدع الاخرين يسلبون ارضه وحريته ؟ هل يمتلك العبد حياة ؟» كان يتحدث بألم وينطق الكلمات كما لو كان يبحث عن اجوبه لاسئلة تسكن في داخله . سحبت وامبوكو يدها من يده بنفاد صبر كأنها لاتريد ان تربط مصيرها بمصيره .

ـ «انك تملك ارضا ياكيهيكا . كما ان ارض مبوغوا ستعود اليك . على اية حال ، ان اراضي الوادي الصخري لاتخص قبيلتنا» .

ـ «تقصدين الدونمات العشرة التي خلفها أبي ؟ ليس هذا هو المهم . ان كينيا تخص الشعب الأسود . ألاترين ان قابيل كان على خطأ ؟ انا احافظ على أخي . وسواء كانت الارض تعود الى جيكويو او اوبابي او ناندي فانها لاتعود الى الرجل الابيض . ولنفترض انها كانت له ، ألا يحق لكل شخص ان يأخذ نصيبه من المزرعة المشتركة التي هي كينيا ؟ انظري الى الرجل الابيض في أي مكان مأهول بالناس . انه يمتلك المئات والمئات من الدونمات . ماذا بقي للرجل الأسود الذي يعيش في تلك الاراضي ويعرق كدحا في الحقول لزراعة القهوة والشاي والليف والحنطة ولايحصل إلا على عشرة شلنات في الشهر ؟» .

كان كيهيكا يتحدث بيديه كأنه يخاطب جمهوراً كبيراً . شعرت وامبوكو ان عليها ان تقاتل الشيطان في تلك اللحظة . اخذت يده وضغطت عليها برفق . نظر اليها كيهيكا . لكن الكلمات لم تسعفها

لتعبر عما يجول في قلبها .

قالت وهي تحس بالفشل :«فلنكف عن الحديث في هذه الامور الان» . بادلها كيهيكا الضغط على يدها وهو يشعر بنشوة الرجل الذي وجد روحا طيبة في مجمل نشاطاته . اراد ان يعبر لها عن امتنانه . انها الوحيدة ، من بين كل الناس ، التي أمنت كليا به وبأفكاره . واذا لم تعبر عن ذلك بالقول فان اللمسة الرقيقة من يدها عبرت عن ذلك .

قالت بيأس : «لن تهرب مني . لن تتركني وحيدة !» صاح كيهيكا بنشوة : «ابداً» ، لأنه كان يرى وامبوكو دائما الى جانبه .

بعد ذلك لاحظت وانغاري وومبي والنساء الاخريات في ثاباي تغيرا واضحا في سلوك الرجل . بدأ يغني بتحد . انه يتحدى بشكل مكشوف كل اولئك البعيدين عن ثاباي . يتحدى الرجل الابيض في نيروبي وفي كل الاماكن الاخرى التي سكنها اجداد جيكويو . انضم كرانجا وكيهيكا واخرون الى جيكونيو وبدأوا يغنون اغاني الأمل الحزينة . كانوا يضحكون ويروون القصص ، لكن ضحكاتهم لم تكن كالسابق ، بل حملت السخرية والتوقع في زوايا شفاههم . قل عدد الناس الذين يذهبون الى القطار وتحولت لقاءات الرقص في الغابة الى لقاءات ترسم فيها الخطط لليوم المنتظر . بدأوا يلتقون في الاكواخ وفي الاماكن المظلمة ليتهامسوا معاً . واخيراً تفجرت ضحكات المحاربين واغاني القتال . ارتجفت قلوب النساء من تلك الاغاني وروعهن مصير اولادهن .

كانت الأجواء حبلى بالأحداث ..

في احدى الليالي وقع الحدث . اعتقل جومو كينياتا وبعض القادة الاخرين واعلن الحاكم بارنغ حالة الطوارىء في كينيا .

بعد بضعة اشهر من اعلان حالة الطوارىء كانت مومبي تقف خارج الكوخ وتتطلع بنظرات حالمه الى الارض . لم يكن جيكونيو في دكانه وكانت وانغاري قد ذهبت الى النهر . ان السياجات غير المنظمة التي تحيط بالمنازل جعلت السفح يبدو كأنه أجمة برية لانهاية لها لولا حلقات الدخان التي تتطاير من اكواخ عديدة فتعطي المنطقة احساسا بالإلفة والسلام . كانت الشمس توشك ان تغرب والسياج الصغير المحيط بكوخ مومبي الجديد يتموج بفعل النسيم . تمتعت مومبي بذلك المنظر .

رأت اخاها الصغير كاريوكي يسير في الحقول . غمر الدفء مومبي . أحست بالسعادة لان أخاها جاء لزيارتها . لقد أحبت كاريوكي وكانت قبل زواجها تغسل ملابسه بعناية . وفي الصباح كانت تستيقظ مبكرة لتعمل له الشاي قبل ذهابه الى المدرسة . وعلى الرغم من انها أحبت كيهيكا وأعجبت به واعتمدت عليه على أنه الأقوى دون ان تفهمه ، إلا انها وهبت حنانها الأخوي كله لكاريوكي . كانت دائما تخرج مع كاريوكي للتنزه في الريف ، فتستمع الى ثرثرته في مختلف المواضيع ابتداء من المدرسة وانتهاءً بالنساء . لكنها اعتادت ان توبخه ، دون قناعة ، كلما تحدث عن الكبار رجالاً او نساءً . عندئذ يقوم كاريوكي بحركات فكاهية تحول ابتسامة مومبي الخفية الى ضحكة مكشوفة .

كان كاريوكي يرتدي ملابس المدرسة . وعندما اقترب اكثر أقلق

مومبي الحزن الذي يكسو وجهه . خفت البريق في عينيها وتحولت نشوتها الى انفعال حفزها الى الحركة .

ـ «ما الأمر ياكاريوكي ؟ هل حدث خطب ما في البيت ؟»

سأل كاريوكي وهو يتجنب عينيها واسئلتها : «هل جيكونيو في البيت ؟»

ـ «كلا ليس في البيت . ولكن ماالخطب ؟ لقد اقلقني منظر وجهك»

ـ لاشيء . طلب مني والدي ان اصطحب جيكونيو الى البيت . وانت كذلك»

كان الصبي يطأطىء رأسه ويتحدث بصوت ضعيف يشبه الهمس على الرغم من انه حاول جعله قوياً . وحينما نظر الى مومبي التمعت الدموع في عينيه : «ان الامر يخص اخانا كيهيكا . آه ، مومبي . لقد هرب كيهيكا الى الغابة ليقاتل» . قال ذلك وألقى بنفسه بين ذراعي مومبي . احتضنت الأخت أخاها لحظة كانت ثاباي فيها تدور وتدور تحت قدمي مومبي . ثم توقفت الارض وسادها السلام . سألت :

ـ «ماالذي يمكن عمله ؟»

حل الظلام في الخارج . خرجت وامبوكو ونجيري من كوخ مبوغوا وانطلقتا الى البيت . سارتا بصمت وكل منهما مشغولة بافكارها . تذكرت وامبوكو المشهد الذي ازال عنها الصداع في الكوخ . كان مبوغوا يحني رأسه وهو يصغي الى قصة وامبوكو دون ان يقاطعها . عندما انتهت رفع رأسه ونظر اليها :

ـ «قال ان مكانه هو الغابة ؟»

ـ «نعم»

ـ «ماالذي جرى لعقله ؟ ألا أملك أرضا تكفيه طوال حياته وتكفي ابناء ابنائه ؟» . وقد ترك الامر الى مومبي كي تحول الحزن الخاص الى منطق مقبول .

ـ «اختلفت الامور بعد اعتقال جومو ، اعتقل قادة البلد كلهم ولا نعلم ما حل بهم . هل تظن ان كيهيكا ، وهو المسؤول الحزبي في المنطقة ، سينجو من يد الرجل الابيض ؟ كان عليه ان يختار بين السجن والغابة ، فاختار الغابة» .

قال مبوغوا : «ليفعل الله به ما يشاء» ، وهزت وانجيكو رأسها تعاطفا مع زوجها .

حاولت وامبوكو ان تحبس الدموع في عينيها ولكنها الان تسير في الظلام . بدأت تبكي بصمت . ثم تحول حزنها الى كلمات :

ـ «انه الشيطان»

سألت نجيري : «هل ستذهبين اليه ؟»

صرخت بشكل عاطفي قطع صمت الليل :«كلا . لقد هرب مني . هرب من بين ذراعي يانجيري . توسلت اليه بالدموع ان يبقى . نعم . كنا وحدنا خارج البيت حين اتى ليخبرني برحيله . هل انتظره ؟ ذكرته بوعد قطعه على نفسه في كينيني وهو ألايتركني أبداً . لكنه رحل»

سألت نجيري بلهفة تحمل الازدراء والتعالي : «ألاتحبينه ؟»

ـ «أحبه ، وقد أحببته دائما ، وابتعدت عن الرجال الاخرين

كلهم من اجله . وفي الليل لا افكر الا فيه . لقد أردته ، وكان باستطاعتي انقاذه . كان رجلاً يانجيري ، قوياً وواثقاً الا انه كان ضعيفا في الوقت نفسه ضعيفا مثل طفل صغير»

قالت نجيري بلهجة مسمومة غير متوقعة ادهشت وامبوكو : «لم تكوني تحبينه ، كنت ترغبين فيه حينما نام معك» .

ـ «لايمكنك ان تخبريني بما في قلبي»

ـ «بعض الناس لايعرفون ما في قلوبهم»

ـ «اعرف . انت تغارين»

ـ «منك ؟ أبداً»

ثم افترقتا دون ان تنبسا بكلمة اخرى . كانت نجيري قصيرة القامة ، الا ان نحافتها تظهرها طويلة نسبيا . وكان في نحافتها نوع من الخشونة . لقد احتقرت مظاهر الضعف مثل الدموع عند النساء . وكلما حضرت شجارا في كينيني اشتركت فيه مشتبكة حتى مع الرجال . كانوا يسمونها القطة لان القليل منهم استطاع ان يفرض عليها ارادته بالقوة . لذا احست الان بالتفوق والقوة ولم تستطع ان تخفي احتقارها وامبوكو . وقفت وحدها في الظلام امام بيتها ونظرت باتجاه غابة كينيني .

همست لنفسها : «انه هناك» . ثم وجهت حديثها اليه بشكل عاطفي : «انت الفارس الذي احلم به» . ثم رفعت صوتها لتسرب الغضب المكبوت داخلها :

«انها لاتحبك ياكيهيكا . انها لاتعيرك اهتماما» . وتقدمت خطوات قليلة ودارت حول نفسها متمنية ان تحمل امواج الظلام اعترافها

الخالد الى كيهيكا . صاحت بصوت عال :

«سآتي اليك يافارسي الجميل . سآتي اليك» . ركضت الى كوخ امها وهي ترتجف لعلمها بان ذلك عهد قطعته على نفسها من اجل كيهيكا .

عاد جيكونيو في المساء يحمل سراً لايستطيع ان يفضي به الى احد غير مومبي . حافظ عليه بحرص شديد . في الامسيات كان يلتقي عنده كرانجا واخرون فيتحدثون همسا ويطلقون السباب والتحديات في الهواء ثم يستعيدون باعتزاز التاريخ الشخصي لكل من الرجال الذين التحقوا بكيهيكا . لاحظت وانغاري ومومبي ان يد النجار لم تكن ثابته حين يدفع بالفأرة على الخشب . حسبت وانغاري انها فهمت السبب فاعتراها الخوف . ولكن كيف تفسر ألايمس رجولته ذلك البريق في عينيه والحيوية في صوته ونار البنادق في الهواء والبوق الذي يعلن للناس أن يغلقوا ابواب بيوتهم في السادسة ؟ ان مومبي هي الوحيدة التي استطاعت ان تفهمه لانها عرفت وقع يديه واصابعه على جسدها . عرفت قوة الرجل عندما طرحها أرضا . تلك لحظات يمارس فيها الانسان الرعب والحب . لقد رغبت فيه وانتشت بقوتها الانثوية لان الرجل عندما ينتشي بها فان رقتها ومعرفتها تنقذانه وتعيدان الحياة اليه .

لم ترد ان يذهب ، لكنها كرهت جبنها ذاك .

اعتقل المزيد من الرجال وسيقوا الى معسكرات الاعتقال التي عرفت اسماؤها في العالم خارج كينيا . بقي رصيف المحطة خاليا . اشتاقت الفتيات الى عشاقهن واخذن يصلين الى الله خلف اكواخهن

الباردة عسى ان يعيد الشباب بسرعة من الغابة اومن معسكرات الاعتقال .

وفي احد الايام وصلت يد الرجل الابيض الى باب مومبي . انتظرت ذلك اليوم بخوف وهيأت نفسها ضد رعبه المميت . وعندما حل اليوم المنتظر وجدت نفسها عاجزة عن حماية زوجها . جمعت كل ارادتها وقوتها في صيحة مسّت قلوب الحاضرين : عد الي ياجيكونيو . كانت صيحتها صرخة رعب . وقد مسّت حمى الرعب كل انحاء ثاباي عندما علم الناس في وقت متأخر من تلك الليلة ان رسل السلام البيض أطلقوا الرصاص على جيتوغو الأصم الأبكم ابن المرأة العجوز ربما لانهم لم يعلموا ان من الملائم ان تفتتح تلك الحملة باراقة الدماء فوق تراب ثاباي .

سار جيكونيو الى المعتقل بخطوات رشيقة ثابتة بسبب ثقته بالحب والحياة . سينتهي هذا الامر سريعا على اية حال . ان جومو سيكسب القضية . لقد جاءه محامون من بلاد الرجل الابيض ومن بلاد غاندي . ان يوم الفرج قريب . سيعود جيكونيو ويمسك بخيط الحياة ، ولكن في ارض المجد والخير هذه المرة . هذا ما اراد ان يقوله لأمه ولمومبي عندما اقتاده الجنود الى الحافلة المنتظرة . فليفعل الرجل الابيض ما يشاء . ان يوم النصر قريب . انه قريب جدا . سيعود الى ثاباي ، وسيشترك مع اولئك الذين ذهبوا الى الغابة في اغنية جديدة تهز الارض لتعلن ميلاد الحرية .

بعد مرور ست سنوات بقيت تراود خيال جيكونيو صورة الخيط عندما كان يسير في الطريق الترابي عائدا الى ثاباي . لقد خفض

قبعته ، التي وجدها في الطريق ، ليخفي اطراف الشعر البارز فوق رأسه العاري ، وهي حركة غير ذكية لان القبعة نفسها كانت ممزقة . اما سترته المرقعة التي كانت يوما ما بيضاء واحالها الاستعمال المتواصل الى صفراء فقد كانت تتهدل من كتفيه المترهلين . ان وجهه الذي كان ينبض بحيوية الشباب قبل ست سنوات قد غزته خطوط رفيعة توحي بعبوس دائم كأن جيكونيو سينفجر في حالة عنف عند اية اثاره بسيطة .

كانت الاراضي الوعرة تنحدر من جانبي الطريق . وتنتشر على حافات الحقول مزروعات ضعيفة واجهت الجفاف الذي عد كارثة اخرى اصابت البلاد في تلك الفترة وتركت وجوه الامهات جافة ومحددة . لم يلتفت جيكونيوالى ظواهر الضعف والمرض في الاراضي المحيطة به . كان يغذ السير على هدى صورة مومبي التي خلفها وراءه منذ سنين . كانت الصورة تستدعيه وتوقظ في نفسه مشاعر شرختها آلام الجسد ومشاق الانتظار . فحين خاب امله في الاستقلال السريع تعلق بمومبي ووانغاري لانهما تمثلان الحقيقة الوحيدة التي لاتتغير .

سيراهما قريبا . اعطت هذه الفكرة قدميه المتعبتين اللتين بدا عليهما الانهاك عند محاولته الإسراع في سيره قوة جديدة . كانت خطواته تخلف وراءه خطا خفيفا من الغبار . طالما اشتاق جيكونيو الى تلك اللحظة ، ففي المعتقل كان يأسه يزداد يوما بعد يوم . كان الشوق محتملا في الاشهر الاولى من الاعتقال لان المعتقلين اعتادوا ان يغنوا بتحد ليلا ونهارا ويضحكوا احتقارا في وجه الرجل

الابيض . عذب بعض المعتقلين وتعرضوا كلهم لاستجواب قاس من عملاء الحكومة الذين تكمن قوتهم في عنوان وظيفتهم ـ الشعبة الخاصة . اتفق المعتقلون على ألا يخونوا القسم او يعطوا معلومات عن الماوماو . كيف يمكن ان يكشفوا القوة اللازمة للجيكويو وهم يهتفون من اجل الحرية الافريقية . لقد تحملوا كل مظالم الرجل الابيض لاعتقادهم بان الذي يتحمل الى النهاية هو الذي يقطف ثمار النصر .

كان جيكونيو يرى أن ثمار النصر هي التي تعطيها مومبي إياه . كان يتخيل بوضوح يديها المرتجفتين وهما تمسكان بتلك الثمار . ان اعادة ارتباطه بمومبي سيشهد ميلاد كينيا جديدة .

على الرغم من هذا التفاؤل او ربما بسببه هزت النكسة الاولى جيكونيو بعنف . ذهب الى غرفة سجنه وحاول ان يحل لغز الأحداث التي وقعت . وحين فشل في ذلك انضم الى المعتقلين في محاولة جماعية للوصول الى اعماق اللعبة الشيطانية . خسر جومو القضية في كابنغوريا . سيقضي الرجل الابيض على الأب ويترك الاولاد اليتامى دون معين .

في البداية لم يصدقوا ذلك طبعا . كان مسؤول المعسكر البدين ، ذو الجلد الذي بدا في الشمس ملطخاً بالدماء ، قد استدعاهم من غرفهم الصغيرة الى المجمع واعطاهم الراديو الذي كان وسيلتهم الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي . وضع المسؤول يديه في جيبيه ، وكان مغرما ببنطلونه الخاكي القصير ، ووقف على مسافة منهم يبتسم بقناعة ويتفحص وجوههم المندهشة .

صاح غاتو : «سأقول لكم شيئا يمكن ان تصدقوه او لاتصدقوه . ان الرجل الابيض يريد ان يحطمنا بالاكاذيب» . كان غاتو معتقلا من نايبري ، اعتاد ان يزرع في قلوبهم الامل والقوة . ان له اسلوبا في رواية القصص والنكات التي تجبر كل شخص على الاصغاء . كانت زوايا فمه مرسومة بشكل ابتسامة لاذعه تحيل المعتقلين من حالة الحزن الى الضحك والاطمئنان . كانت حتى مشيته مضحكة لانه كان يقلد مشية الضباط البيض وحرس المعسكر واسلوبهم . لكن قصصه ونكاته حملت مواعظ كثيرة كما حمل وجهه وعيناه خطوط حكمة لايمكن اغفالها . في ذلك اليوم كان صوته منكسرا ولايحمل الا القليل من القناعة . ومع ذلك فان معتقلي يالا التزموا بكلماته وواجهوا التهكم الصامت للرجل الابيض بعدم قناعة مكشوفة عبروا عنها بتكشيرهم وبضحكاتهم التي خرجت من بين اسنانهم .

تمدد كل معتقل في فراشه على الارض . في النهار كانوا يتجنبون الحديث عن جومو او التفكير في نتيجة القضية في كابنغوريا . لم ينظر بعضهم الى عيون بعض كي لايقرأ اي منهم ما يفكر فيه الاخر . كان الشاب هاري قد اعتقل في الماضي ايضا وحكم عليه بالسجن الانفرادي سبع سنوات في جزيرة في المحيط الهندي . وعاد انسانا محطما مستعدا للتعاون مع مضطهدية مدى الحياة . وأدان الحزب الذي ساهم هو في تكوينه . ما حدث بالامس يمكن ان يحدث اليوم . الشيء نفسه يتكرر عبر التاريخ باستمرار .

في احدى الليالي صدقوا النبأ . صدقوه كلهم . لم يصرح بذلك

اي منهم ولكنهم اجتمعوا معا في المجمع وغنوا .

تراجع يوم الخلاص الى المستقبل البعيد . جاءهم مسؤول المعسكر يحمل مكبر الصوت ويحيط به الحرس المسلح وأمرهم بالعودة الى غرفهم . تفرقوا دون همهمة او ضحكة ولم يسمع سوى وقع اقدامهم .

تركوا في صحراء لايصلها حتى صوت ضائع من عالم الانسان . اخاف ذلك جيكونيو . من سيأتي لانقاذهم . ستحرقهم الشمس حتى الموت وسيدفنون في الرمال الساخنة وتضيع اثار قبورهم الى الابد . كانت تلك الصورة تعمق يأس جيكونيو عندما يتذكر مومبي ووانغاري . ان الفكرة المتكررة التي احس معها بالعرق البارد في الليالي الباردة هي ان شخصيته ، حتى في الموت ، ستمحى من سطح الارض . في مثل تلك الاوقات لم تكن الصلاة تفارق شفتيه .

مع ذلك التزم معتقلو يالا بعهدهم ولم يقولوا اي شيء عن سرهم . وبقي غاتو يمثل روحهم العالية . لقد انضم غاتو الى الحزب مبكرا في بداية شبابه وكان نشيطا في الحملة من اجل المدارس المستقلة في نايبري . كان يؤمن بالحزب . فعبر الحزب فقط رأى الاستقلال وعودة الارض المسلوبة . كان منظما حزبيا رائعا في نايبري . اعتاد ان يسافر من قرية الى اخرى مشيا على الاقدام . وقد عرف غاتو الاحزاب السياسية والحركات التحررية في اقطار اخرى .

كان يسلي المعتقلين بقصص عن الهند ومحاكمات نهرو وغاندي ، ويحدثهم ايضا عن حرب الاستقلال الامريكية وكيف ان الانجليز اعدموا ابراهام لنكولن لانه قاد السود في امريكا الى الثورة . وكان

نابليون محاربا . انه في الحقيقية محارب عظيم في التاريخ . كان صوته يرعب الانجليز وهم في بيوتهم . تلك القصص نشرت البهجة بينهم . احسوا بان غاندي ونابليون ولنكولن يراقبون الشعب الاسود في كينيا وهو يناضل من اجل حريته . تأثر حتى الحراس الافارقه بقصص غاتو . كثيرا ما استمعوا اليه وامتزج سرورهم بالخوف . لقد تظاهروا بعدم الاكتراث ووبخوا غاتو على حدة لسانه ، الا ان قلوبهم لم تكن ضده ، لذا لم يوقفوه عن الحديث .

رسم الرجال خططا للعمل بعد انتهاء الاعتقال . ناقشوا قضايا التعليم والزراعة ونظام الحكومة ، وكان لغاتو احاديث تفصيلية عن تلك الموضوعات . فقد حكى لهم ، على سبيل المثال ، قصة رائعة عما حدث في روسيا مرة حيث كان هناك رجل عادي لم يكن يعرف القراءة او الكتابة بالانجليزية ، لكنه كان عمليا رئيس الحكومة . والان يخشى العالم كله روسيا . لم يكن التعذيب ليوقف غاتو . كان يعود الى الاخرين ويمثل لهم ما حدث له في المكتب مقلدا الاصوات والحركات الانجليزية ، اخيرا ، حبسوه في غرفة انفرادية وحده . بقي اياما محروما من رؤية الشمس او التحدث الى اي انسان . كانوا يعطونه الطعام مرة واحدة في اليوم ليأكله عند حلول الظلام . لكنهم افرجوا عنه فيما بعد واستطاع ان يلتحق بالاخرين في المجمع .

سأله المعتقلون الذين افتقدوه : «ماذا حدث ؟»

ـ «انسوا هؤلاء الناس . انهم معتمون كالظلام . سأخبركم بقصة حياتي .

ولدت في وادي خصيب . كانت اعشاب الوادي طويلة خضراء وغنية . تشرق الشمس عليه يوميا وتسقط الامطار فتنبت اشجار الفواكه في الارض . كنت غالبا ما استلقي على الحشائش والفاكهة في يدي لأصغي الى الجدول الجاري والى اصوات الحيوانات البرية . لم يعرف احد ذلك الوادي ولم اكن أخش شيئا . وفي احد الايام فاجأني زائر غير متوقع . هل تخمنون من يكون ؟ على اية حال ، يمكن ان تتخيلوا مدى دهشتي عند رؤية الملكة الشهيرة ، ملكة انجلترة . قالت (وبدأ يقلد صوتها) : «لماذا تعيش في هذا المكان المظلم . انه يشبه غرفة باردة مظلمة في احد السجون» . بقيت مستلقيا . فبدت عليها الدهشة لاني لم اتأثر بشفتيها الحمراوين كالدم . قلت لها وانا مستلقٍ على الارض : «احب المكان الذي اكون فيه» . قالت (يقلد صوتها) : «إن تبعني واديك هذا سأدعك .. مرة واحدة» . النساء هن النساء كما تعلمون . قلت لها : «في بلدي لانشتري هذا الشيء من النساء . اننا نأخذه مجاناً» . وقبل ان اتفوه بكلمة اخرى نادت على جنودها فقيدوني وسحبوني خارج الوادي . «لقد اتيتكم من هناك . لهذا السبب انا معكم هنا ان كان هذا يدهشكم» واصلوا ضحكهم ، وقال احد الرجال : «أرنا كيف تمشي الملكة» . وقف غاتو وقلد ما حدث وسط همهمات وتعليقات من الإعجاب .

وبمرور الشهور لاحظ جيكونيو ان حركات غاتو بدت تتسم بالوحشية اكثر فاكثر . كانت في عينيه نظرة شبحية . يرفع بعض الاحيان نظراته فوق الاخرين ويحدق الى ارض بعيدة جدا وراء

الاسلاك الشائكة .

ذهبوا لتكسير الحجر في منطقة تبعد خمسة اميال عن يالا . كانوا يعدون الحجر لبناء بيوت الضباط والحراس الجدد . توسع معسكر يالا . وصل المزيد من المعتقلين الذين اصبحوا وسيلة اتصال بالعالم الخارجي . كان جيكونيو والاخرون يسيرون على الرمال الساخنة في ارض منبسطة تكسوها نباتات الصبير والشجيرات الشوكية الصغيرة الخالية من الاوراق . وكان جيكونيو يرفع المطرقة الكبيرة وينزلها بحركة ميكانيكية . تصبب منه العرق الحار فالتصق قميصه بجسمه الدبق . امتدت الارض المنبسطة الواسعة من التل الى الساحل . وجد جيكونيو نفسه فجأة يفكر في موضوع آخر نقل قلبه وعقله الى عالم يختلف عن منطقة الحجر ومعسكر يالا . بعد زواجه من مومبي مباشرة فكر في ان يقدم لها هدية ، شيئا من صنع يده . فكر في اشياء عديدة ، لكنه لم يقرر اي شيء . في احد الايام سمع مومبي ووانغاري تتحدثان عن الكراسي التقليدية . كانت وانغاري تقول :

«لم يعد يوجد حفارو خشب هذه الايام . انك لاترين سوى كراسي ومقاعد مربوطة بالمسامير» . فكر جيكونيو حالا في حفر كرسي تقليدي . اراده كرسيا يختلف عن كل الكراسي . وظلت تلك الفكرة تلح عليه في اوقات واماكن مختلفة . كانت الفكرة تثيره ، لكنه لم يجد الحافز لتنفيذها . في مقلع الحجر ، بدأ يفكر مرة اخرى في الكرسي التقليدي . كان يفكر في ذلك عندما حلت دقائق الاستراحة . جلس جيكونيو الى جوار غاتو . كان وجه غاتو متعبا وكانت عيناه النديتان

«ما الشيء الوحيد الذي ينبىء بالحياة فيه .
سأل جيكونيو : «ما الامر يارجل ؟»
ـ «لاشيء»
تابع جيكونيو : «يبدو انك تفكر في امر ما» وقد طاف بذهنه سبب معين لذلك .
ـ «وما الذي يمكن ان نفكر فيه الان ؟»
قال جيكونيو بانتصار : «الحرية»
سأل غاتو ببطء وبصوت مختنق اشبه بصرخة مكبوتة :«الحرية ، واين هي الحرية ؟» قضى السؤال على الموضوع واحس جيكونيو بالإحباط . استدار غاتو فجأة بعينيه النديتين الى جيكونيو . احس جيكونيو برابطة قوية تشدهما الى بعض . حاول ان يتخلص منها ، لكنه استسلم لها في النهاية حد انه كان هو البادىء بكشف نوازع قلبه لغاتو . لقد اخبره عن ثاباي وعن وانغاري وومبي (كان الحديث عن البيت والعائلة ممنوعا بينهم دون ان يعلنوا ذلك) . الا ان جيكونيو اخبر غاتو بأن رغبته الرئيسة هي ان يرى مومبي وان مرة واحدة .
ـ « . انني لم اودعها حين اقتادني الجنود بعيدا»
احس بعض الوقت بانه ازاح حملا ثقيلا عن قلبه . لكنه شعر بالخجل قليلا لانه استرسل في الكلام . ان صمت غاتو بعد تدفقه في الحديث يعد لوماً . اشاح غاتو بعينيه عن جيكونيو ونظر الى المدى البعيد ، ثم بدأ الحديث بصوت واضح لا لون له ولم يرتفع عن مستوى الهمس :

ـ «كان هناك رجل وحيد أبويه ، رغب في امراة ورغبت المرأة في ان تتزوجه وتنجب منه اطفالا . كان الرجل يؤجل الزواج لانه اراد ان يبني كوخا جديدا ينشأ فيه الاطفال . كانت تقول له ، يمكن ان نبنيه معا ، لكنها تعبت من الانتظار وخشيت ان تجف فيها الحياة فتزوجت رجلا اخر . استمر الرجل الاول في محاولته بناء الكوخ ، لكنه لم ينته منه . يقول ابناء شعبنا ان بناء البيت هو مشروع العمر . وهكذا لم يستطع الرجل ان يمتلك امرأة او اطفالا كي تستمر نار العائلة موقدة» .

عندما انتهى من قصته قام غاتو وسار بعيدا عن جيكونيو . همهم جيكونيو مع نفسه : «انه ضعيف ، ضعيف مثل اي واحد منا» واشفق عليه . كان غاتو يبدو واثقا وحصينا وقادرا على الضحك والاضحاك . لم يفهم جيكونيو لماذا تحولت شفقته الى حقد شديد ، تجنب كل منهما الاخر بقيه ذلك اليوم كأنهما احسا بتورطهما في خطأ مشترك .

بعدئذ لم ير جيكونيو غاتو مرة اخرى . ففي اليوم التالي وجد المنظم الحزبي المعروف جيدا والذي مثل روح المعسكر مشنوقا على جدار غرفته . خيمت الكآبة على اجواء يالا . لم يناقشوا امره ابدا . ان ذلك الذي تولى سلطة الله وانهى حياته لم يذكر اسمه في معسكر يالا . هز الحادث جيكونيو بعنف . قال لنفسه وهو يخشى من ضعفه : «كان يجب ان اعرف ان ذلك سيحدث» .

تعاقبت الايام متشابهة تشابها مؤلما . كان جيكونيو ، مثل غاتو قبله ، يسير حول المجمع قبل غروب الشمس . كانت جدران كل

مجمع معززة بالاسلاك الشائكة والجدار الكبير الذي يحيط بالمعسكر كله مغطى هو الاخر بالاسلاك الشائكة . في الصباح يغادرون الاسلاك الشائكة الى الطرق والى مقالع الحجر ، وفي المساء يعودون الى الاسلاك الشائكة . اسلاك شائكة ، اسلاك شائكة في كل مكان . هكذا منظرها اليوم ، وهكذا ستكون غدا . لقد اعمت الاسلاك الشائكة رؤيته . لاشيء خلفها توقفت الاصوات البشرية . العالم الخارجي ميت . كلا . ربما كانت اذناه لاتسمعان وعيناه لاتريان . بقي عدة ايام بلا طعام . عاش على الماء ولم يشعر بالجوع او بالضعف .

في احدى الامسيات حدق الى الاسلاك الشائكة وانتابه احساس مفاجيء بالرغبة في البكاء او الضحك ، لكنه لم يفعل أياً منهما . كان يقف خارج نفسه ويراقب اعماله عن بعد ، تقدم ببطء واصرار ودفع يده اليمنى داخل الاسلاك ، ثم ضغط بلحم يده على الاشواك المعدنية الحادة . احس بالاشواك تخترق جلده لكنه لم يحس بالألم . سحب يده وراقب الدم يسيل . لقد تمتع باحساس غريب .

كان الحارس يمسك بندقيته بثبات منتظرا ان يحاول جيكونيو الهرب . ولما لم يفعل نادى عليه . سمع جيكونيو الصوت كالصدى البعيد فسار باتجاهه وهو منتشٍ بالتجربة الجديدة . وقف فجأة امام الحارس وحدق الى وجهه باحتقار ، ثم رفع يده امامه ليرى الدم ، فقد يحسده على ذلك . كان الحارس واحدا من الطيبين القليلين . رأى النظرة الغريبة في عيني جيكونيو فقال له : «ادخل واسترح» ثم ابتعد بسرعة وكاد ان يركض بعيدا عن ضحكة

جيكونيو الجنونية . في الغرفة لاحظ جيكونيو ان كل شيء قد ذاب في ضباب لا لون له ، كل شيء من الاسلاك الشائكة الى معسكر يالا الى ثاباي ، حاول ان يتذكر ملامح مومبي فلم يفلح . هناك فقط سلسلة متعاقبه من الصور التي تلغي كل منها سابقتها . هل هو ميت ؟ وضع يده على صدره وأحس بنبضات قلبه فعرف انه مازال حيا .

لماذا اذن لايستطيع ان يثبت ملامح مومبي في ذهنه ؟ ربما ذابت هي ايضا في الضباب . حاول ان يستعيد مشهد الغابة فدهش لانه لم يستطع ذلك ـ الرغبة والرجولة التامة وصوت مومبي ولحظة الانفجار ! لم يراوده اي شعور حتى على انه شيء من الماضي . وخلال كل هذا الوقت كان جيكونيو يراقب نفسه وعمله واشاراته وتدفق افكاره . كان داخل نفسه وخارجها ، يلاحظ كل شيء بنشوة وهدوء . ادهشه قليلا ضعف ذاكرته . فكر في ان السبب قد يعود الى قلقه . لو نهضت فان كل الذي جعلني ما انا عليه سيعود بحيوية . الغرفة مثلا تدور وتدور . حاول ان يسير قليلا . تملكه الفزع . ترنح على الجدار ، وتدفق الزبد من فمه عندما تكوم على الارض غارقا في ظلام دامس .

بدأ تدريجيا يسمع صوتا خفيفا لوقع اقدام تغذ السير على الاوراق الجافة في الغابة . ارهف السمع ليعرف ذلك الصوت الذي تحول الى صوت مومبي . رفع رأسه ورأى الابتسامة الملائكية ، ورأى يديها اللتين تحملان مصباحا يزيح الظلام امامها . ارادت ان ترفعه . انها هي التي ظهرت حقيقة نقية غير قابلة للتلوث في عالم من الظلال المتغيرة . سحقه نقاؤها واوقع به . صاح قائلا : اعرف ان

الذي يشفيني حي . ركع على ركبتيه واحس فجأة بنشوة جديدة تجتاحه فرغب في ان يموت بين يديها تماما مثلما رغب في ذلك عندما التقاها في الغابة ، فالموت يعطيه فرصة للحياة . فكر ، من المؤكد انها سوف تستقبله . ولما استغرق جيكونيو في نشوته استسلم لنوم عميق .

استيقظ في الصباح ووجد نفسه جائعا جدا . آلمته يده اليمنى التي تورمت عند الرسغ . لم يستطع ان يتذكر تماما ما حدث له في الليلة السابقة . عرف فقط انه استيقظ من حلم كاذب كان خلاله يسير ويسير منذ ان شنق غاتو نفسه . كانت الرغبة في رؤية مومبي ماتزال تتملكه . كان رأسه صافيا وعرف مااراد ان يفعله . دارت الإشاعة بين الجميع . تجمع المعتقلون عند جدران مجمعاتهم وراقبوه بعداء بارد . ركز جيكونيو ذهنه في مومبي لانه خشي ان تضعف ركبتاه تحت تأثير نظرات المعتقلين الصامتة . واصل السير الى مكتب التحقيقات . كان صوت قدميه على الرصيف الإسمنتي عاليا وسط صمت الاخرين . اغلق الباب خلفه . عاد المعتقلون الاخرون الى غرفهم بانتظار رحلة اخرى الى مقلع الحجر .

حين ترك جيكونيو الطريق العام واتخذ ممراً جانبياً عبر الحقول سمع وقع قدميه على الرصيف الإسمنتي قبل اربع سنوات . تابعته الخطوات طوال الطريق . وعلى الرغم من اعتراف جيكونيو ، الا ان سراحه لم يطلق فورا لانه رفض ان يعطي اي اسم في التنظيم . تساءل اذا كانت الخطوات ستظل ترافقه وقد خشي فجأة ان يصادف شخصا ممن كان يعرفهم في الايام الماضية . لم يشعر بانه

منتصر او بطل . لم تكن الاوراق الخضر له . ثم ان جيكونيو لم يكن يريدها . كان يريد مومبي ويمسك بخيط الحياة الذي تركه .

في الشوارع كان الاطفال العرايا ونصف العرايا يلعبون برمي التراب على بعضهم . دخل التراب عيني جيكونيو وحنجرته . فرك عينيه بظهر يده فانسكبت الدموع منهما . بدأ يسعل بشدة . اوقف بعض النسوة اللواتي لايعرفهن وسألهن عن مسكن وانغاري . حدق بعضهن اليه بعداوة مكشوفة بينما هزت الاخريات رؤوسهن بعدم اكتراث مما جعله نافد الصبر غاضبا . اخيرا اشار احد الاطفال الى طريق الكوخ . خلال سيره تساءل جيكونيو ماذا سيفعل عندما يقف وجها لوجه امام مومبي . بعد الإثارة جاء الشك . ماذا لوكانت مومبي عند النهر او في احد المخازن في اثناء وصوله . هل يستطيع ان ينتظر ساعة اخرى او ساعتين قبل ان يراها ؟

في الحقيقة ، التقاها عند الباب . نظرت اليه لحظة او اثنتين ثم اطلقت صرخة غير ارادية . كان فمها مفتوحا حين انسحبت خطوة الى الوراء كأنها تفسح له طريق الدخول . رأى جيكونيو طفلا صغيرا تحمله على ظهرها . تجمدت يداه المرفوعتان في الهواء ثم نزلتا ببطء الى جانبيه . أحس بحنجرته تتيبس .

بدأت مومبي الحديث : «أحقاً هذا انت ؟»

همس : «نعم . من كنت تتوقعين ؟» ارتفع دخان الكوخ امام وجهه فتراجع الى الوراء موسعا المسافة بينه وبين مومبي . بدأ الطفل يبكي . القت عليه مومبي نظرة حانية سريعة ، ثم عادت بنظرها الى زوجها .

سألت ثانية : «انت ؟ عرفت انك ستعود ، ولكني لم اتوقع عودتك بهذه السرعة» .

ردد جيكونيو كلماتها : «بهذه السرعة ؟» وفكر في السنوات الست . لاشيء يبدو حقيقيا . لم يستطع ان يفهم مغزى ما قالت .

حين سمعت وانغاري الاصوات خرجت واندفعت نحو جيكونيو صائحة : «ولدي» . التف ذراعاها حول خصره وسالت الدموع على وجهها . أحس جيكونيو بتصلب جسده حين احتضنته أمه . عرف دون ان يقول له احد ان الطفل المشدود الى ظهر مومبي هو من بذرة رجل اخر . لقد ذهبت مومبي الى الفراش مع رجال اخرين في اثناء غيابه . اندفعت الى قلبه كل سنوات الانتظار والآمال والخطوات على الرصيف لتسخر منه . فكر : اقتلها مع الطفل . تخلص من المأساة كلها . سحب نفسه من بين ذراعي أمه لينفذ ذلك في حرارة اللحظة .

لكنه بقي متسمراً في الارض . نظرت وانغاري الى مومبي التي دخلت الكوخ وسمع صوتها وهي تهدهد الطفل الباكي .

دعته وانغاري : «ادخل الى الكوخ» . سمح جيكونيو لنفسه ان يقاد الى داخل الكوخ المليء بالدخان كأن ارادة الفعل قد تعطلت لديه . في الداخل كانت مومبي تحمل الطفل على ذراعيها وترضعه من صدرها . جلس جيكونيو على كرسي . كانت تلقي عليه نظراتها بين الحين والاخر . فكر : انها تسخر مني .

كانت عيناه تنتقلان من وانغاري الى مومبي الى الكوخ حواليه محاولا ان يلتقط شيئا يمتص اهتمامه . ان الصدمة السريعة المرة

التي تلقاها قبل قليل بدأت تتحول الى هم ثقيل . لا لون للحياة . انها صفحة بيضاء واحدة لانهاية لها . وهي مسطحة جدا . لم تكن هناك وديان ولا جداول ولااشجار ـ لاشيء . من الذي قال إن الحياة خيط يمكن للمرء ان يستمر في حياكته حسب النموذج الذي يختاره ؟ كان يدرك انه متعب . وقد تشكلت الكلمات في منطقة خفية بعيدة من ذهنه . حرك جيكونيو شفتيه آليا وتدفقت الكلمات واضحة بلا احاسيس سوى الفضول الذي لم يرده .

ـ «طفل من ؟»

نظرت مومبي اليه ثم حولّت نظرتها الى الجدار المقابل . أحست وانغاري بألم الإبن وتعاسة الإبنة . بحثت في قلبها عن الكلمات المهدئة . تعرف ان من الصعب اطلاع الانسان على الحقيقة . استلهمت قوة الأم ورقتها حين كشفت عن الحقيقة قائلة :

ـ «طفل كرانجا» انتظرت بهدوء ان يحدث شيء ما . لقد هيأت نفسها لسماع أنين او صرخة اومحاولة قتل مومبي . لكنها لم تتوقع هذا الصمت الحيواني . سأل ـ بالصوت البعيد نفسه وهو يكشف عن حيرته اكثر من ألمه :

«كرانجا ، صديقي ؟» قالت : «نعم . مثل هذه الاشياء تحدث دائما» وانتظرت .

نام الطفل على فخذي أمه . انكبت مومبي الى الامام ووضعت يدها لتسند رأس الطفل برقة وثبات . انحنت ذراعها اليمنى عند المرفق واستقرت على ركبتها بينما ضغط أصبعها الصغير على شفتها السفلى ليكشف عن اسنانها البيضاء كالحليب .

لم يتحرك جيكونيو . جلس متكئا الى الخلف وعيناه تتحركان دون ان تسجلا شيئا . لم تعد تزعجه حتى فكرة ذهاب مومبي كل ليلة الى رجال آخرين طوال ست سنوات . لم يشعر جيكونيو بالجرح كأنه مخدر ، ولم يعرف ما هو سبب ذلك الانهاك الذي اصابه .

قال : «انا تعب ياأماه . لقد سرت مسافة طويلة واريد ان انام» .
لم تفهم وانغاري ، لكن مومبي بكت .

لم يستطع النوم . استلقى جيكونيو على ظهره وحدق الى الظلام . كان يحس كل لحظة بالانفاس الثقيلة للمرأتين . انتظر هذا اليوم ست سنوات . اشتاق اليه خلال ست سنوات قضاها في سبعة معسكرات للاعتقال وهو يشعر باستمرار ان معنى الحياة يكمن في عودته النهائية الى مومبي . لم يكن يهمه اي شيء اخر . المعسكرات والجبال والوديان وكل شيء يمكن ان يمحى من وجه الارض وسيراقب ذلك دون اكتراث اذا عرف انه في النهاية سيعود الى المرأة التي خلفها وراءه . لم يكن يظن ابدا انها ستكون عودة الى الصمت . هل يمكن اجتياز وادي الصمت بينه وبين تلك المرأة . ولأي غرض يحقق ذلك مادام سيصل الجانب الاخر ليجد امراة لم تنتظر ان يختفي في زاوية الشارع لترتمي في احضان رجل اخر ؟ كلا . كان ذلك الصمت ابديا . اعتاد فيما مضى ان يجري حوارا صامتا مع وانغاري . اذا نظر الى عينيها عرف مخاوفها وقلقها وطموحها بالنسبة اليه ، وعرف ان كانت ذاهبة الى السوق او النهر او الحقل . كانت تتحرك داخل الكوخ القديم بكبرياء واعتزاز الأم التي وثق بها . حين جاءت مومبي سارت على النهج نفسه . وقد

جلبت معها حيوية جديدة الى حياة الكوخ . عندما كانت مومبي تستلقي في الفراش وتضع رأسها على صدره او تتنفس بقربه كان يفهم ان لاشيء يعادل لمسة المرأة . ماالذي كمن وراء تلك اللمسة وذلك الاتحاد الذي اعطى الحياة معنى ووضوحا ؟ . لم تكن الثروة والسلطة مهمتين ان لم تغنيا ذلك الاتحاد الصامت الذي تتفتح منه الاشياء على الشمس . اما الصمت الذي عاد اليه فانه ميت . استلقى في فراشه وتابع تلك الصور اللانهائية التي دارت برأسه الساخن . ربما يساعد ضوء النهار على رؤية الطريق .

لكن الشمس لم تجلب له الراحة . منذ الصباح الباكر انطلق الطفل يبكي ليلفت اليه الانظار . أشعلت مومبي النار ووضعت الطفل على صدرها . استمر الطفل في البكاء ليحطم اعصاب جيكونيو . فكر مع نفسه : اضرب الطفل بالارض ، أخرس هذا الشيء القذر . الا انه لم يحاول النهوض من فراشه . لم يرد ان يرى ملامح وجه مومبي . مع ذلك ، كم عذبه ذلك الوجه ايام الاعتقال ؟ انكمش داخل نفسه من التفكير في ان تمرر مومبي يدها على جسمه . توقف الطفل عن البكاء بعد ان رضع ثدي امه . ربما لم يكن من الصحيح قتل الطفل . ان الوضع الذي خلق الطفل هو الذي وخز عقله . لقد سارت مومبي الى فراش رجل اخر . ولم يحدث ذلك مرة واحدة انما كان يحدث مدة ست سنوات . لقد خانت العهد والسر اللذين يربطانهما . او ربما لم تكن هناك رابطة بينهما . لاشيء يمكن ان ينمو بين شخصين . يعيش الانسان وحيدا ويذهب الى القبر وحيدا ، مثل غاتو . فرح جيكونيو بتلك الفكرة التي رآها كشفا

فظيعا . ان يعيش ويموت وحيدا ، تلك هي الحقيقة الكبرى .
خرج من الكوخ المليء بالدخان الكثيف وتمشى في قرية ثاباي الجديدة حيث تؤدي الشوارع الى بعضها . تطاير التراب في اعقابه . كاد الهواء نفسه ان يخنقه . رأى ثاباي معسكرا اخر للاعتقال . هل سيخرج منها ؟ ولكن الى اين ؟ تبع الطريق الذي قاده الى رونجي . انتقلت الحوانيت الهندية الى منطقة جديدة . كانت البنايات العالية مشيدة بالحجر . اما الاضواء الكهربائية والشوارع المبلطة فقد اظهرت المكان كأنه جزء من مدينة كبيرة . لكن رائحة البالوعات فاحت في الجو لانها لم تنظف عاما كاملا . تابع طريقه الى ان وصل الحوانيت الافريقية . كانت كلها مغلقة . تجمعت الحشائش الطويلة والاعشاب البرية حول جدران البنايات القديمة وغطت الارض التي كانت يوما ما مكانا للسوق . كان لمعظم البنايات جدران محنية ذات ثقوب مفتوحة كبيرة وابواب محطمة أحسها تحدق اليه . بدت كأطلال حضارة قديمة . عند باب احدى البنايات التقط جيكونيو قطعة خشب مكسورة . كانت الحروف الباهتة عليها قد فقدت اطرافها . ولكنه امعن النظر فيها واستطاع ان يقرأ كلمة «فندق» . وجد في الداخل كومة تراب وقطع اوانٍ واقداح مهشمة منتشرة هنا وهناك . ضرب الجدار بالحافة المدببة لقطعة الخشب المكسورة فتساقط السمنت والتراب لان الجدار كان اجوف . بدا كأن الجدار يوشك ان يسقط . اندفع جيكونيو الى الخارج خوفا من البناية ومن رونجي التي غزتها الاشباح . ولم يتوقف عن الجري حتى وصل الحقول . علم مؤخرا ان الحوانيت

الافريقية اغلقت عنوة كعقاب جماعي لسكان القرى . سار جيكونيو في ممرات الحقول التي نظمت بعناية بعد الدمج . الا ان جيكونيو اغمض عينيه عن اية تغييرات اخرى . كان يفزع ويرتجف اذا مسه اي شيء سواء ورقة عشب او ساق حشيش طري . عند المرتفع وقف والقى نظرة اخرى على القرية الجديدة ـ الاكواخ والاعشاب والناس محشورون معا . الدخان الازرق الصاعد من الاكواخ الجديدة ضاع في شمس النهار المشرقة . لم يكن المنظر كذلك في الليلة الماضية . كان الدخان يتصاعد من سقوف الاكواخ ويتجمع في شكل قبة ساكنة فوق القرية ، وخيوط الشمس الحمراء انتشرت من المركز وتكسرت ظلالا مختلفة صفراء وبنية عند الحافات ورمادية داكنة في المدى البعيد . لاشيء اثار اهتمامه في القرية الجديدة . لم تستطع الاكواخ ان تجعل قلبه يخفق كما حدث في الليلة الماضية . هل هناك مكان اخر يذهب اليه ؟ هل يمكن ان يذهب الى بلد اخر ؟ ان الخطوات على الرصيف وبكاء الطفل وصورة الأم التي تهدهد الطفل ستطارده دائما .

تذكر جيكونيو فجأة ان عليه ان يخبر المختار بوصوله الى القرية . لم تكن حالة الطوارىء قد انتهت . ما زال الرجل الابيض يحكم بيد من حديد . لم يواجه صعوبة في العثور على دار المختار . كان ذلك في مجمع مركز ثاباي للحرس المحلي . وعلى الجانب الاخر من المركز يمتد الطريق المعبد من ناكورو الى المدينة الكبيرة .

وقف بباب المختار وبدأت الارض تدور تحته . حدق جيكونيو الى وجه المختار العبوس . كان القدر يسخر منه . لايمكن ان يحصل

ذلك .

قال كرانجا : «تفضل ، ادخل» . هز الواقع جيكونيو بمرارة . كرانجا ! مختار ! جلس كرانجا باعتدال خلف المنضدة . كان يقطب حاجبيه كمظهر للقسوة التي يضفيها على وجهه .

كرر كرانجا قوله بصوت مرتفع اكثر مما ينبغي : «قلت لك ادخل» .

دخل جيكونيو وهو يجر قدميه والافكار تتضارب في رأسه . جلس على كرسي وعض على شفته السفلى كي يوازن المرارة الحادة التي أحس بها . وفي الوقت نفسه زحفت الى رأسه وقلبه هواجس تقول : «ان الله قاس . لماذا لم يجنبه هذا الاذلال ؟» لاحظ ان كرانجا ، صديقه القديم ، يراقب ردود فعله بدقة ، كرانجا الذي تحدث اليه ببرود كأنه لم يعرفه ، وكأن جيكونيو مجرم .

قال كرانجا : «دعني ارى» وسحب ورقة مطبوعة معلقة على الجدار ، ثم واصل «انت ـ أ ـ جيكونيو ابن ـ أ ـ واروهيو» وقد وضع اشارة ما على الورقة . راقبه جيكونيو ورأسه محني كرأس رجل عجوز ، وقد بدأ يعض بشدة على شفته السفلى .

«اصغ جيدا . لقد عدت الآن الى الحياة الطبيعية في القرية . الناس هنا يطيعون القانون . أتسمع ؟ الاجتماعات ممنوعة ليلاً . الحديث عن غاندي والوحدة وما شاكل ذلك ممنوع . ان الرجل الابيض سيبقى هنا» .

نهض جيكونيو على نحو غير متوقع . ودون ان يدري ماالذي يفعله انطلق نحو الباب . تركه كرانجا يصل الباب ثم صاح به :

«توقف» . توقف جيكونيو كأن الصوت اصابه بالشلل ، ثم استدار وانتظر .

ـ «الى اين انت ذاهب ؟»

ـ «اليك» . قال ذلك واندفع الى المنضدة ناشرا يديه ليطبق بهما على رقبة كرانجا . عند المنضدة توقف واطلق صرخة خوف . كان كرانجا يصوب مسدسه الى قلب جيكونيو .

ـ «اجلس ياجيكونيو» .

عاد جيكونيو الى الجلوس على الكرسي وجسده يرتجف بشكل ملحوظ . كل شيء يمر كالحلم . بصق على الارض وهو يستجمع كل مايستطيع من احتقار في تلك العملية .

قال كرانجا بانتصار واضح : «يمكنك ان تبصق على الارض» . اتكأ على كرسيه ووضع المسدس فوق المنضدة ، «ولكن دعني اقول لك كصديق انك يجب ان تتعلم درساً . هل ترى برج المراقبة في الخارج ؟ ان كلمة مني عما فعلته الآن ستجعل البرج مقرك لأسبوع أو أسبوعين» .

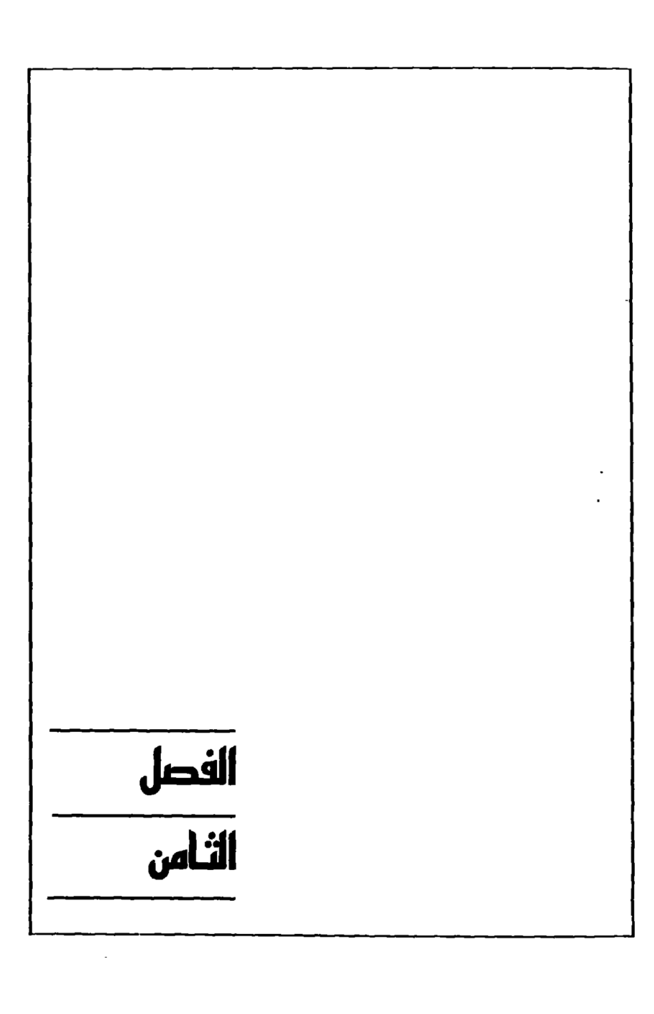
جرى كل شيء بسرعة حتى ان جيكونيو لم يستطع ان يميز المشاعر والافكار التي دارت برأسه . عرف فقط ان الرجل الذي تعهد معه بان يقاتل الرجل الابيض كان يتحدث عن قوة الرجل الابيض ، وان الرجل الذي اعتاد ان يعزف معه على القيثار ويزوره في الدكان لتبادل الاسرار كان يصرخ بوجهه .

حالما خرج من بيت المختار تذكر ان كرانجا هو الرجل الذي نام مع مومبي ، وحملت منه طفلاً في رحمها تسعة أشهر . بطريقة ما لم

يبق اسم كرانجا في دماغ جيكونيو الساخن طوال الليلة الماضية ونهار ذلك اليوم . كان يفكر فقط في ان مومبي ذهبت الى سرير رجل اخر . لم يضع كرانجا في دائرة عذاباته الاخرى التي تحتل منطقة مختلفة من ذهنه حتى عندما كان في مكتبه . اما الان فان صورة مومبي ، وهي تطلق أنين اللذة بجسمها العاري تحت جسد كرانجا الثقيل ، لم تعد تفارقه . اعاد خلق المشهد بتفاصيله كافة : صرير السرير واصابع كرانجا التي تتحسس جسد مومبي وامتزاج انفاسهما الثقيلة ، و ... آه ، ياإلهي . التنهدات . تلك التنهدات ! ثم اشاح بوجهه طويلا واتجه الى شجرة صغيرة في الطريق ليتكىء عليها . لكن الصور استمرت تهرش رأسه .

كرانجا فوق مومبي . ولكي يعذب نفسه اكثر خاض في تفاصيل لاعلاقة لها بالامر . فكر على سبيل المثال فيما اذا كانت مومبي تتأوه في اثناء العملية . وقبل أن يتم المشهد تأوه واطلق صرخة مبحوحة . ترك الشجرة وبدأ يجري باتجاه كوخ أمه . ان المرأة التي تأوهت تحت جسد كرانجا لايمكن ان تعيش . كان العابرون ينظرون اليه ثم يفسحون له الطريق بسرعة . ظل جيكونيو يجري . لابد ان يقتلها . سيخنق مومبي . كانت المسافة طويلة جدا . سبقته تصوراته . رأى مومبي تطلب الرحمة واللعاب يسيل من فمها وعيناها جاحظتان ... لكن القدر وقف في طريقه . كان باب الكوخ مقفلا . ربما اقفلتا الباب على نفسيهما من الداخل . ألقى بجسده على الباب وهو يصرخ : «افتحن الباب ، افتحن الباب ، أنتن يامن تزايدن على اجسادكن في السوق» . لم يفتح الباب . استجمع قواه والقى بجسده على الباب

عدة مرات حتى انفتح فجأة . سقط جيكونيو على الارض وارتطم
رأسه بصخرة الموقد . سال الزبد على جانبي فمه . تفوه النجار
لحظات بهمهمات غير مفهومة خرجت من بين الزبد . انتهت بتأوه
طويل : «ياالهي . اوه ، اوه . ياالهي ، ياالهي» .



الفصل الثامن

لم يستطع جيكونيو ان يتذكر تفاصيل ما حدث خلال الايام الاولى لعودته الى البيت . ظل كل شيء كالحلم المُضب . وجد صعوبة في اعطاء موغو تفاصيل مترابطة عما حدث . عاد مرة اخرى للبحث عن الكلمات ، وكان احيانا يرفع يديه في الهواء بيأس .

ـ «على اية حال ، كان يجب أن أجن . اظن انه لاشيء اكثر ايلاما من ان تجد صديقا ، او رجلا تثق به دائما ، قد خانك . عندما استيقظت وجدت نفسي في السرير مغطى ببطانية . كان مصباح الزيت ، الذي يشبه هذا الذي هنا ، ينشر ضوءاً خافتا مثل شيء مريض . هل تدرك ما اعني ؟ تذكرك حتى رائحة الاشياء بمشهد المستشفى . كانت امي تجلس قرب السرير وكانت مومبي تقف على بعد بضعة اقدام . لم أستطع رؤية وجهها بوضوح واظن انها كانت تبكي . خفق شيء ما في قلبي لحظة ، او ربما تقول دقيقة . ان مومبي ، تلك المرأة التي اعرفها ، لايمكن ان تسمح لكرانجا بمضاجعتها . كانت هي نفسها كما تركتها . ثم رأيت الطفل وعرفت ان ما حسبته مستحيلا قد حدث فعلا . بدأت اسناني تصطك وارتجف جسدي كله كأنني اصبت بنوبة حمى او ملاريا . ومع ذلك

فقدت كل رغبة في قتلها . لكني اتخذت قراري اذاك : لن اتحدث عن الطفل واواصل حياتي كأن شيئا لم يحدث . ولا انام مع مومبي ابدا . ماالذي بقي لي غير ان انصرف الى العمل ، الى العمل الشاق

بحث جيكونيو في وجه موغو . لم يستنتج شيئا . ازعجه الصمت . بدا كأن الأمر اعادة لمشهد مألوف .

قال ثانية : «نعم . انصرفت بكل جوارحي الى العمل» . مازال موغو صامتا . احس جيكونيو بخيبة امل . ازاح عن نفسه الثقل ، لكن احساسا اخر بالذنب كان يزحف نحوه . لابد من ان موغو يكون رأيا فيه . احس جيكونيو بعدم الارتياح الذي يحسه رجل امام القس . ساورته فجأة رغبة في الهروب بعيدا عن موغو ليبكي عاره في الظلام .

قال : «لابد من الذهاب» ونهض على قدميه . خرج في الليل . اخافته دقات قلبه . كان يخشى ان يواجه مومبي وان تؤرقه الخطوات على الرصيف . احاط به الظلام من كل جانب وهو يخب في سيره الى البيت الذي لم يكن بيتا . ان نقاء موغو وعدم اخلاص مومبي وكل شيء تآمر على رجولته وعلى ايمانه بنفسه واكد عاره كأول رجل ينكث العهد في معسكر يالا .

عندما ذهب جيكونيو اندفع موغو الى الباب وفتحه على مصراعيه وهو يصيح : عد ياجيكونيو . ثم انتظر قليلا . وحين لم يتلق جوابا عاد ليجلس ويفكر . انتقل ذهنه من حكاية الى اخرى . اراد منه جيكونيو ان يقول شيئا . كان يجب ان يقول شيئا . حاول مرتين ان يرطب شفتيه وينظف بلعومه استعدادا للكلام . لكن فمه بقي جافا .

رفضت الافكار ان تتشكل في كلمات . ماالذي كان يمكن ان يقوله ؟ ان غضب جيكونيو من خيانة كرانجا وعدم تسامحه مع مومبي جعلاه ينكمش . كلما تحدث جيكونيو عن كرانجا ومومبي احس موغو باستثارة حادة كأن حامضا كيمياويا يأكل في قرحةٍ داخل معدته . ارتجف عندما تذكر ذلك وانتابه القلق . نهض وبدأ يسير في الغرفة جيئة وذهابا . لنفرض اني قلت له .. لنفرض اني فجأة قلت له .. كل شيء سينتهي ويزول ، المعرفة والقيد والمخاوف والآمال . كان يمكن ان اخبره .. او ربما .. ربما .. او ان ذلك هو السبب الذي جعله يخبرني بقصته . عند هذه الفكرة توقف عن السير واستلقى على سريره . لايذهب الانسان الى غريب ويفتح له قلبه . فهمت كل شيء ، كل شيء . تظاهر بأنه لاينظر الي ، لكنه كان يسترق النظر الي دائما . لنر اذا كنت خائفا . لنر اذا .. كلا . استعاد منظر العذاب على وجه جيكونيو . كان صوته مخلصا وواثقا .

خرج موغو من البيت . ربما يساعد الهواء البارد على تهدئة اعصابه . ان افضل شيء هو ان يتناول قدحا من الشاي في حوانيت كابوي . في اثناء سيره في الليل برقت في ذهنه مشاهد عديدة . كان يخاف ويرتعب من كل مشهد . ومن الغريب ان ينتهي بمقولة الامس من الانجيل : انه ينتصف لفقراء الناس وينقذ اطفال المحتاجين ، وسيمزق الظالم اربا . لامست الكلمات شيئا ما في نفسه واستثارت ذكرى .

كانت الذكرى تعود الى يوم في مايس عام ١٩٥٥ . عاشت كينيا عامين في حالة طوارىء . ذهب موغو الى حقله الذي لم يزد على قطعة

صغيرة من الارض قرب محطة رونجي . في تلك الفترة لم يتعرض الى ضوابط الطوارىء وازعاجاتها . خلف المحطة امتد الطريق المعبد عبر المستوطنة الى نيروبي والى مومباسا ثم الى البحر . لم يسافر موغو ابعد من رونجي . لم ير المستوطنة ولا المدينة الكبيرة . عندما كان طفلا رأى مرة او مرتين مجموعة من الرجال البيض يدخنون ويتحدثون ويضحكون بينما كان السود ينقلون اكياس الذرة والمحاصيل الاخرى من سيارات الشحن الى عربات القطار . في السنوات التالية ارتبطت في ذهنه صورة الرجل الابيض (حتى جون تومبسون) برجل يدخن وقطار ينفث الدخان . في ذلك اليوم ، لبس قميصه المفتوح الى الوسط الذي يظهر ظهره عندما ينحني على المحصول . كانت حرارة الشمس تلذعه بارتياح ، وجعل ضوء الشمس على جسده المتصبب عرقا جلده الاسود لامعا . تفتحت نباتات الذرة والبطاطا والفاصوليا ونشرت اوراقها للشمس . استعمل موغو مسحاة صغيرة لقلب التربة في الاماكن غير المزروعة والاماكن التي تكثر فيها الاعشاب الضاره . واستعمل اصابعه لنبش التربة حول سيقان المزروعات . عندما حرك سيقان النباتات سقطت قطرات الماء من الاوراق . كان الهواء طرياً وصافياً ولاذعاً ، والحقول المغطاة بالاوراق الخضر الكثيفة التي اخفت الارض السوداء بدت رائعة الجمال عند النظر اليها . ارتفعت حرارة الشمس وتبخر الندى من الاوراق . تدلت السيقان الرقيقة باوراقها وشاب الخضرة لون رمادي خفيف . بدت الحقول تعبى . عندها استلقى موغو على ظهره تحت شجرة مواريكي وتمتع بحس القناعة

الذي يساور الانسان عند استراحة الظهيرة بعد عمل شاق . سمع صوتا يقول ان شيئا ما سيحدث له . كان دائما يسمع اصواتا عندما يستلقي على ظهره للاستراحة . وحين أغلق عينيه أحس ، وكاد يلمس ، شيئا غامضا ، لكنه جميل جدا . ترك الصوت الرقيق يأخذه بعيداً الى الماضي . كان موسى وحيداً أيضاً ويرعى الغنم لجيثرو ـ زوج امه . وقد قاد القطيع الى الجهة الاخرى من الصحراء حتى وصل جبل الرب . ظهر له ملاك الرب في صورة شعلة نار بين الاعشاب . ناداه الرب : ياموسى ، ياموسى . فصاح موغو : انني هنا ياالهي .

كلما تذكر ذلك اليوم عده قمة الاحداث في حياته . بعد اسبوع وجد ضابط المنطقة روبسون مقتولا ودخل كيهيكا حياته .

كان موغو منفعلا جدا حين وصل المقهى في كابوي . كان اسم المقهى مامبولبو . غير ان المالك غير الاسم بعد مجيء الحكومة المحلية وجعله : فندق الحرية . وتحت الاسم وضع كلمتي : مشرب ومطعم . كان بعض الرجال يصخبون ويغنون في احدى الزوايا ، وانتشر الاخرون عند المناضد ذات الصرير . ذهب موغو الى زاوية منعزلة وجلس هناك . كان رأسه يدور ويدور وهو في حالة انتشاء . ان الارض التي سار عليها والناس في المشرب لم يكونوا حقيقيين . سيختفون بعد دقيقة فقط . ارتفع فجأة صوت وسط ضوضاء السكارى . ساد الصمت . انسحب غيثوا من مجموعته واتجه نحو موغو . وقف امامه باحترام . ثم حياه ورفع له قبعته قائلا :

ـ «أيها المختار ، انا أحبيك» ونفث غيثوا انفاسا ممزوجة بالخمر

من بين اسنانه . ثم تحولت هيأته الى عبد ذليل .

ـ «اذكرنا ايها المختار . اذكرنا . هل ترى هذه الخرق الممزقة ؟ هل ترى هذا القمل الذي يزحف الى كتفي ؟ أقسم لك بحياة أمي العجوز .. اسأل اي شخص هنا» رفع اصبعه كمن يقسم وتلفت حواليه كانه يبحث عن شهود . غادر بعض الناس اماكنهم وزحفوا قرب الرجلين . خاف موغو وارتعب من عدم واقعية المشهد .

ـ «كنت سائقا معروفا بين كيسومو وومومباسا . ذلك ماكنت» بدأ يتحدث متفاخرا ويدق على صدره متباهيا «لم تكن النقود تعني شيئا بالنسبة الي . حاولت شراء مزرعة في كيرارابون قرب نغونغ . كنت امتلك دواجن في البيت . الكثير من الدواجن . آه ، ليتك رأيت البيض . ايها الساقي ، هات لنا خمراً هنا . هات خمراً للمختار . قبل حالة الطوارىء كان بمستطاعي شراء الفندق كله» .

وعلى الرغم من ان الناس اعتادوا على طريقة غيثوا في التباهي بنفسه ، الا ان اي واحد منهم لم يضحك . لقد اصغوا اليه بجدية وكانوا يهزون رؤوسهم تعاطفا مع الدموع التي صاحبت صوت غيثوا . قال موغو انه لايريد ان يشرب شيئا . بدأ الناس يتحدثون عن كينيا ، بلاد الصراعات . قال بعضهم : حطمتنا حالة الطوارىء .

ـ «اما انا ، فعندما جاءت حرب الاستقلال عرفت ان علي المساهمة في الكفاح ، لم أتردد في الامر . أيها الجنرال ، أيها الجنرال ، أين الجنرال ؟»

استدارت العيون كلها للبحث عن الجنرال . كان يشرب بهدوء

قرب المنصة وينظر بدهشة الى المشهد . ما زال غيثوا يتحدث . اخبرهم عن اعماله خلال حالة الطوارىء وكيف انه زود كيهيكا والمناضلين الاخرين بالرصاص . احب الناس القصص المثيرة . نسي حتى اولئك السكارى مشروباتهم واستسلموا للاجواء البطولية لقصص غيثوا .

- «وفي يوم من الايام اطلق الرجل الابيض الرصاص علي . وييبي . اصابتني الرصاصة هنا» واشار الى رجله المقطوعة . تراجع موغو من منظر بقايا الساق المتدلية . ومع ذلك ، فانه ، مثل اي شخص اخر ، تعاطف مع الرجل الأجدر منه بالثناء .

- «لقد نسيتنا الحكومة . قاتلنا من اجل الحرية ولكننا الان !» مرة ثانية ، امتزج صوته بالدموع قبل ان يتحول الى صوت متضرع :

- «وهكذا ايها المختار ، اذكرني ، اذكر الفقراء . اذكر غيثوا . ايها الساقي ، ايها الساقي ، هات لنا بيره هنا . سيدفع المختار الثمن . المختار لايبخل بالشراب على غيثوا . على غيثوا الفقير»

بحث موغو في جيبه واخرج شلنين . كان طوال الوقت يحس بنظرات الجنرال اليه . فجأة نهض على قدميه وشق طريقه خلال الازدحام الى الخارج . وصله صوت غيثوا الى الشارع : «اشكرك ايها المختار شكرا» .

قبل ان يعبر موغو الطريق الى القرية سمع وقع اقدام تركض خلفه . ثم لحق به الرجل ليسير الى جانبه . انه الجنرال .

- «رجل غريب ، أليس كذلك ؟»

ـ «من ؟»

ـ «غيثوا»

كان موغو يرتجف . ازدحمت الافكار في رأسه .

قال الجنرال : «انا لست قادما لمرافقتك . سأراك غدا» ثم توارى بالسرعة نفسها التي جاء بها . بقي موغو وحيدا في الظلام . أحس انه يستطيع احتضان الليل كله واحتواء العالم بين كفيه . كان يسير على حاشية الوحي . لقد أوصله جيكونيو وغيثوا الى هذه المرحلة . تذكر الكلمات : انه سينقذ اطفال المحتاجين . لابد من ان يكون هو . انه هو الذي يعيش من اجل انقاذ اناس مثل غيثوا والمرأة العجوز وكل من يعاني . لماذا لايأخذ المهمة على عاتقه ؟ نعم . سيتحدث في احتفالات الاستقلال . سيقود الناس وسيدفن ماضيه في امتنانهم . لايحتاج اي شخص ابدا ان يعرف عن كيهيكا . ان الذين اختارهم الله دفن ماضيهم واصبحوا انقياء بفضل اعمالهم العظيمة التي انقذت الكثيرين . هكذا كان الامر في زمن يعقوب واسحق ، وهكذا كان الامر في زمن موسى .

عندما نام تلك الليلة حلم انه في ريرا . وضع المعتقلون في صف الى الجدار وهم عراة الى وسطهم . كان بينهم جيكونيو وغيثوا . ومن الجهة الاخرى جاء جون تومبسون يحمل رشاشة موجهة الى الرجال المرصوفين على الجدار . كان يريد اطلاق النار عليهم اذا لم يخبره عن كيهيكا . هتف غيثوا فجأة : انقذنا ياموغو . وصرخ الاخرون بعده : انقذنا ياموغو . ارتفعت الاصوات كالرعد : انقذنا ياموغو . وانضم تومبسون الى الرجال المحكومين وكانت صرخته اعلى من

الاخرين : انقذنا ياموغو . كيف يمكن ان يرفض تلك الصرخة المنظمة . انا هنا ، ياالهي . أنا آتٍ ، آتٍ . آتٍ على غيمة الرعد .
بكى الرجال وصاحوا بصوت واحد : آمين .

الفصل التاسع

سيبحث العلماء بلاشك في الايام العصيبة التي عاناها الشعب الكيني . وربما يختصرون درس التاريخ في جملة . لنسألهم ، هل ان حادثة ريرا لفتت انظار العالم ؟ كان هناك الكثير من المعسكرات الكبيرة منتشرة في انحاء كينيا كافة من جزر ماندا في المحيط الهندي الى جزر ماغاتا في بحيرة فكتوريا .

عندما اعتقل موغو اخذ الى مركز شرطة تيغوني ، ثم الى معسكر اعتقال ثيكا الذي يعتقل فيه المناضلون في الغابة . كان هناك مناضلون من ايمبو وميرو ومواريغا . بقي موغو هناك ستة اشهر ، وحسب ان ذلك المكان هو مثواه الاخير . وفي صباح احد الايام الباردة سيق الجميع الى حافلات واقفة بانتظارهم دون سابق انذار واسرعوا الى محطة سكك الحديد . كانت نوافذ العربات التي نقلتهم الى مانياني مغطاة بالاسلاك الشائكة لمنع اية محاولة للهروب . انتظرهم الجنود في مانياني . حالما خرجوا من القطار نظموا في صفوف طويلة وايديهم فوق رؤوسهم . كان الجنود يضربونهم بالهراوات ويشجع بعضهم بعضاً : إضرب بقوة فالرجل الابيض هو الذي جاء بهم . كان معسكر مانياني يتكون من ثلاثة معسكرات

كبيرة أ ـ ب ـ حـ . وكان معسكر حـ الذي دفع اليه موغو مخصصا للسجناء الاصعب مراسا . ويتكون كل معسكر من مجمعات اصغر يحتوي كل منها على عشر قاعات . وقد ضمت احدى القاعات الكبيرة حوالي ست مئة معتقل .

بعد سلسلة من الفرز والتصفية ارسل موغو وبعض المعتقلين ، وهم مقيدو الايدي والارجل ، الى ريرا .

كان معسكر ريرا يقع في اقصى كينيا قرب الساحل حيث لاتسقط الامطار ولاينبت شيء سوى الرمل والصخور . ان المعتقلين الذين ارسلوا الى هناك هم الرجال الذين اقسموا ان لايتعاونوا مع الحكومة ما برح كينياتا في السجن . اولئك الذين رفضوا ان يجيبوا عن الاسئلة او يخضعوا لأوامر العمل .

وجد موغو ان الحالة هنا اسوأ منها في مانياني . كان الطعام قليلاً جداً .

لحم : ٨ أونسات في الاسبوع

طحين : ٧ أونسات في الاسبوع

قدر لموغو ان يرى جون تومبسون مرة اخرى هناك .

ان النجاح السريع الذي حققه تومبسون في يالا هو السبب في نقله مباشرة الى ريرا . جاء تومبسون باسلوب جديد الى ريرا . كانت الممارسات السائدة في ريرا رهيبة ، منها ان يدفن الرجل عاريا في الرمل الساخن وقد يترك هناك طوال الليل . أوقف تومبسون هذا الاسلوب في انتزاع الاعترافات . وبدلا منه القى محاضرات على مجموعات المعتقلين في ملذات البيت . ويستطيع المعتقلون ان يذهبوا

الى زوجاتهم واطفالهم حالما يعترفون . اضعف ذلك الاسلوب المقاومة في معسكرات اخرى . وكان تومبسون يأمل ان يكون له السحر نفسه هنا . في الاشهر الاولى من تسلمه المسؤولية تحسنت الاوضاع الصحية . كان المعتقلون الذين يصابون بالتيفوئيد يهملون حتى الموت ، اما الان فانهم ينقلون فورا الى المستشفى .

وعندما ظن تومبسون ان الثمار بدأت تنضج اخذ يرسل في طلب المعتقلين انفرادياً الى مكتبه . كانت نظريته التي تحولت عبر السنين الى مبدأ لحكم الافريقيين هي : إعمل ما هو غير متوقع . لكنه واجه هنا رجالاً مختلفين ، رجالاً يرفضون حتى ان يفتحوا افواههم ، رجالاً لايفعلون شيئا سوى التحديق في وجهه .

بعد مرور اسبوعين دفعته ضراوة الرجال الى مرحلة نفاد الصبر . ذهب الى البيت يوما وقال لمارجري : هؤلاء الرجال مرضى .

في الاسبوع الثالث توقع ان يرى شيئا مختلفا . اتكأ على كرسيه وانتظر ان ينادي الحراس الافارقة الرجل الاول . كان يجلس معه ضابطان اخران .

ـ «ماسمك ؟»

ـ «موغو» .

ـ «من اين جئت ؟»

ـ «ثاباي» .

أحس تومبسون بالارتياح لانه وجد شخصا يجيب عن اسئلته . كانت تلك بداية جيدة . اذا اعترف شخص واحد فسيتبعه اخرون . انه يعرف ثاباي ، فقد تولى منصب ضابط في رونجي مرتين . كانت

المرة الثانية عندما حل محل القتيل روبسون . وهكذا بدأ في اللحظات الاولى حديثاً ودياً عن ثاباي . عن خضرة المناظر الطبيعية وطيبة السكان . ثم استأنف الاستجواب .

ـ «كم عهداً قطعت على نفسك ؟»

ـ «لم اقطع عهداً»

نهض تومبسون على قدميه وبدأ يسير في الغرفة جيئة وذهابا . حدق فجأة الى وجه موغو . يبدو وجه الرجل اليفاً . لكن صعب عليه في ذلك الوقت ان يميز بين الوجوه السود . كانت كلها متشابهه كالأقنعة .

ـ «كم عهداً قطعت على نفسك ؟»

ـ «لم أقطع عهداً» .

صرخ وهو ينز عرقاً : «كاذب»

لم يكن موغو يبالي بمصيره . كان في حالة من اليأس التي يشعر فيها الانسان بعدم جدوى النضال . انت محكوم عليك بالموت ، فليأت السيف سريعا . همس احد الضابطين شيئا في اذن تومبسون . تمعن في وجه الرجل فترة قصيرة واشرق وجهه . اخرج موغو من الغرفة وانكب على سجله يتفحصه .

سارت الامور بعدئذ من سيء الى اسوأ . لم يتكلم المعتقلون . الا ان موغو فتح فمه ليقول ما قاله في كل عمليات الاستجواب السابقة . التصق به تومبسون كالجرادة .

كان يستجوبه يوميا لانه ، حسب رأيه ، الاكثر استعدادا للاستسلام . وقد اوقع به عدة عقوبات . بعض الاحيان يأمر

الحرس بان يجلدوه امام المعتقلين ، وفي فورات الغضب يلتقط السوط من الحراس ويمارس الجلد بنفسه . لو يصرخ موغو او يطلب الرحمة يكون تومبسون قد ارتاح . بدا له ان المعتقلين كلهم يحتقرونه ويسخرون منه لانه فشل في انتزاع صرخة من موغو .

بهذه الطريقة اكتسب موغو مركزا مرموقا بين المعتقلين . ليس هناك تآوهات بعد اليأس . شعور موغو بانه يستحق ذلك كله خدر احساسه بالألم . لكن المعتقلين نظروا الى عدم اكتراثه من زاوية اخرى . لقد شجعهم موقفه فتجمعوا وكتبوا طلبا جماعيا دونوا فيه شكاواهم . ومن بين اشياء عديدة طلبوا معاملتهم كسجناء سياسيين وليس كمجرمين ، كما يجب زيادة مخصصات الطعام . وما لم تتحقق مطالبهم فانهم سيضربون عن الطعام . وجلس المعتقلون جميعا في اليوم الثالث معلنين الاضراب فعلا .

كاد تومبسون ان يجن ، وكان يوشك ان يسحق اسنانه . ابعدوا الحشرات . اطلق عنان الضباط البيض والحراس ضد المعتقلين . ابعدوا الحشرات .

لكن الشيء الذي اشعل شرارة الموت الجماعي المعروف حاليا هو الشغب الذي حصل في اليوم الثالث من الاضراب . فعندما كان بعض الحراس يجلبون الطعام الى المعتقلين قذف حجر واصاب احد الحراس في رأسه . هرب الحراس وهم يصرخون : جريمة ! عصيان ! ضحك المعتقلون ورموهم باحجار اخرى .

ما حدث فيما بعد معروف في العالم . لقد جمع المعتقلون واقفلت عليهم القاعات . وبدأ التعذيب المشهور ليلاً ونهاراً . وقد مات احد

عشر رجلاً .

مرت كلّ هذه الاحداث بذهن موغو في اليوم التالي عندما كان ذاهبا الى بيت جيكونيو . لقد رأى يد القدر التي تقوده في اعجوبة خلاصه من الموت . لابد من انه انقذ ليساعد البؤساء مثل غيثوا من الفقر والتعاسة . انه ولد وحيداً من اجل انقاذ الاخرين . اثارته إمكانيات مركزه الجديد الكبيرة وحلقت به بعيدا . سيخبر جيكونيو بقراره لقيادة شعب ثاباي يوم احتفالات الإستقلال . وسيقود بعدئذ شعبه ، كمختار ، عبر الصحراء الى عالم جديد .

سمع موغو اغنية من الراديو . صوت المغنية حي وقوي ، لكن الاغنية انسابت بطيئة وحزينة متناقضة تماما مع ذلك الصباح المشرق . توقف برهة متردداً قرب السياج المنظم الذي يحيط بالبيت . كان البيت مسقفا بطبقات جديدة من صفائح الحديد وكانت الجدران الخارجية مصنوعة من الواح خشب الأرز . وقف هناك يصغي الى صوت مومبي بارتياح غير مصدق ان خلافاً يمكن ان يختبىء وراء السياج . غادرت وانغاري البيت تحمل إناءً كبيراً واتجهت الى بيت صغير حديث ايضا يقع في الزاوية البعيدة من المجمع . سار امام وانغاري صبي صغير حسبه موغو موضوع الخلاف ، فتألم دون سبب واضح لذلك المنظر .

استقبلته مومبي بابتسامة وقد اشرق وجهها كانها تتوقع حضوره . تذكر انه رأى الشابة التي قدمت له التعازي بموت عمته قبل عدة سنوات . بدا وجهها الان متعبا ومتصلبا . فكر في انها قد تكون قلقة في داخلها . انتبه الى جسمها الجميل واربكته عيناها

السوداوان العميقتان فخاف منها . قال :

ـ «جئت لرؤية جيكونيو . اليس هو في الداخل ؟» ورفض الكرسي الذي قدمته له .

ـ «انه يخرج الى العمل مبكراً جداً» كانت مومبي تسيطر على صوتها . غير ان موغو أحس بموجة الحزن تحت سطح كلماتها . استمرت قائلة : «ألاتجلس ؟ يجب أن تجلس . سأعد لك قدحا من الشاي فورا . سيكون جاهزا بعد دقيقة فقط» . اكتسب صوتها حيوية وحياة .

جلس غريزيا تحت تأثير حضورها القوي . امعن في النظر الى وجهها وفكر في انه لم يسبق ان ربط مومبي بكيهيكا كأخ وأخت . ان لحاجبيها الانحناء نفسه في حاجبيه . ومع ان انفها اصغر ، الا انه يشبه انفه .

ـ «كيف حال اخيك ؟ أقصد أخاك الأصغر . ان لك أخا صغيراً . أليس كذلك ؟»

وبدأ يدير الشاي في القدح ليخفي ارتباكه .

ـ «كاريوكي ؟» جلست على كرسي امامه .

ـ «نعم . هذا هو اسمه» .

ـ «لقد انهى المدرسة الثانوية قبل عامين كما تعلم . ثم ذهب للعمل في نيروبي موظفا في مصرف . قبل التحاقه بكلية ميكرير»

ـ «انها في اوغندا ، مملكة اوبوتا ؟»

ـ «نعم ، انه يذهب اليها بالقطار . يقول ان ذلك يستغرق الليل بطوله والنهار . لم أذهب ابدا في مثل هذه السفرة الطويلة بالقطار»

ضحكت بهدوء ، واشرقت عيناها بفكرة السفر . كان جسمها يعبر عن رغبة قوية في الحياة رغم المعاناة ، «ولكنه لن يأتي الى البيت في العطلة القادمة ، وهذا امر مؤسف . لن يرى احتفالات يوم الخميس»

لم يشارك موغو في الحديث عن الاحتفالات فانقطع الحديث فجأة . وحين عجز عن ايجاد موضوع اخر قال انه يريد الذهاب ونهض على قدميه . لكن مومبي ظلت جالسه ووجهها ثابت كأنها لم تسمعه . قالت :

ـ «أردت ان اراك . كنت في طريقي اليك» . وعلى الرغم من انها تكلمت همسا ، الا ان صوتها وصله كأمر ، فجلس وانتظر .

سألت فجأة : «ألا تحلم ابدأ ؟» طافت على شفتيها ابتسامة حزينة . افزع السؤال موغو . عاوده الخوف المرعب نفسه الذي استمر لحظات ثم تلاش .

ـ «نعم . بعض الاحيان . كل انسان يحلم»

ـ «لاأقصد الاحلام العادية التي تراها عندما تنام في الليل . عندما تكون شابا تجلس في يوم صحو وتنظر الى المستقبل فترى اشياء عظيمة . يخفق قلبك من الداخل لأنك تريد ان تعجل مسيرة الزمن . عند ذلك لن تمسك احزان الحياة . هل رأيت حلما كهذا ؟»

زاد صوتها من ارتجاف موغو . كانت تعيد خلق حلمه وتكسوه كلمات وانفاساً حية .

قال بغموض : «ربما ، احيانا»

لكنها تلقفت جوابه بسرعة ، واستمرت :

- «وتحقق الحلم . انت حلمت - نعم . اعرف انه يتحقق لبعض الناس . اعتقدت ان ارى الكثير من هذه الاحلام ، وكلها حقيقية» بحث صوتها وعيناها ووجهها في الماضي .

علق موغو تعليقا عاما : «ذلك يحدث ، يحدث مع الناس .. في مرحلة الشباب»

تابعت قائلة : «رأيت الحلم عندما تحدث أخي . حلق قلبي مع كلماته . حلمت بالتضحية لأنقاذ الكثير من الناس . وعلى الرغم من خوفي ، الا اني اردت ان يأتي ذلك اليوم . لم يمت الحلم حتى بعد زواجي . اردت ان اجعل زوجي سعيدا ، نعم ، ولكني هيأت نفسي للوقوف الى جانبه عندما تحين الساعة . كنت ساجهزه بالسهام . واذا تعرض للخطر وسقط جريحا يكون قد سقط بين يديّ فأحمله الى البيت بأمان» .

رأى النور في قعر البركة المتموجة في عينيها . أحس بتأثير قوتها السوداء فيه . «نعم . عندما أخذوه بعيداً لم افعل شيئاً . وعندما عاد الى البيت متعباً لم اجعله سعيداً»

كانت ماتزال شابة سريعة التأثر . ولكن كان هو يسير على يديه ورجليه في قاع البركة الصامتة . كان ذلك النضال عسيرا عليه . لم يرد ان يغرق .

استمرت في الحديث بعد وقفة قصيرة : «اتساءل احيانا اذا كانت وامبوكو تحلم ايضا . ومع ذلك فانها .. انها .. انت تذكرها ؟»

- «وامبوكو ؟»

- «نعم»

ـ «كلا . لااعتقد»

ـ «ولكن يجب ان تتذكرها . ألا تتذكر المرأة التي حاولت انقاذها . المرأة التي تعرضت للضرب في الخندق ؟»

ـ «نعم ، نعم» لم يتذكر ملامح وجهها ولكنه تذكر الثوب الذي مزقة السوط وصور المعاناة .

ـ «ماتت»

ـ «ماتت ؟»

ـ «نعم . مؤخراً . يقول الناس إنها كانت حبلى منذ ثلاثة اشهر او اربعة . كانت صديقة كيهيكا قبل ان يهرب الى الغابة . لم تغفر له ابدا ، مع انها كانت تأمل في عودته اليها ، ونادرا ما خرجت مع شخص اخر . لكن عندما اعتقل كيهيكا وشنق على شجرة حدث لها أمر غريب : في البداية رفضت ان تخرج من البيت عدة أيام . وحين خرجت اخيراً أسلمت جسدها للجنود وللحرس الأهلي ولأي رجل يعترضها . لكنها ، كما يقال ، رفضت محاولة ذلك الحارس الذي انتهز الفرصة للانتقام منها في الخندق . لم تبرأ من ضربه الى ان ماتت بعد ثلاثة اشهر وهي حبلى .

تناولت منديلا لتمسح عينيها . جاء ولدها يركض الى الغرفة . نظر سريعا الى الرجل ثم جلس على ركبتي أمه وسألها : «لماذا تبكين ؟» القى نظرة عدائية على موغو . احتضنت مومبي الصبي كأنها تحميه من كل سوء ومن ضرر المعرفة بالاشياء . حاولت ان تبتسم وهمست في اذنه :

ـ «عد الى جدتك . أسرع . انت لاتتركها وحيدة ، اليس كذلك ؟»

ربما يسرقها الايريمو . وعندئذ ماذا ستفعل ؟»

نظر الصبي الى موغو ثم الى أمه وأسرع خارجا من البيت .

ـ «ربما تقول إنها ماتت من أجل أخي» استمرت في الحديث كأن لم يقاطعها احد . الا ان صوتها كان اقل توترا واكثر ترددا .

ـ «ضحية .. ثم ان هناك نجيري»

ـ «من تكون ؟»

ـ «هي الاخرى صديقة . انها صديقتي . كنا انا وواميوكو ونجيري نذهب معا الى القطار . لكننا لم نعرف ان قلب نجيري كان يخفق حقا بحب أخي . كانت غالبا ما تتخاصم وتتشاجر مع الرجال والنساء . لم نعرف ان لها احلاما سرية ، الى ان هربت الى الغابة لتقاتل الى جانب كيهيكا . لقد اطلق عليها الرصاص وماتت في معركة نشبت مباشرة بعد موت كيهيكا» .

أظلم وجه موغو اكثر وتدلت شفته السفلى . لم يرد النظر في تلك الاشياء . كان قد نهض ووصل الى الباب عندما ناداه صوت مومبي المفزوع وايقظه على الحاضر . وقف عند الباب محاولا ان يوازن نفسه بصعوبة . عندما استدار ببطء احس بالخجل لانه مازال عاجزاً أمام نوازعه . نهضت مومبي أيضاً . لم تكن قادرة على إخفاء دهشتها واضطرابها . قالت وقد جلست :

ـ «لم اتحدث بهذه الاشياء الى اي انسان . انت احسستني بالقدرة على الكلام والنظر في هذه الامور . غريب ، انني أتذكر الان ، هل تعرف ان أخي قال مرة ، كلا ، كان يقول ذلك دائما كلما غضب من اصدقائه . انت تجعلني اتذكر ذلك جيدا . قال انه لوكان

لديه امر سري ومهم فانه يثق بشخص مثلك»

وقف موغو دون حركة وهو يحدق الى عينيها الفارغتين . كان يريد ان يقول لها : اتركيني وحدي . لكنه همس بصوت لايكاد يسمع :

ـ «هذه الامور .. مؤلمة»

جلس موغو خاضعا لقوتها الطاغية ، وشعر بالضعف امام عينيها وصوتها . انتظرها تبحث عن الكلمات . قالت وهي تنظر اليه باستقامة :

ـ «اردت ان اتحدث اليك عن زوجي» . تحول التحدي في عينيها تدريجيا الى توسل ذليل صامت . ارتجفت شفتاها المنفرجتان قليلا ، وقالت :

ـ «اردته لأني .. لأني اردته اكثر من اي شيء اخر .» بدا ، بعد قليل ، كأنها ارتاحت . سألته :

ـ «انت تعرف قصة الطفل ؟»

ساورت موغو فجأة رغبة في ان يؤذيها بشدة . تلذذ برغبة جنونية في ان يؤذيها ويمرغها في التراب . لماذا تحاول ان تشركه في حياتها ، او في حياة اي انسان ؟

ـ «اخبرني زوجك»

ـ «هو اخبرك»

ـ «نعم»

ـ «متى»

ـ «الليلة الماضية»

ـ «كل شيء ؟»

ـ «كل شيء .. الطفل .. كرانجا» . تحدث بعدم اكتراث وهو يضحك في سره بألم حين رآها تفزع مرة او مرتين . كان البيت صامتا وعينا موغو عدائيتين . لن يغادر البيت حتى وان بكت جهاراً . لن يتحرك ولن يقول كلمة عزاء .

ولكن في الدقيقة التالية انفجرت مومبي في الجو المشحون كأنها تذكرت شيئاً كبيراً ومهماً .

ـ «هل اخبرك عن البيت . أعني عن كوخينا ؟ هل أخبرك ؟»

سأل مذهولا : «البيت ـ اي بيت ؟»

قالت بانتصار حزين : «البيت الذي عشنا فيه قبل ان يأخذوه ـ آه ، يبدو انه لم يخبرك . من يستطيع ان يتحدث بذلك غيري ؟ ولكنه لايريد ان يعرف ..»

تذكر موغو ان اولئك الذين لم يذهبوا الى القرية الجديدة طردوا واحرقت اكواخهم .

تابعت حديثها : «حتى الان ، عندما يحين الليل وانا في الفراش ، أتذكر ألسنة اللهب الحمراء . كان هناك كوخان احدهما لأمي والاخر لي . اخبرونا ان ننقل فراشنا وملابسنا واشياءنا الاخرى . سكبوا الزيت على كوخ أمي . فكرت آنئذٍ في ان ذلك ليس ضروريا لأن الحشائش المحيطة بالكوخ كانت يابسة . على اية حال سكبوا الزيت على الاعشاب اليابسة . كانت الشمس حادة . جلست امي عند كومة الاشياء التي جمعناها من الكوخين ووقفت انا الى جانبها . كنت اضع منديلا على رأسي . اشعل ضابط الحرس عود ثقاب وألقاه على الكوخ . لم يشتعل . ضحك منه الاخرون . بدأوا يصيحون

ويشجعونه . حاول احدهم ان يأخذ علبة الثقاب منه ليريه كيف يشعل النار . اصبح الامر لعبة بينهما . في المرة الرابعة او الخامسة التقط الكوخ النار . ارتفع الدخان الاسود والازرق فوق الكوخ . تصاعدت ألسنة اللهب الى السماء . حين ذهبوا الى كوخي لم استطع رؤية اللعبة تتكرر ثانية فأغلقت عيني . اردت ان اصرخ ، لكني فقدت صوتي لان الصرخة لم تخرج من حنجرتي . تذكرت أمي واردت ان اخذها بعيدا كي لاترى المشهد الى نهايته . كان الكوخان يعنيان الكثير لها لانها شيدتهما بعد ان طلقها واروهيو . على اية حال ، دفعت يدي جانبا وهي تهز رأسها رفضا . واصلت تحديقها الى اللهب . بدأت السقوف تتصدع . أتذكر الان ما اصابني من ألم وأنا أسمع صوت انهيار الكوخين . سقط الكوخان واحدا بعد الاخر بضجة كبيرة . سمعت امي تلتقط انفاسها بصعوبة عند سقوط كل منهما . لكنها لم تحول نظرها عن المشهد . انهزم شيء ما في قلبي . شيء ماتصدع في داخلي عندما رأيت كوخنا ينهار» .

اثيرت ضجة كبيرة في ثاباي القديمة بعد سقوط مركز شرطة (ماهي) بيد كيهيكا ومجموعة من مقاتلي الغابة . ان الضربة التي وجهت الى (ماهي) اثارت سخط الحكومة . ويقال ان الرجال السود في نايبري ـ موانغي ماتيمو ، اولئك الذين تلقوا بحماس شديد اخبار احتلال المركز من الراديو قد سيقوا فورا الى مانياني ، اشهر واكبر معسكر للاعتقال في البلد . كان الخبر قد خضع للرقابة ، فهم لم يذيعوا الا ما يعرفه الناس كلهم في منطقة جيكويو . وقد انتقمت

الحكومة . اغلقت المحلات التجارية الافريقية كلها (لمصلحة الأمن والسلام) . كان على الناس ان يذهبوا الى القرى الاقل انتشارا . بدأ الامر باشاعة . كان الناس يهزون اكتافهم بعدم اقتناع ويتحسرون على مصير اولئك الذين سيقوا الى المعتقلات او الذين ذهبوا الى الغابة . هل يمكن ان يعودوا ؟ ثم اصدر توماس روبسون ، الذي كان ضابط المنطقة ، انذارا الى كل القصبات اعطى فيه الناس شهرين ليهدموا بيوتهم القديمة ، ويقيموا بيوتاً جديدة .

أحست مومبي بالإحباط لعدم وجود رجل في البيت . لكنها ، في النهاية ، شدت حزاما على وسطها واخذت على عاتقها مهمة الرجل . بدأت هي ووانغاري بتنظيف الموقع . جاء كرانجا لمساعدتهما في رسم مخطط البيت على الارض . كان هادئا ومتحفظا ، الا ان مومبي كانت مشغولة جدا بحيث لم تلاحظ تحفظ الرجل المتأزم . خلال ايام قليلة تهيأ الموقع للبناء . ذهبت بعدئذ الى غابة ابيها الصغيرة وقطعت بعض الاشجار اللازمة للبيت . كانت تلك اياما عصيبة لم يرتفع فيها دخان من اي كوخ في ثاباي لأن الرجال والنساء لايعودون الى بيوتهم الا مع الظلام . وفي اليوم التالي يذهبون الى المواقع . تحول الصغار الى رجال ولبست النساء السراويل . لكن الاطفال المشدودين الى ظهور امهاتهم كانوا يصرخون من اجل الطعام والرعاية . كان كاريوكي يغادر المدرسة في الرابعة من كل يوم ويسرع الى الموقع ليساعد اخته في البناء .

كان الرجال الذين يرون نساءً مثل مومبي ، وهن يتسلقن السطوح لطرق المسامير ، يتوقفون لمشاكستهن : كل ذلك لأن امرأة ـ

لأن وانغو جديدة قد توجت في انجلترة . أيّ خير جاء به حكم المرأة ؟
تجيب النسوة ، وهن مسرورات للتوقف قليلا عن العمل «آه ، أليس الحاكم بارنغ الذي يحكم كينيا ، رجلاً ؟»

ـ «آه ، ومع ذلك فالسبب انوثة النساء . انظرن كيف ارسلتن كل الرجال الى المعتقل لتتعفن رجولتهم ، كازواج مرغمين للملكة اليزابيث»

تنفجر النساء صائحات : «وارسلناهم الى الغابة ايضا» فيتحول المرح الى مرارة . ينسحب الرجال دون كلمة اخرى الى مواقعهم لتتواصل اصوات المطارق المعدنية وهي تهوي على المسامير .

كانت مساعدة كرانجا واعمال كاريوكي غير كافية . بقي كوخ مومبي دون ان تغطى جدرانه بالطين حين انتهى الشهران . لذا ظلت مومبي ووانغاري في كوخهما القديم استعداداً لتغطية جدران الكوخ الجديد بالطين خلال يوم او يومين . لكن الحرس وصلوا في اليوم التالي . فتحت مومبي الباب ورأت الوجوه المكفهرة فعادت تخبر وانغاري بالحقيقة .

قالت وانغاري بحزن : «أعلم أنهم سيأتون يابنتي» وبدأت تجمع الاواني والاشياء الاخرى من البيت المدان .

انسحب الحراس بهدوء كأنهم مارسوا طقوسا خاصة . كانت عيونهم تبحث عن ملامح الاستحسان في وجه روبسون . لكن روبسون انطلق بسيارته لان هناك اكواخا أخرى يجب أن تحرق ، والنهار قصير بالنسبة اليه .

قبل حلول الظلام كان آخر جدار في قرية ثاباي القديمة قد

تهاوى . وحل محل البيوت القديمة الطين والاحجار والرماد .

«قضينا تلك الليلة ، انا وأمي ، في الكوخ الذي لم يكن قد اكتمل بعد . خرق أبي أمر منع التجول وتسلل الينا في الليل ليأخذنا الى بيته ، لكن أم زوجي (التي تسميها مومبي : أمي) رفضت الذهاب ، ولم استطع تركها وحيدة . كان السقف محشوا بالاعشاب لكن الجدران بلا طين . كانت الريح الباردة تندفع الينا طوال الليل من شقوق الجدران وتلسعنا من كل الجهات . طويت نفسي ببطانية قديمة وبكيس من الليف ، الا اني بقيت ارتجف . لا اظن اني اغمضت عيني مرة واحدة . ومع انني اعلم بان أمي لم تنم ايضا لكننا لم نتحدث ابدا . كانت ليلة طويلة حقا .

«منذ ذلك اليوم بدأ كرانجا يزورنا للسؤال عن صحتنا ، وكان يجلب معه بعض الطعام احيانا ، بدا هادئا كأن شيئا ما يزعجه . لم ألاحظ ذلك في البداية ، ولم انتبه الى كثرة تردده الينا . كنت مشغولة بتمريض أمي التي بدأت تشكو من آلام في المعدة وفي الرأس وفي المفاصل بعد حرق الكوخ القديم . رآني يوماً وأنا أقطع الخشب خارج البيت . وقف ينظر الي دون كلام ، وانا أكره ان يراقبني أحد في اثناء العمل ، اذ لااشعر بالارتياح ولا أسيطر على حركة يدي جيدا . لذا قلت له : «تعال وساعد امرأة في قطع الخشب» . اخذ مني الفأس وانجز العمل . لم يتكلم حتى ذلك الحين . قلت له : «ادخل لتتناول قدح من الشاي» . حين انحنيت لأجمع قطع الخشب مد يده ولمس رأسي هامساً : مومبي . على اية حال ، رفعت رأسي ولاحظت انه اراد ان يقول لي شيئا . أحسست بالخوف . كان

كرانجا قد خطبني بعد حوالي اسبوع من قبولي الزواج من جيكونيو . رفضته آنذاك وذكرته بأنه صديق جيكونيو . لم يفاتحني في الأمر مرة ثانية ولكنه كان يزور زوجي باستمرار . لابد من انه رأى الخوف في عيني لأنه ذهب دون ان ينطق بكلمة اخرى . لم يلتفت ، ولو فعل ربما كنت قد ناديته لأنني أحسست بالذنب . أطبق شيء ثقيل على قلبي لأنه كان كريما ، كما يكون الصديق ، معي ومع أمي .

«لم يعد مرة اخرى . القي القبض فيما بعد على كيهيكا عند اطراف غابة كينيني وشنق على شجرة . أتدري ان أبي ، ذلك المحارب المعروف في المنطقة من نايبري الى كابيتي ، قد تبول على رجليه ؟ بكى طوال الليل مثل الطفل بينما كانت أمي الحقيقية وانجيكو تهدىء من روعه . عاش والداي منذ تلك الليلة منكسرين ولولا وجود كاريوكي لقضيا نحبهما . أنا ايضا مرضت وبقيت يومين اتقيأ كل ما آكله او اشربه . وكما تعلم ، حلت العقوبة بعد ذلك . كان على ثاباي ان تدفع ثمن ما فعله اخي . انت تعرف قضية الخندق ، او على الاقل البداية . كان ذلك بعد ان اعتقلوك لمحاولتك انقاذ وامبوكو . سمعت اول مرة ان كرانجا انضم الى الحرس الاهلي . لم اصدق ذلك . كان صديقا لكيهيكا وجيكونيو . لقد أدوا القسم معا فكيف يخونهما ؟

«تراجعت الافكار امام العمل المضني . كان المفروض ان يحيط الخندق بالقرية كلها . بعد اعتقالك لم يكن الضرب يقتصر على افراد هنا او هناك . كان الجنود والحرس يدخلون الخندق ويضربون كل شخص يرفع ظهره او يبطىء في عمله . ساقونا الى العمل المتواصل

لانهم حددوا زمنا قصيرا للانجاز . كان يسمح للنساء بترك العمل قبل ساعتين من غروب الشمس لغرض اعداد الطعام . لم يسمح لأي شخص آخر بترك العمل . فرضوا حتى على اطفال المدارس البقاء في القرية ، بعد ايام قليلة قلصت الساعتان الى ساعة واحدة . وحين اقترب موعد الانجاز ألغيت الساعة ايضا . عملنا كالسجناء ، فقد شيد الجنود معسكراتهم حول القرية لمنع اي هروب . لم يكن لدينا طعام . وكان من الصعب سماع الاطفال يبكون . لم يلتفت ضابط المنطقة الجديد الى بكاء الاطفال . وقد سمح للجنود ان يأخذوا بعض النساء الى خيمهم . ياالهي ! لاادري كيف نجوت من ذلك العار . كنت أصلي كل ليلة لكي لايحدث لي ذلك . ماتت وامبوكو في الخندق . سحبوا جثتها وألقوها في حفرة على بعد بضع ياردات من الخندق .

«هل تعرف اننا اعتقدنا بان نهاية العالم قد دنت ؟»

«وفي يوم من الايام بدأنا نغني . أضافوا اعداداً اخرى من الجنود والحرس الى الخندق جاءوا بالسياط والعصي . لكن ذلك لم يوقف اصواتنا . كانت البداية تنطلق من صوت امرأة او رجل في ركن من اركان الخندق ثم ينضم اليه الجميع وهم يؤلفون كلماتهم من لاشيء . وكانت اكثر الاغاني اثارة لنا هي تلك التي تتحدث عن وامبوكو في قبرها .

عندما أتذكر وامبوكو

المرأة الجميلة جداً

وكيف رفعت عينيها الى السماء

تنهمر الدموع من القلب بغزارة .

صلِ له بصدق
سبح له بصدق
لأنه دائما هو الرب نفسه
الذي ينس الشمس والتراب هذا اليوم .

حفرت الخندق بدمائي
وعندما دفعوني في الخندق
انهمرت الدموع من قلبي بغزارة .

توقفت مومبي عن حكايتها لتردد الالحان على مسمع موغو ، محاولة ان تتجاوز كلمتين كانت قد نسيتهما . كانت الالحان بطيئة متحدية وحزينة . اغرورقت عيناهيا بالدموع . ارتفع صدرها وانخفض مع اللحن مما جعل موغو يتسمر في مقعده . لقد عاش المشهد الذي لم يره لأنه كان يومها معتقلاً .

«ان العجزة والشيوخ الكبار مثل أبي ، وكذلك الاطفال الصغار ، لم يجبروا على الحفر . لكنهم اجبروا على الجلوس حول الخندق لمراقبة زوجاتهم وابنائهم وبناتهم او امهاتهم وهم يعملون ، كما كان عليهم ان يتحملوا ضرب السياط . في كل يوم يأتي ضابط المنطقة بمكبر الصوت ليذكرنا لماذا يعاقبوننا . ان ماجرى في ثاباي هو انذار لجميع القرى كي لاتقدم الطعام او اية مساعدة اخرى لاولئك الذين يقاتلون في الغابة» .

«ماتت امرأتان اخريان ، فحفرت حفرة اخرى قرب الخندق» .

«لم ار كرانجا طوال ذلك الوقت . قال الناس انهم رأوه هنا وهناك ، الا انه لم يظهر ابدا في المكان الذي عملت فيه . كان مخزن طعامنا قد نفد حينذاك . لم استطع الذهاب الى الجيران لأن الكثيرين منا واجهوا الحالة نفسها . في ذلك الوقت تكره اي شخص يزورك وقت تناول الطعام . كلا ، لم يزر احدنا الاخر . وجاء يوم لم اعد احتمل . لابد من ان اعترف بان أم زوجي ووالديّ كانوا اكثر مني قدرة على الاحتمال . حسبت انني لااستطيع العيش يوما اخر . في تلك الليلة جاءنا كرانجا . لم يدخل الكوخ لذا خرجت انا اليه . لقد جاءنا ببعض الخبز تحت جنح الظلام . ملأ اللعاب فمي . هل رأيت فم كلب جائع عندما يرى الطعام ؟ لكن منظر البندقية التي يحملها أفقدني قوتي وشهيتي ، فلم اقبل الطعام الذي قدمه . تركته ودخلت الكوخ . (بعدها انتشرت اشاعات تقول ان كرانجا هو الذي خان اخي كيهيكا) . لم اخبر وانغاري بما حدث وهي بدورها لم تسألني شيئا . لكن منظر جسمها النحيل جعلني احس بالذنب لرفض الطعام . ظننت انها ستموت ، واننا جميعا سنموت ، فبكيت بصمت . علمت ان والديَّ وكاريوكي كانوا ايضا يعانون الجوع .

«مات رجلان» .

«توقف الغناء فجأة . لم يعد يسمع اي صوت بشري . توقف حتى الاطفال عن البكاء من اجل الطعام . استمرت اصوات الفؤوس والمجارف . كان يوما فريداً . لم اكن اشعر بشيء . في تلك الليلة جاءنا كرانجا مرة ثانية . لم اتبين وجهه في الظلام لكني

استجمعت قواي المنهارة واستطعت ان انطق بكلمة (يهوذا) . عندما تكلم كان صوته بعيدا ، على بعد اميال مني : «خذي طحين الذرة والخبز هذا والا ستموتين جوعا . انا لم أخن كيهيكا . لم أخنه . اما البندقية التي احملها عن الرجل الابيض .. حسنا ، سيأتي يوم تعلمين فيه ان كل انسان في العالم متفرد ، ويقاتل بشكل منفرد ليعيش» .

«تركني وذهب . صدقت وبطريقة ما ماقاله عن اخي . كان علي ان اخذ الطعام منه حتى لو لم اصدقه . كانت كلماته قد سهلت الامر علي . عندما دخلت الكوخ احسست بالخجل مع اننا جياع . لم أستطع ان اخبر وانغاري عن مصدر الطعام ، ولم تطرح هي اية اسئلة علي . ولم يفعل ذلك والديّ وأخي الصغير عندما قدمت لهم الطعام في اليوم التالي . بقيت مطأطأة الرأس عدة ايام . في ذلك الوقت كان بعض النسوة يعرضن انفسهن على الجنود من اجل الطعام ، ولم اشعر انني اختلف عنهن . الى هذا اليوم لم أقل لأي احد من اين اتيت بالطعام الذي انقذ حياتنا . اقول لك الحق ، اني اشعر بالخجل حتى الان .

بلغ مجموع الذين ماتوا واحدا وعشرين رجلا وامرأة . دفنوا جميعا قرب الخندق . الشيء الغريب هو عدم موت اي طفل في تلك الفترة .

«بعد الخندق عملت في المستوطنة . كان اولئك الذين يعملون لدى الرجل الابيض في الحقول او في البيوت يزودون ببطاقات تعفيهم من العمل الإجباري الذي فرض على كل من بقي في القرية . وكان من

السهل عليهم الحصول على اجازات العبور التي يوقعها ضابط المنطقة كي يتمكن حاملها من الانتقال من منطقة السود الى مزارع البيض ومن منطقة الى اخرى . كنت محظوظة لاني تقاضيت تسعة شلنات في الاسبوع بينما تقاضى العمال في المزارع الاخرى ستة شلنات او اربعة في الاسبوع . كنا نعمل في مزارعهم لالتقاط الاعشاب الضارة وجمع اوراق الشاي . وقد اشتريت بالمال الذي حصلت عليه طحينا يكفي لمعيشتنا نحن الخمسة . قررت ان لا اقبل اية مساعدة من كرانجا الذي شق طريقة في الوظيفة واصبح رئيسا للحرس . كان كاريوكي مجتهدا في المدرسة وكنت ادفع اجور دراسته . لقد رأينا فيه امل المستقبل ، فلا شيء افضل من التعليم» .

«طوال ذلك الوقت لم اتوقف عن التفكير في زوجي ، بدا لي انه لوكان موجوذا لسارت الامور على مايرام . مرت شهور واعوام . لم نسمع شيئا عن اولئك الذين سيقوا الى المعتقلات . قال الراديو انهم لن يعودوا ابدا . لم نصدقه ، ولكن بعضنا كان يقول للبعض الاخر ان رجالا لن يعودوا ابدا . واذا قالت واحدة غير ذلك نظرنا اليها شزرا وطلبنا منها ان تغلق فمها . كيف تسنى لها ان تعرف ؟ ولكننا كنا نتلقى كلمات الامل تلك بقلوب مفتوحة ، وكنا نريد شخصا يؤكد ان الذين اعتقلوا سيعودون يوما ما» .

«في ذلك الوقت وقع حادث للمختار موروينيا ، مما جعلنا نتوقع خندقا اخر . كان المختار موروينيا مسؤول المنطقة ومعروفا في كل مكان بقسوته . قسا خصوصا على الفلاحين الذين اعيدوا من

اوغندا وتانجانيقا الى مستوطنات جيكويو في منطقة الوادي الصخري . سمعنا انه قتل في وضح النهار وهو في طريقه الى نديا . كان الرجل الذي قتله يلبس سترة عسكرية ، وقد تبعه هو وحرسه على مسافة بعيدة . اذا توقف المختار توقف هو ايضا ليربط حذائه او ليتبول . حين دخل الغابة اندفع الى الامام واطلق النار على المختار . يقال انه ضحك بصوت عال حين رأى رجال الشرطة والحرس يهربون لحماية انفسهم . وقبل ان يتمكنوا من اطلاق النار عليه كان الرجل قد اختفى في الغابة . لم يمت المختار ، انما نقل الى مستشفى تيمورو . بعد اسبوع جاء رجلان يحملان سلة من الطعام لزيارة المختار المريض . كانت اوراقهما سليمة ولا غبار عليها ، لذا سمح لهما بزيارته في فراشه . هناك اطلقا عليه الرصاص وقفزا من النافذة متجهين الى الغابة» .

ثم اصبح كرانجا مختارا . وقد برهن على انه اكثر قسوة ممن سبقه . كان يقود الحرس الى اعماق الغابة ليصطاد المناضلين . وخلال فترة سيطرته سيق الرجال القليلون الذين بقوا في القرية الى معسكرات الاعتقال . كان شديدا في تطبيق قانون منع التجول وفي اعمال السخرة . رأيته يوما وانا عائدة من العمل . توقف وناداني ، لكني واصلت السير . ركض خلفي اثنان من الحرس وهددا بضربي ، الا ان كرانجا امرهما بتركي والابتعاد قليلا حيث سيلحق بهما . صرخت بوجهه :

ـ لماذا لم تدعهما يقتلاني ؟

ـ ارجوك يامومبي .

ـ لاتقل مومبي ، مومبي

كنت غاضبة ولم اشأ ان يذكرني بالطعام الذي قدمه لي . كنت متلهفة الى اي شيء يحل عقدة الذنب التي تربطني به .

استمر قائلاً ـ لماذا تكرهينني الى هذا الحد يامومبي ؟ وقال انه يحبني وانه انقذ نفسه من المعتقل ومن الغابة لأجلي .

غريب ، أليس كذلك ؟ الاسلوب الذي يقدم فيه اسبابا ومبررات لاعماله بحيث تتفق مع الظرف المناسب . على اية حال ، زال غضبي وتحول الى احتقار . كان بالفعل يبدو حقيرا بالملابس الخاكي والبندقية الطويلة على كتفه وهو يتحدث عن الحب على قارعة الطريق . ضحكت منه وقد اغاضه ذلك ، لكنه لم يوقف سيل كلامه . لم تؤثر كلماته في نفسي . رغبت في ان أوذيه ، ان اوجه اليه ضربة من اجل كيهيكا وجيكونيو والاخرين . قلت له بوضوح :

ـ لماذا لم تلبس تنورة أمك وبلوزتها . لقد ذهب الاخرون للقتال وبقيت انت تلحس اقدام اسيادك البيض ؛ ظننت انه سيضربني بعد ان وخزه كلامي . تحركت شفتاه وحاول ان يقول شيئا . تغيرت الوان وجهه ثم تحدث بهدوء ووضوح :

ـ انت لاتفهمين . هل تريدين منا ان نموت جميعا في الغابة او في المعتقلات حتى يعيش الرجل الابيض وحده على هذه الارض ؟ الرجل الابيض قوي . لاتنسي ذلك ابدا . انا اعرف ذلك لاني خبرت قوته . لاتخدعي نفسك بان جوموكينياتا سيطلق سراحه من لودوار . سوف تتساقط القنابل على الغابة كما فعل الانجليز في اليابان وفي الملايو . اما اولئك المعتقلون فلن يروا هذه الارض ابدا . كلا

ياموميي . الجبان يعيش ليرى امه والشجاع يموت في ارض المعركة ، لكن تجنب الضربة ليس جبناً .

أخافني حديثه .

«صرخت به وانا اشعر بالضعف : اتركني ، لماذا لاتتركني وحدي ؟ تركني وذهب . كانت معدتي ثقيلة وقلبي معتماً . انها لقسوة منه ان يخبرني باستحالة عودة جيكونيو» .

«مع ذلك ، ففي نهاية ذلك العام ذهبت للبحث عن كرانجا في بيته . كان كاريوكي قد اجتاز الامتحان وكان الصبي الوحيد في المنطقة الذي استحق مكانا في ثانوية سيريانا . اغضب ذلك الكثير من الناس . تساءلوا لماذا يسمح لصبي اخوه في الغابة ان يذهب الى مدرسة حكومية بينما لم يستطع ذلك اولاد الموالين . لكنهم لايستطيعون منعه ما لم يبرهنوا على انه أدى القسم مع الثوار . لذلك ذهبنا انا وكاريوكي الى بيت المختار . لم يطرح كرانجا اية اسئلة . اعطانا كتابا يقول ان التحقيق جرى مع كاريوكي وثبت انه لم يشترك مع الثوار . شعرت بالخجل من موقفي الحاد مع كرانجا» .

لم تعد الحياة الحقيقية الى والدي الا عندما ذهب كاريوكي الى سيريانا . بدأ مبوغو يتحدث عن المستقبل بينما بكت وانجيكو من الفرح . انا ايضا كنت سعيدة ، ولكنني لم أنس ابدا كلمات كرانجا ان اولئك الذين ذهبوا الى المعتقلات لن يعودوا ابدا .

ربما يكون جيكونيو وآخرون قد قتلوا . هذه الفكرة جعلتني ارتجف ليلا ولا استطيع الصلاة او النوم . لاحظت وانغاري نظراتي

القلقة فكانت حينذاك مصدر الدفء والراحة لي . في ايام الأنتظار تلك توطدت العلاقة بيننا ليس كأم وزوجة ابن ، انما تطورت الى شيء اخر لااستطيع وصفه .

كان كرانجا يشير دائما الى عدم جدوى اخلاصي . وكانت القوات الحكومية تضرب الثوار . لم نكن نتسلم رسالة او نسمع كلمة من اولئك الذين في المعتقل ، ولم يعد الراديو يذكر شيئا عنهم . بمرور السنين اصبح كرانجا متعاليا . لم يعد يتواضع امامي كما كان يفعل من قبل . وبدلا من ذلك كان يضحك ليثير اعصابي ، لكنني تمسكت بجيكونيو من كل قلبي ، انتظرت زوجي حتى لو كتب علي ان ارتبط به في القبر . فقدت الأمل في ان أقابله مرة اخرى على هذه الارض وعشت على ذكرى الايام السعيدة التي سبقت حالة الطوارىء .

«لن اطيل عليك القصة مع انني اشعر بالراحة عندما افتح لك قلبي ، في احد الايام طلبني كرانجا الى بيته . اذكر ان ذلك حدث في يوم خميس ، كنت أحس بالضجر والتعب من الحياة . فما قيمة الحياة ان لم تعش من أجل انسان تحبه ، من أجل انسان يتنفس ويمكن ان تراه وتلمسه ؟ كان جيكونيو ميتا بالنسبة الي . لم يبدأن الطوارىء ستنتهي . ذهبت هناك وأقسمت لنفسي انه لو حاول اي شيء معي ، حتى وإن كان كلمة ، فانني سألتقط قطعة خشب وأضربه على رأسه او على رقبته . وجدته وحده . وقفت برهة عند الباب . لم ينظر الي مباشرة ، كأنه قد تغير . بدا قلقاً واكبر سناً . أدهشني ذلك . حسبت أنه يعاني من شيء ما . تقدمت اليه وسألته عما يريده

مني . لم يجبني مباشرة . قال بعد فترة قصيرة» :

ـ زوجك قادم !

ـ ماذا ؟ !

ـ زوجك قادم ! حاول ان يبتسم حين كرر قوله .

«قلت وأنا اتأرجح : أرجوك ياكرانجا ، لا تلعب بعواطفي . كان صوتي منكسراً وقلبي مليئاً بالخوف والأمل . كنت مستعدة لعمل أي شيء من أجل معرفة الحقيقة .

«اقترب مني واراني ورقة طويلة عليها أختام حكومية . كانت قائمة باسماء اولئك الذين سيعودون الى قراهم . وكان أسم جيكونيو بينهم» .

ماذا يمكن ان أقول لك اكثر من ذلك ؟ احسست بالامتنان والخضوع . ضحكت من كل قلبي ، حتى أنني رحبت بشفتي كرانجا الباردتين على وجهي . كنت في عالم غريب ، كأنني فقدت عقلي . هل احتاج ان أخبرك بالمزيد .

«لقد سمحت لكرانجا أن يضاجعني»

توقفت عن الكلام . كان الضوء يتراقص في عينيها السوداوين . كانت شابة ، وكانت جميلة . تيبست حنجرة موغو . شيء ما يسري به الى الامام . ارتجف . كان في قعر البركة ثم ارتفع مرة أخرى الى فوق وبدأ يجري في الأرض . بدت الحياة جميلة حتى وسط الألم والدم والفقر . لحظة واحدة فقط . كيف يجرؤ على الإيمان بتلك الرؤيا وذلك الخيال ؟

«عندما أفقت وأدركت تماماً ما حدث سرت القشعريرة في

جسمي . حاول كرانجا أن يتلطف معي في الكلام ، لكني رأيته يضحك علي بانتصار . تناولت حذاءه ورميته به . هربت ولم أستطع البكاء . وعلى الرغم من انني كنت سعيدة قبل دقائق الا انني أحسست بالمرارة في داخلي . ذهبت الى وانغاري وبكيت ، لكنني لم أخبرها بوضوح بما حدث . بدا كأنها فهمت فضمتني اليها وحاولت ان تخفف عني بالكلمات»

ان سماع قصة مومبي أنهك قوى موغو . حاول أن يبحث عن كلمات مناسبة لكسر طوق الصمت . صرخ وقد اضعفه الألم والانفعال : «ماذا تريدين أن أفعل لك ؟»

كانت توشك أن تقول شيئاً حين سمعت طرقات سريعة على الباب . دخل الجنرال يتبعه الملازم كونياندو . أشرق وجه الجنرال بالرضا ، وذلك ما لم يره موغو ليلة الأحد والليلة السابقة لها . بينما بدا وجه الملازم حزيناً متغضناً . قال الجنرال بعد جلوسه : «لن نبقى طويلاً» ، ثم استدار الى موغو .

كان ودوداً اكثر من المعتاد .

ـ «ذهبت الى بيتك ، وحين لم أجدك فكرت بالمرور من هذا الطريق . أخبرتك أني سأزورك . اتذكر الليلة الماضية ؟ بدا عليك القلق والانفعال كأنك لم تر بشراً . تحدثت اليك في الخارج ولكنك اجبتني بصوت مستعار . ان غيثوا رجل غريب . أسمعت ما قاله عن الرصاص ؟»

ـ « لا استطيع ، لا أستطيع ان اتذكر ـ »

ـ «أرأيت ؟ قلت ان عقلك لم يكن في الأرض . يقول غيثوا للناس أنه

كان يزودنا بالرصاص . أتعلم أنه لم يجلب لنا أي رصاص (او حبوب الذرة كما كنا نسميه في الغابة)

سألت مومبي : «ألم يفعل ذلك أبداً ؟»

ـ «أبداً . وقد علمت إن أي انسان لم يطلق عليه الرصاص .»

سألت مومبي : «وكيف قطعت ساقه ؟»

ـ «ساقه ؟ انقلبت الحافلة التي كان يقودها في ناكورو ، وسحقت رجله اليسرى»

ـ «لماذا اذن ـ »

ـ «لأن ذلك يجعل حياته اكثر متعة . انه يختلق معنى لحياته . ألا نفعل جميعنا ذلك ؟ فالموت دفاعاً عن الحرية يبدو اكثر بطولة من الموت بحادث» .

شعر موغو بخيبة أمل في غيثوا ، وشعر بالوحدة ثانية ، الا ان مومبي والجنرال قطعا عليه تفكيره . ارتد من نظرة الجنرال المباشرة . أين الدفء الذي أحسه ليلة أمس وهذا الصباح قبل أن يدخل بيت مومبي ؟

قال الجنرال لموغو : «لنترك غيثوا جانباً . لقد جئنا لنراك»

قالت مومبي وهي تستعد للنهوض : «هل اغادر الغرفة ؟»

ـ «كلا ، الا اذا اردت ذلك . الأمر يخص أخاك»

ـ «كاريوكي ؟ هل حدث شيء ؟»

ـ «كلا ، كيهيكا !»

ـ «أوه»

ـ «كما اخبرتك ليلة الأحد . نعتقد بأن كيهيكا وقع في فخ نصب له .

كان عليه أن يجري اتصالاً مهماً . كان هناك ثلاثة أشخاص يمكن أن يكون قد ذهب لمقابلتهم . احدهم وامبوي . لكن كيهيكا كان قد ارسل وامبوي الى ناكورو ليسلم رسائل الى رفاقنا . الشخص الثاني هو انت» وركز نظره في موغو . تقلصت عضلات بطن موغو . «ولكن حتى الأطفال يعرفون ما فعلته من أجل كيهيكا وما فعله البيض بك»

سألت مومبي وقد ارتاحت : «من هو الرجل اذن ؟»

ـ «صديق وما هو بالصديق . ماذا كان يقول كيهيكا :

كررت مومبي سؤالها بنفاد صبر : «من هو ؟»

ـ «قال كيهيكا مرة أو مرتين أنه اراد ان يقابل كرانجا»

شهقت ونظرت الى موغو .

ـ «وبعد اعتقال كيهيكا مباشرة أصبح كرانجا واحداً من الحرس . ان تصرفه في غيثيما يشير الى جرمه . كان كونياندو هناك يوم أمس»

فزع كونياندو ونظر الى الجنرال . بدا وجهه مستغرقاً وعيناه مسكونتين . انفجر قائلاً بصوت غير طبيعي : «ولن أعود الى هناك أبداً ، أبداً» . نظر اليه الجنرال ومومبي .

سأل الجنرال : «ما الأمر ؟»

قال كونياندو ، وهو يسيطر على ارتعاشه بصعوبة : « لا شيء ، لا شيء . لا تهتم بذلك . ان صحتي ليست على ما يرام»

قالت مومبي بلهفة : «يجب ان تذهب الى الفراش . هل تريد بعض الأسبرين ؟»

ـ اوه ، انه صداع بسيط فقط»

ـ وماذا تريد مني ؟» كان موغو يتابع افكاره ، إلا أنه تحدث أخيراً .

ـ «بخصوص الاحتفالات يوم الخميس . فلأقل اولاً انني لم أعتد الصلاة للرب أبداً . لم أؤمن به . انا أؤمن بجيكونيو ومومبي والشعب الأسود في هذا البلد . ولكني في يوم ما أقمت الصلاة . في ذلك اليوم ، وانا في الغابة ، ركعت وبكيت من كل قلبي . ياالهي ، اذا كنت موجوداً هناك في السماء احفظني وسأعثر على من خان كيهيكا . وقد جاء الوقت . ان الموسم مناسب للحصاد . في يوم الخميس سيجتمع الناس في سوق رونجي ليتذكروا كيهيكا . ارسلنا موروا الى غيثيما لاقناع كرانجا بحضور الاجتماع . وهكذا فالمطلوب هو انك في نهاية خطابك ستعلن ان الرجل الذي خان كيهيكا يجب أن يتقدم ويتحمل الإدانة أمام الجمهور . لأنه بخيانة كيهيكا من أجل الرجل الأبيض فقد خان كرانجا الشعب الأسود في كل مكان على الارض» .

اعقب حديث الجنرال الحماسي صمت مثير للقلق . انصرف كل شخص في البيت الى حياته ، الى مخاوفه وآماله الخاصة . كان الجو متوتراً مثل حبل مشدود ، اذا شددته اكثر انقطع . نهض موغو فجأة مرتجفاً وهو يحس بالتوتر الذي يسببه القرار المفاجىء وقال :

ـ «لا يمكن ذلك . لقد اتيت هنا لأخبر جيكونيو والحزب بأنني لست الرجل المناسب لقيادتهم . على الحزب أن يبحث عن قائد آخر» .

غص بصوته . حاول أن يقول شيئاً آخر ، ثم اندفع الى الخارج اندفاعاً غير متوقع .

الفصل
العاشر

ان قرار اقناع ، او اذا اقتضى الأمر ارغام ، كرانجا على حضور الاحتفال الكبير في رونجي كان قد اتخذ الليلة الماضية بعد أن ذهب الملازم كونياندو لمقابلة موروا .

أكد موروا ما كان الجنرال يشك فيه دائماً . ان كرانجا هو الشخص الذي خان كيهيكا . بدا موت كرانجا في يوم الأستقلال أمراً عادلاً . وأن يهان أمام الجموع الغفيرة . اذا استسلم للأمر الواقع ولم يحدث ما يعكر الجو . فتلك مقدمة ضرورية للطقوس المطلوبة .

لم يكن الجنرال رجل كلام الا اذا استثير . اعتاد ان يقول باعتزاز : «أستطيع ان استعمل لساني ، ولكني استطيع ان استعمل يدي أيضاً» . كان كيهيكا يصلي ويتعذب أمام المشكلة بينما كان الجنرال يعمل . تحدث كيهيكا عن الاضطهاد والظلم والحرية بينما عاش الجنرال مع المضطهدين فرأى الرجل القاسي ورأى الرجل الطيب . كان شخصاً مغامراً الى حد ما . عمل ، قبل حرب الأستقلال ، خياطاً في رونجي . لم يعرف أحد شيئاً عن أصله . قال بعضهم إنه جاء من نايبري وقال آخرون ان موطنه هو ايمبو . ومع

انه عاش في رونجي سنوات عديدة ، إلا أن الناس في ثاباي كانوا يعدونه غريباً بينهم . كانوا يقولون : «ان اولئك الناس من نايبري وايمبو مخيفون . انت لا تعرف ماذا يحملون تحت أظافرهم وتحت آباطهم» . لم يعرف الناس حتى اسمه الحقيقي . كانوا يسمونه كا ـ ٤٠ لأنه في لحظات تجليه النادرة يغني في مدح نفسه قائلاً : «انظر الي ، شاب في الاربعين ، ولدت عام ١٩٤٠ ، خُتنت في ١٩٤٠ ، قاتلت هتلر في ١٩٤٠ وتزوجت في ١٩٤٠ . انظر الي ، شاب في الأربعين» (كان الناس يعرفون أنه يعيش بلا زوجة ولكنه قاتل فعلاً الى جانب الانجليز في الحرب العالمية الثانية) .

عدا ذلك ، كان هادئاً ونادراً ما تحدث عن نفسه أو عن معتقداته السياسية . وتجنب تجنباً ملحوظاً المواقف الوحشية والمشاجرات التي غالباً ما تثار في المطاعم والحانات . كا ـ ٤٠ كان خياطاً جيداً وناجحاً اختص بملابس النساء والأطفال . وقد عزيت رفاهيته الى «شيء ما تحت الإبط» .

إلا أن هذا الرجل الذي تجنب العنف والمشاجرات وعاش وحيداً أصبح واحداً من أشد أعوان كيهيكا ، مهاباً في القرية وبين رفاقه . لم يكن الجنرال راء ينسى صديقاً أو عدواً . وكان حرف الراء يرمز الى روسيا .

في الوقت الذي تحدث الجنرال راء عن المسرحية الصغيرة التي يفترض ان تمثل في يوم الاستقلال كان الممثل الرئيس كرانجا مشغولاً بمشكله بدت صغيرة قبل ثلاثة أشهر ، الا انها تضخمت حين لم يبق على الاستقلال سوى يومين . هل يسافر السيد

تومبسون حقا ؟ في ذلك اليوم قرر كرانجا أن يتقصى الحقيقة التي لمس شيئاً منها عندما بلغوه ، كمختار ، ان جيكونيو وبعض المعتقلين الآخرين سيعودون الى القرية . سيذهب الى السيد تومبسون ويقول له : سيدي ، هل ستغادر كينيا حقاً ؟ ليس لوجود علاقة ما بينهما وليس لاعتماد احدهما على الآخر ـ الا من جانب كرانجا ـ وانما لأن جون تومبسون كان دائماً يمثل قوة الرجل الأبيض الصامدة كالصخر ، تلك القوة التي عملت القنبلة ونقلت بلداً كاملاً من حياة الأحراش والغابات البرية الى مدن حديثة ذات طرق معبدة وسيارات وسكك حديد وقطارات وطيارات وبنايات تطاول ابراجها السماء . حدث كل ذلك خلال ستين عاماً فقط . ألم يمارس هو نفسه تلك القوة التي حكمت الناس ؟ حين كان مختاراً جعل الرجال ينحنون أمامه والنساء يصرخن باشارة من اصبعه .

وهكذا انتظر كرانجا تلك المعلومة المريعة . اجتاز مرتين مكتب تومبسون واذناه تتحسسان أية حركة في الداخل . حين عاد الى مكتبه فكر كرانجا في انه يستطيع أن يعرف إن كان تومبسون في مكتبه أم لا اذا تأكد من وجود سيارته الموريس في مكانها المحدد من موقف سيارات الموظفين . قفز من مكانه مثل رجل يجلس على دبوس ، ولكنه لم ينظر الى المقعد ، بل مد رقبته وحدق الى المكان الخالي المخصص دائماً لسيارة الموريس . ألا يأتي الرجل الى العمل ذلك اليوم ؟ وجد من الصعب أن يكتب بطاقات لأي كتاب على منضدته .

ومن حسن حظه أن لا تكون السيدة ديكنسون هناك ذلك اليوم .

ذهب الى قسم التجليد ليقضي الوقت مع الرجال الآخرين . اعتاد كرانجا ان يوجد لنفسه مثل هذه الحجة ، كلما شعر بالتعب . كان معظم المجلدين في وسط نيانزا وكان كرانجا يشعر بالارتياح معهم ، ولا يشعر بالارتياح مع أهالي جيكويو الذين ينبشون ماضيه . انه يحتقر قومه ويصرح بذلك كلما تحدث الى مورا أو مع أي شخص من قبيلته . كان يقول : «انهم يعيشون متجمعين دائماً . وما ان تعطي احدهم المسؤولية حتى تراه يدعو أفراد قبيلته كلما وجد شاغراً» . اما المجلدون فكانوا يرتابون منه : «هؤلاء ابناء جيكويو لا يمكن الوثوق بهم . ان أي فرد منهم يحتضنك كصديق هذا اليوم ويغرز السكين في ظهرك غداً» . لكنهم كانوا لطفاء في حضوره .

وجدهم يتحدثون عن الدكتور فان دايك . هل كان موته نتيجة حادث ؟ ماذا وجدت زوجة تومبسون الشابة في ذلك البربري المنفوخ البطن . ياالهي كم هي جميلة . أرأيت ردفيها . انا لا أمانع في العمل عندها . هل عرف تومبسون أنه يخدع ؟ لا بد من أنه عرف . لذلك تراه حزيناً دائماً . هل عاشر هو أيضاً امرأة اخرى كالدكتورة ليند ؟ هاهاها . ثم انتقلوا بالحديث الى حادثة الكلب . غضبوا من أجل كرانجا وتعاطفوا معه . أيها الرجل ، لقد انقذك تومبسون . ولكنه لن يعاقبها . وجد كرانجا ان رائحة الصمغ المغلي وضحكات الرجال واحاديثهم لم تخفف من توتر اعصابه . خرج ليتمش بين مختبر التربة والمجمع الاداري الرئيس ، متظاهراً بأن لديه عملاً ما . ولكنه في الحقيقة كان يأمل في أن يلمح تومبسون عبر النافذة . تساءل كرانجا ، هل ذهب الرجل ؟ كان عليه أن يسأله يوم أمس بعد

حادثة الكلب . تذكر كرانجا الرعب الذي أصابه عندما كان الكلب يقترب منه . أشاح بوجهه . لقد انقذه تومبسون من العار . تومبسون ، انه يرحل . عاد الى غرفته وهو مثقل باحساس الخيانة الوشيكة الوقوع .

انتابه سابقاً مثل هذا الأحساس . حدث ذلك بعد رفع حالة الطوارىء رسمياً .

فقد نصحه ضابط المنطقة أن يستقيل من وظيفته كمختار . برز حينذاك قادة حزبيون جدد مثل أوجينغا أو دينغا ، اولئك الذين نادوا بالاستقلال . كما أطلق سراح جومو كينياتا .

اعتقل كرانجا رجلاً لم يدفع الضريبة سنتين . لكن الرجل كان عاطلاً منذ أن غادر المعتقل . وبدلاً من أن يجيب عن الأسئلة دفعه الغضب الى أن يبصق على الأرض . وقد فعل المختار ما اعتاد ان يفعله في مثل تلك الحالات . أمر حرسه بضرب الرجل وحبسه في مركز الحرس حتى الصباح . وصل خبر الحادثة الى أسماع أودينغا فرفعها الى المحاكم . فأرغم كرانجا على دفع غرامة وعلى الاعتذار أمام الجمهور . لقد أذهله ذلك الإجراء . لماذا يعاقب على عمل كان يكافأ عليه قبل حوالي شهر فقط ؟ بعد ذلك عزل كرانجا من منصبه . أعطاه ضابط المنطقة كتاب توصية أدرج فيه اخلاص كرانجا وأمانته وشجاعته .

«يمكن الاعتماد عليه اعتماداً كاملاً» . تسلح كرانجا بذلك الكتاب الذي يحمل ختماً حكومياً واتجه الى غيثيما حيث رأى تومبسون مرة اخرى .

كان كرانجا قد حنث بالقسم فسجل في الحرس الأهلي حين كان تومبسون ضابط منطقة (بعد موت روبسون) . ومع ان تومبسون لا يتذكر تلك الأيام ، الا أن كرانجا أحس بان الكتاب الحكومي يكفي . حصل على عمل في غيثيما . وخلال فترة قصيرة برهن على اخلاصه وامانته وشجاعته ، وأصبح الخادم الأمين للرجل الأبيض في غيثيما .

حسب كرانجا تهديدات الكلب مقدمة لوقوع كارثة . لم يعرف ، خلال احساسه بوقوع كارثة قريبة ، ان كان يفرح أم يغضب لقدوم موورا الى غرفته .

ـ «هيه ، ايها الرجل . هل ذلك صحيح ؟» بدأ موورا بهمس خانع وهو يعني : أنت تعرف أسرار السلطة التي تحكمنا ، فزودني بفتات من معرفتك الواسعة .

سأل كرانجا : «ماذا ؟» وكان بطيئاً في استجابته لذلك الاعجاب .

ـ «ان المسؤول كا ـ تومبسون رحل ؟» كلما اراد موورا أن يسخر من رجل في السلطة استعمل اداة التصغير كا ـ امام اسمه .

قال كرانجا وقد فزع : «من أخبرك ؟» لكنه حاول أن يظهر برودا .

ـ «اوه ، انها اشاعات فقط . قلت لنفسي ان الشخص الوحيد الذي يعرف هو كرانجا . انه متداخل مع اسرار هؤلاء الناس ، وبخاصة المسؤول . ذلك الرجل يحبك ، كما تعرف ، انه يرسل في طلبك دائماً . اوه ، نعم . واستطيع القول انه يخافك . هل هذا

صحيح ؟»

عرف كرانجا ان الامر لايتعدىٰ نوعاً من التملق ، لكنه احس بالارتياح .

ـ «يالكم ايها الناس ، ويا لإشاعاتكم . ألم تره في المكتب يوم أمس ؟»

ـ نعم ، ولكن الا يمكن ان يكون ذلك يومه الاخير ، ولذا ارسل في طلبك ليودعك ؟ ألم يعطك شيئاً من المال ؟ ان الناس يقولون ـ حسناً ، انت تعرف انني اتفق معك حين تقول إن ألسنة الناس مؤذية .

سأل كرانجا بريبة وفضول : «وماذا تقولون انتم ايها الناس ؟»

ـ ان شخصاً افريقياً ، رجلاً ذا جلد اسود مثلك ومثلي سيأتي ليحل محله» .

قال كرانجا بحزم : «كلا» تعبيراً عما لايريد حدوثه وليس عما يعرفه . ثم تابع حديثه «يمكن ان تظنوا ما تشاؤون الا ان تومبسون لن يرحل الى اي مكان . كنت بالأمس فقط أتحدث الى زوجته ، وقدمت لي القهوة» .

قال موورا وهو يهز رأسه عدة مرات : «حقا ، همهم . فهمت . انني لااستغرب ان قيل لي انك تذوقت طعم تلك المرأة . أتعرف ان لعابي يسيل كلما ارى ردفيها الناعمين ونهديها اللذين يدعوانك : المسني ، المسني . وصوتها ، انه يشبه اغنية ، ويجعلك تفكر في انوثتها . انت رجل محظوظ . كيف بدأت معها ؟» .

ـ «عم تتحدث ؟» كان كرانجا قد تحمس للحديث ، لكنه كان قلقاً

غير قادر على نفي ما أشار اليه موورا أو تأكيده .

ـ «تكلم ايها الرجل . لابّد من انك تذوقتها . كيف بداطعمها ؟»

ـ «ايها الناس ، لماذا تظنون ان للأوربيين أشياء خاصة ؟ انهم يشبهون اي انسان مثلك ومثلي .

ـ «اعتراف على اية حال . اعرف انك فعلتها . ولكن قل لي ، ماذا ستفعل يوم الخميس ، يوم الاستقلال ؟»

ـ «لااعرف ، لاشيء» . تبخرت حرارته الداخلية .

ـ ألست ذاهباً الى ذلك الشيء ؟»

ـ اي شيء ؟»

ـ الاحتفال في رونجي . ألا تعلم انهم ينظمون العاباً ورقصات للاحتفال بالاستقلال ؟»

ـ «لا اعلم» . كان تعليقه غامضاً .

ـ «ولكن لايمكنك ان تبقى هنا وحدك . كل انسان سيذهب لسماع خطاب موغو»

ـ «من هو موغو ؟» كان القلق يزحف الى صوته وقد ادرك موورا ذلك .

ـ «يقول الناس ان الرجل يتكلم مع الله ويتسلم رسائل من ارواح الموتى ، والا كيف تفسر هروبه حياً من ريرا بينما مات عشرة من المضربين ؟ تذكر انه كان القائد» .

قال دون قناعه : «هراء . ان ألسنة الناس وحشية» . لم يفكر فيما سيفعله في ذلك اليوم . هل يمكن ان يعود الى ثاباي ويقابل الناس الذين سيسخرون منه ؟ ماذا لو ذهبت لرؤية مومبي حالاً ؟

هل يقوم بمحاولة اخيرة لانتزاعها من جيكونيو ؟

ـ «يمكن ان تسميه هراء . على كل حال ، سأذهب وأرى بنفسي . ان موغو رجل مقدس فعلاً . انه منطو على نفسه ولا يكلم احداً ابداً منذ ان غادر معسكر الاعتقال . سيكون هناك الكثير من النساء . انت تعرف كيف يتصرفن بحرية في مثل هذه المناسبات ، حتى المتزوجات» .

سأل : «هل ستذهب ؟» وكانت تغريه الرغبة في رؤية مومبي .

ـ «وهل ابقى هنا ؟»

قال كرانجا وهو ينظر عبر النافذة : «اخبرني عندما تقرر الذهاب» . كان جون تومبسون يوقف سيارته الموريس . «هذا هو تومبسون» ولم يستطع ان يخفي احساسه بالانتصار . نهض واسرع بتنظيف معطفه الخاكي . صفف شعره بيديه واندفع الى الخارج آملاً ان يلاقي تومبسون وحده في الممر . حينئذ يمكن ان يطرح عليه السؤال المزعج . شيء ما قفز الى بلعومه حالما رأى وجه تومبسون الخالي من اي تعبير . أأسأله ام لا ؟

قال وهو على وشك البكاء : «اسمح لي يا سيدي» لكن جون تومبسون واصل سيره كأنه لم ير او يسمع كرانجا . رفع كرانجا صوته : «اسمح لي ياسيدي» وقد استجمع شجاعته في يأس . التفت تومبسون ليواجه كرانجا .

ـ «نعم ؟» كان صوته واضحاً وبارداً وبعيداً ـ

ابتلع كرانجا لعابه : «انت ـ انت ذاهب !» تكلم بصيغة الخبر بدل السؤال البارد الذي كان يعدّه قبل قليل .

ـ «ماذا ؟»

ـ «انت ، انت» ، ابتلع مزيداً من سائل اللعاب الذي احدث صوتاً في حنجرته . «انت عائد الى ـ الى بلدك» .

اجاب الرجل الابيض بسرعة : «نعم ، نعم» كأنه ارتبك من الاستفسار . احس كرانجا بالفزع . كان يلعب باصابعه خلف ظهره . تمنى لو يتلاشىٰ من سطح الارض على ان يتحمل شدة البرد وحده . كان تومبسون يوشك ان يتحرك ، لكنه توقف . سأل بفظاظه :

ـ «ما الذي استطيع عمله من اجلك ؟»

ـ «لاشيء . لاشيء ياسيدي . لقد كنت عطوفاً جداً معي» . تركه تومبسون وواصل طريقه .

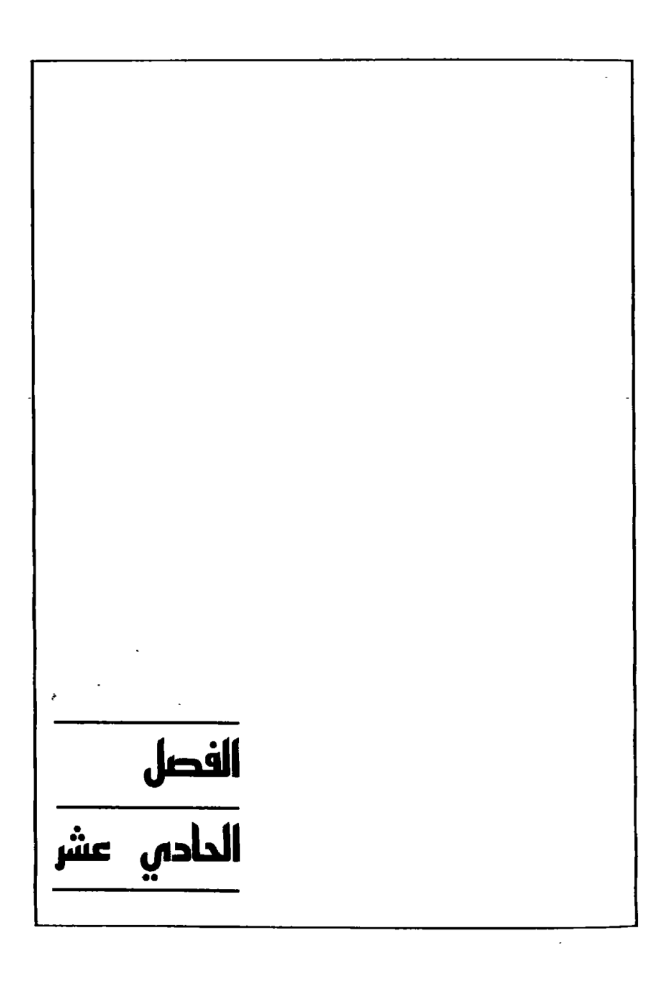
وقف كرانجا برهةً في الممر واخرج منديلاً متسخاً ليمسح العرق من وجهه . ثم عاد الى مكانه وهو يسير مثل كلب يسحبه صاحبه . لم ير موورا الذي انتظره في الغرفة . جلس على الكرسي ويداه على المنضدة . حدق دون استيعاب الى العالم خارج النافذة .

سأل موورا : «اذن ، فهو عائد الى بلده ؟»

اجاب كرانجا بصوت رفيع لالون له : « لا ادري» ، ثم صاح كأنه يرى موورا اول مرة : «ماذا تفعل هنا في المكتب ؟» تراجع موورا الى الباب . كانت السن منخورة ومكسورة وغير قادرة على العض . استعاد كرانجا جلسة الميت على المنضدة كأنه انهك مما جرى . بدأ دور موورا ليشعر بالانتصار ، وقد نسي مهمته وهي ان يصاحب كرانجا ويدفعه الى حضور احتفالات الاستقلال .

قال بسخرية وهو واقف بأمان قرب الباب المفتوح : «انت غاضب لان السيد سيتركك ، إيه ؟ ولم يكن من الكرم بحيث يقول وداعاً ؟ انا عملت مرة عند رجل ابيض في نيروبي ، وعندما غادر كينيا قتل كل الحيوانات التي رباها ـ القطط والكلاب ـ . لم يتحمل تركها بلا راعٍ عطوف» .

بدا كأن كرانجا لم يسمعه ، لانه لم يقم بأية حركة من مكانه عند المنضدة .



الفصل
الحادي عشر

كان المفروض ان تبدأ حفلة التوديع في فندق غيثيما في تمام الساعة الثامنة . ذهب جون تومبسون وزوجته مارجري مبكرين ، لكنهما وجدا بعض الضيوف قد وصلوا قبلهما . لم يستطع الدكتور براين او دونوغو ، مدير محطة الابحاث الزراعية والغابات ، الحضور لانه كان قد سافر الى لجنة الغابات العالمية في سولزبري . انه طويل نحيف يلبس نظارة ذات اطارين كبيرين ولم يره احد في غيثيما دون كتاب تحت ذراعه . على اية حال ، جاءت زوجته فترة قصيرة . وقد تعزز التمثيل الرسمي بحضور معاون المدير وزوجته ورؤساء الاقسام في الدوائر المختلفة . وفي غضون ساعة واحدة امتلأت القاعة الكبيرة بالرجال والنساء بازياء متنوعة ، فقرعوا الكؤوس وتبادلوا النكات والضحكات .

في البداية كان السيد والسيدة تومبسون محط انظار الحفل الرسمي . ثم توجهت نظرات الحسد والاستنكار الى زوجتي المديرين . انهما تسيطران على الموقف . الا يمكنهما ان تعطيا احداً فرصة للحديث مع السيد تومبسون . (مسكين جون العزيز ، أحبه كثيراً ، اي سلوك واي إخلاص ، هل يمكن ان يعامل رجل بأسوأ

مما عاملته به حكومته ؟) بحثوا في قلوبهم فوجدوا انهم احبوا جون دائماً ، وان مارجري كانت صديقتهم الخاصة . ماذا يمكنهم ان يفعلوا لمساعدتهما على الاستقرار في بيتهما القادم !

ان رحيل تومبسون ويوم الإستقلال مساء الغد ذكرهم بالرجل الذي كان محور الفضيحة في ريرا . كان تومبسون ضحية . هكذا استقبل في غيثيما ، وهكذا يعد الان ليلة مغادرته البلد الذي خدمه باخلاص .

عندما غادر الممثلون الرسميون اكتسبت الحفلة حياة جديدة . تجمعت النسوة حول تومبسون . ماذا سيفعل ؟ هل وجد عملاً ؟ أليس من العار على الحكومة البريطانية ان تنسىٰ رجالاً كانت قد شجعتهم وارسلتهم الى الخارج ؟ كل ذلك بسبب خضوعها للعنف الافريقي . الم تر ما حدث في اوغندا وتانجانيقا ؟ اندفع الصينيون والروس ليؤسسوا سفارتيهم . كانت السيدة ديكنسون ، مسؤولة المكتبة ، اكثر المتحدثين حماساً . وقد توقعت ان تحل الفوضىٰ بعد الاستقلال . حجزت هي وصديقها روجر ميسون تذكرتي سفر الى اوغندا حيث يمكنهما تجنب العنف الذي لابد من ان يشن على البيض في كينيا . كانت تقول : «انني استطيع ان ارى كل شيء الان . خلال عشر سنوات ستصبح كل هذه الاقطار تابعة لروسيا . والاسوأ من ذلك ان تكون تابعة للصين» . صاحت امرأة اخرى : «انت قدمت استقالتك ، أليس كذلك ؟ الان فكر في ذلك ، وانا ...» كان بعضهم يريد ان يعرف لماذا اتخذ تلك الخطوة . وانسحب اخرون كي لايحرجوا جون (جون المسكين ، تأوهوا ثانية وهم يلقون

نظرة استنكار على مارجري المحاطة بالرجال . انها الطريقة نفسها التي تصرفت بها مع ذلك السكير . لاغرابة في ان يبتعد جون عن مشهد العار) .

كانت الدكتورة ليند تتحدث الى روجر ميسون عن عملها ، لكنها لم ترفع نظراتها عن تومبسون . تحدثت بتواصل جعل روجر ميسون ، الرجل الطويل ذا الشاربين الاشقرين ، ضجراً مع انه لم يحاول الابتعاد عنها .

ـ «منطقة غيثيما ؟ اوه ، لا بأس بها . وعلى الرغم من ان معظم البطاطس مصابة بامراض فطرية ، الا انه يمكن معالجتها بسلفات النحاس . غير ان البطاطا المصابة بامراض بكتيرية لايمكن معالجتها . هذا المرض يؤثر في معظم انحاء كينيا وبخاصة المزارع الافريقية . اوه ، نعم . لقد قمنا بتجارب عديدة ، مثل التجربة التي اقوم بها الان ، ان ازرق بكتيريا معينة في النبتة لتتبع طريق المرض . ولكن ، آه ! اسمح لي ـــ» .

أسرعت حيث وقف السيد تومبسون واستطاعت ان تنفرد به . قادته تدريجياً الى احدى الزوايا واجبرته على الجلوس . بدت عصبية المزاج فتوقع ان تحدثه عن حادثة الكلب .

ـ «هل تذكر الحادثة التي اخبرتك بها امس ؟»

ـ «الكلب ؟»

ـ «كلا ، كلا ، انها ـ انها قصتي»

ـ «نعم»

ـ «هل تذكر ما اخبرتك به عن الصبي في البيت ؟»

ـ «نعم»

ـ «لم يلق عليه القبض»

ـ «نعم ، اعتقد انك اخبرتِني بذلك»

ـ «انا خائفة ، لااعرف ماذا أفعل»

ـ «لماذا ؟ ماالذي حدث ؟»

ـ «لأني ، لأني رأيته ثانية ـــ»

ـ «متى ؟»

ـ «أمس»

عند الساعة الحادية عشرة بدأ الناس يسكرون ويرقصون . وقف النُدُل الافارقة مثل الاعمدة بصديرياتهم البيض وبالاحزمة الحمراء حول خصورهم والقبعات الحمر فوق رؤوسهم .

تجمع الرجال حول مارجري وهم يلتهمون جسدها بنظراتهم . ثم سحبتهم زوجاتهم واحداً بعد الاخر . لم يبق معها غير رجل بدين ذي لحية طويلة وحاجبين قلقين . بدأت نظراتها تستنجد بزوجها الذي لم يرها لأنه كان حينئذ منهمكاً مع الاخرين في حديث عن السياسة ويوم الاستقلال ومصير الرجل الابيض في ظل حكومة سوداء .

سحبها الرجل ذو اللحية الطويلة الى حلبة الرقص وهو يقول «انه لمنطقي ، اليس كذلك ؟»

ـ «اين المنطق في الامر ؟» كانت تتثاءب ، وقد عجزت عن اخفاء ضجرها . تذكرت صفات عشيقها السيئة .

ـ «اننا جميعاً نسكر ، ايه ؟ لاادري لماذا اتصرف هكذا اليوم

(فواق) ، ونتيجة لذلك (فواق) ، انت ...»

سمعت فجأة صوت قدح يقع منكسراً فوق الارض . توقف الجميع عن الرقص والحديث ، نظرت مارجري الى المجموعة التي تحيط بزوجها . كانت يده الفارغة معلقة في الهواء كأنه يرفع كأساً الى فمه . استدارت كل العيون اليه اسرعت مارجري ووضعت يدها في يده مبتسمة مشجعة . جاء نادل أفريقي بمكنسة واناء تنظيف فجمع قطع الزجاج . انتهى الصمت . عاد الحديث كأن شيئاً لم يحدث .

قاد جون السيارة ببطء وسط الظلام . ادركت مارجري انها ترى غيثيما اخر مرة فانشدت الى زوجها .

ـ «قبل الحفلة لم اشعر باننا سنرحل حقاً . الان يبدو كل شيء كأنه يخص الماضي»

استمر في قيادة السيارة وهو يتجنب طريق البيت . توقف عند حافة الغابة واشعل سيجارتين . ادركت مارجري فجأة ان فان دايك ضاجعها في ذلك المكان . بدأت تدخن بعصبية وهي تنتظر ان يوجه اليها زوجها الاتهام .

قال اخيراً : «ربما لاتكون هذه نهاية الرحلة»

ـ «ماذا ؟»

أكد بصوت أجش : «اننا لم نهزم . لايمكن لأفريقيا ان تعيش من دون اوربا»

نظرت اليه مارجري ولم تقل شيئاً .

الفصل
الثاني عشر

حين عاد جيكونيو الى البيت في المساء لاحظت مومبي ان مزاجه متعكر اولاً ، لم يكلمها . ذلك لم يكن غريباً . وعندما قدمت له الطعام القى عليه نظرة ثم استمر يحدق الى الجدار . وهذا ايضاً لم يكن غريباً . ولكنها الطريقة التي كان يتنفس بها كأنه يكتم تأوهاً . ذلك ما اقنعها بأن شيئاً ما قد حدث . وعلى الرغم من انها تخشاه وتخشى مزاجه إلا انها لم تستطع الا ان تتدخل في شؤونه .

سألت بخضوع : «ما الأمر ؟»

أجاب : «منذ متى أناقش همومي معك ؟» انسحبت بخجل . ماالذي حدث له خلال الايام الاخيرة ؟ لم تكن تعلم ايهما افضل ـ التعامل الرسمي المؤدب الذي اتبعه اولاً ام المحاولات الحالية لايذائها بالكلام .

بعد برهة قالت ببرود : «كان موغو هنا اليوم . قال انه لن يشارك في الاحتفال» صرخ : «ماذا ؟» وكأنها مسؤولة عن مواقف موغو . لكنها لم تجب .

ـ «أليس لك اذنان ؟ انني أتحدث اليك . ماالذي قاله ؟» .

ـ «يبدو انك تريد خلق المشاكل هذه الليلة . ألم تسمعني ؟ قال

موغو انه لن يقود احتفالات الاستقلال» .

علق على كلامها : «يجب ان تفتحي فمك عندما تتكلمين ، لا ان تتكلمي واسنانك مطبقة . لا احد يعجبه ان يرى اسنانك» . ثم استعاد جلسته السابقة .

كان يمكن ان تعود الامور الى مجراها الطبيعي (التعامل الرسمي المؤدب وغير ذلك) لولا دخول الطفل راكضاً الى الغرفة . كان جيكونيو ، سابقا ، يعامل الطفل ايضاً بلطف ولكنه لايظهر حباً او بغضاً ، لانه ناقش الامر مع نفسه ووجد ان الطفل يبقى طفلاً ، وليس هو المسؤول عن ولادته . أحس الطفل بذلك البرود وبدأ غريزياً يحترم المسافة بينهما . في هذا اليوم حشر نفسه بين ركبتي جيكونيو وبدأ يتحدث باسلوب ودي .

ـ «اخبرتني جدتي بقصة جميلة ، قصة جيدة عن ـ عن ، اتعرف تلك القصة عن اريمو ؟»

دفع جيكونيو الطفل بخشونة من بين ركبتيه والاشمئزاز ظاهر على وجهه . ترنح وسقط على ظهره باكياً . نظر الى امه لتفسير الموقف . نهضت مومبي وقد جفف الغضب حنجرتها فترة .

اهتاجت مثل نهر كسر السد ، وتدفقت كلماتها كالفيضان حتى امتلأ فمها وصعب عليها النطق :

ـ «اي نوع من الرجال تسمي نفسك ؟ ألا تملك شجاعة رجولية كافية لتلمسني ؟ لماذا توجه غضبك الجبان الى طفل صغير ..؟»

صرخ وقد نهض على قدميه : «اخرسي يا امرأة»

ـ «تظن انني يتيمة ، أليس كذلك ؟ تظن ان بيت أبي سيوصد

بوجهي ان تركت هذا القبر ؟»

ـ صرخ ثانية : «سأجعلك تغلقين فم البغي هذا» ثم صفعها على خدها الايسر وعلى خدها الايمن . انقطع فيض الكلمات . حدقت اليه وقد امسكت بدموعها . هرع الطفل خارج البيت وهو ينادي جدته .

قالت بهدوء : «كان عليك ان تخبرني بذلك من قبل» . مازالت تمسك بدموعها . جاءت وانغاري مسرعة الى الكوخ والألم ظاهر على وجهها . كان الطفل يسير على مسافة خلفها . وقفت وانغاري بين جيكونيو وومبي .

سألت وهي تواجه ابنها : «ما الذي حدث ايها الاولاد ؟»

قالت مومبي : «لقد دعاني بغياً . انه يحتفظ بي هنا كبغي .» تهدج صوتها واستسلمت للبكاء .

سألت وانغاري ابنها : «جيكونيو ، ما سبب كل ذلك ؟»

قال : «هذا شيء لايخصك يا أماه»

رفعت صوتها وهي تلطم جانبيها بيديها : «لايخصني ؟ فليأت الناس جميعاً ليسمعوا مايقول الإبن ، إبني . لايخصني انا التي انجبتك من بين هذين الفخذين ؟ لابد ان يأتي اليوم ـ هه ؟ المسها ثانية اذا كنت تسمي نفسك رجلاً !» تصاعد غضب وانغاري حد انها فقدت السيطرة على نفسها . اراد جيكونيو ان يقول شيئاً لكنه استدار فجأة وخرج من البيت .

قالت لمومبي بلطف : «والآن توقفي عن البكاء واخبريني بما حدث» . كانت مومبي قد جلست وهي تنشج وتبكي .

توجه النهر الى مجرى اقل مقاومة واتخذ غضب جيكونيو اتجاهاً

اخر . وقد حدث ماحدث لان مومبي كانت قريبة منه . اصطدم وجهها وصوتها به عندما كانت الجدران التي تحرس حياته في أضعف حالاتها .

تذكر جيكونيو حديث الأمس مع النائب فقام بزيارة الرجال الخمسة الذين اتفق معهم . درسوا موقفهم وقرروا توسيع شركة الارض ورفع سعر الاسهم ثم دعوة الناس الى شراء تلك الاسهم . بهذه الطريقة سيجمعون المال الكافي لمزرعة برتون . بعد الظهر ذهبوا لرؤية السيد برتون والتأكد اذا كان يقبل مبلغاً كبيراً كقسط اول ، على ان يدفعوا الباقي في نهاية الشهر . واذا تحقق القرض الذي وعد به النائب فانهم سيستعملونه في تطوير المزرعة . كان الشيء الاول الذي لاحظوه عند مدخل مزرعة التل الاخضر الرئيس (كما كانت تسمى مزرعة برتون) هو لوحة جديدة . لم يصدق جيكونيو عينيه عندما قرأ الاسم . عادوا الى البيت دون ان ينبسوا ببنت شفه ، لكنهم جميعاً عرفوا ماحدث . لقد غادر السيد برتون كينيا الى انجلترة . واصبح نائبهم هو مالك الارض الجديد .

حاول جيكونيو ان لايفكر في متاعب ذلك اليوم وخصامه مع مومبي حين ذهب الى كوخ واروي . كان واجبه الاول نحو الحزب . كما انه اراد ان تنجح احتفالات الاستقلال لان ذلك يعزز نفوذه ومركزه . كان واروي في الكوخ يتناول الشموم قرب النار . فكر جيكونيو ، ما الذي يجعل رجلاً مثل واروي قانعاً بالحياة على الرغم من كبر سنه وموت زوجته . تناول كرسياً وجلس قرب واروي وهو يستمع الى كلمات الترحيب الودية . أحقق ذلك لانه عاش حياته

كاملة رجلاً وزوجاً وأباً ، ام لانه نذر حياته للاخرين ؟ لقد حققت امنيتي : امي تملك بيتاً تعيش فيه ، وانا املك قطعة ارض ونقوداً تكفي لطعامي وشرابي ، الا اني الان لا اتمتع بالنقود واحس بطعم الثروة كالماء المر في الفم . مع ذلك علي ان ابحث عن المزيد .

لم يكن واروي قانعاً بالحياة كما اوحى مظهره لجيكونيو . كان فقط يتمتع بحياة ايجابية ويرفض الاستسلام للفشل . ماتت زوجته قبل عام . كانت موكامي معجبة بزوجها وتعتز بغناء قصائده للنساء الأخريات . وكان واروي يجلب لها ماتحب كل مساء ، ويحكي لها كل ما صادفه في يومه . وان لم يكن هناك ما يستحق الاهتمام فانه يحكي لها قصصاً قديمة عن ميلاد الحزب وانفصال جيكونيو عن البعثات التبشيرية وكذلك عن المظاهرة التي قادها هاري . واعتادت موكامي ان تلومه على ادعاءاته ، لكنها تتمتع بكل حكاية عن شجاعة زوجها وقوته .

ان خيبة الامل الرئيسة في حياة واروي تكمن في اولاده الثلاثة . لقد جندوا للقتال الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية . مات الاكبر في اثناء تأدية الخدمة وعاد الاخران مذهولين لامن المصاعب واعمال العنف في الحرب ، انما من غرابة الاراضي والنساء هناك . لم يمسهما احد خلال فترة الطوارىء لانهما تحاشيا الذهاب الى الغابة او الى معسكرات الاعتقال بالركوع والتذلل للجانب الاقوى في اي مكان او زمان . بعد الطوارىء عادا الى الوادي الصخري ليستقرا في ارض كانت ملكاً للبيض . كان كامو ، وهو الاكبر ، يؤمن بقوة البريطانيين . اعتاد ان يقول بصوت يوحي انه يعرف اكثر مما

يقول :

ـ «انصحك ان تخشى الرجل الابيض اذا رأيته . لقد شاهدت بعيني مافعله بهتلر على الرغم من ان الالمان ليسوا صبياناً . ماذا بمستطاع كيهيكا ورجاله ان يفعلوا ببنادقهم المحلية وفؤوسهم القديمة ورماحهم الصدئة ؟»

لقد وضع واروي ايمانه برب الامة او ما كان يسميه روح الشعب الاسود . آمن بان الناس من نوع هاري وجومو يمتلكون قوى غيبية ، وكانت خطاباتهم تؤثر فيه حد البكاء . وفي مثل تلك الحالات يروي قصة انتفاضة عام ١٩٢٣ وينهيها دائماً بالعبارة نفسها : «لو كانت لدينا رماح ....» وهو يؤمن ايضاً بموغو . وقد رغب في ان يكون اولاده مثله فيستخدمون المقاييس نفسها التي جعلته سنوات طويلة يتنبأ ، بدقة مذهلة ، بظهور الابطال الوطنيين . كان يقول لزوجته انه يرى ذلك في عيني الانسان . لكن موكامي ماتت واولاده خيبوا ظنه . بعد ان تبادلا كلمات المجاملة دخل جيكونيو في موضوع زيارته :

ـ «يقول موغو انه لن يقود الاحتفال» .

ـ «ماذا تقول ؟ كنت معه هذا اليوم ، بل هذا المساء ، ولم يقل شيئاً» .

ـ «مع ذلك يقول انه لن يقود الاحتفال . انه رجل غريب يصعب فهمه»

ـ «الان فهمت . كان يبدو منزعجاً عندما تحدثت اليه» .

ـ «لقد جئتك حتى نذهب اليه مرة ثانية . والا سنختار رجلاً اخر . الوقت قصير» .

وفي طريقهما الى موغو تحدث جيكونيو عن خيبة امله في قضية مزرعة التل الاخضر .

سأل واروي : «ولم يخبرك بانه اشتراها عندما رأيته امس ؟»

ـ «كلا ، لم يخبرني . استطيع القول انه لم يكن يريد ان يحدق الى عيني» .

اراد واروي ان يخبر جيكونيو عن قصة الشعب الذي ثار على حكم النساء اللواتي اثرين ونسين مسؤولياتهن . لكنه تمتم : «ان الالهة التي تحكمنا ستنتشر على قلوب معبوديها» .

لم يجب جيكونيو ولم يتحدثا اكثر حتى اقتربا من كوخ موغو . قال واروي : ان المثل القديم يتحقق .

عندما كان موغو صبياً ذهب مرة الى محطة القطار في رونجي ليشاهد القطارات . تمشىٰ على الرصيف فراعه منظر قطار البضائع والحمولة ذي العربات الكثيرة . رأى في بعض العربات خيولاً وحيوانات كبيرة . نظر اليه حصان من العربة وهو يتثاءب فاتحاً فمه الكبير بفكيه القويين . ارتجف موغو رعباً وتجمدت حركته برهة من الزمن . خاف ان يسقط على الارض وتدوسه أقدام الخيل .

أحس موغو بالرعب نفسه عندما غادر مومبي والجنرال ، كأن احداً ما يتعقبه ولا يستطيع الهرب منه . اراد ان يعود الى كوخه بسرعة فحث خطاه لتحقيق ذلك . انسحب فكره بشكل لايقاوم الى حياة الاخرين . حاول ان يفكر في شيء اخر ، في نفسه او في عمته ، غير انه لم يستطع الهرب من قضية جيكونيو ومومبي .

كانت الشمس حارة جداً وكان الاطفال يلعبون في الشارع . رأى

امس ، يوم الاحد ، هذه الاكواخ كموضوعات لاعلاقة له بها . كان ليلة امس وصباح اليوم ، قبل ان تخبره مومبي بقصتها ، يجوب تلك الاكواخ ولم يغن شيئاً من الماضي . تغيرت الان الاشياء كلها : الاكواخ ، التراب ، الخندق ، وامبوكو ، كيهيكا ، كرانجا ، معسكرات الاعتقال ، الوجه الابيض ، الاسلاك الشائكة والموت . عرف القبور قرب الخندق . ارتجف من البرد وتحول الخوف من أقدام الخيول الى رعب من اكتشاف لايريده . قبل عامين ، في معسكرات الاعتقال ، لم يكن يهتم كيف استلقت وامبوكو في القبر وماذا كان شعورها . لكن قصة مومبي استطاعت ان تشرخ جداراً في عالمه الداخلي وتطلق الافكار والمشاعر الحبيسة . ان اهمية كلماتها وملامح الجنرال امتزجت باحداث الماضي . في السابق كان ينظر الى احداث الحياة منفصلة عن بعضها . قدر للاشياء ان تحدث في اوقات مختلفة . لايملك الانسان خياراً في اي شيء ، كما لايملك خياراً في ميلاده . ولذلك لم يجهد ذهنه في ربط ماحدث من قبل بما حدث بعده . أسرع الخطىٰ دون ان يفكر في بداية الطريق او نهايته .

توقف موغو في وسط شارع القرية الرئيس وقد ادهشه توغله داخل القرية . تراكمت الاحداث عليه . انتزع نفسه بصعوبة ليقطع طريقاً عبر التل . ولكنه انسحب ثانية الى الخندق وبدا عاجزاً عن مقاومة العودة الى الامس . كانت جدران الخندق قد بليت وبدأ التراب ينهال الى القعر . كانت قشور البطاطا والذرة المتعفنة وقصاصات الورق والعظام واللحم المتعفن منتشرة على حافات

الحفرة التي اصبحت ضحلة الان .

اجتازت ثلاث نساء يحملن الخشب تلك الحفرة باتجاه القرية .

سار موغو وهو يأمل ، بفضول مذنب ، في ان يصل الى الجزء الذي ساهم في حفرة . استثير في داخله الفزع والترقب والقلق . سيثبت عينيه في المشهد ولا يرمشهما .

اكتسب المشهد من جديد حيوية . كان يعمل على بعد خطوات من المرأة . عمل في المكان نفسه ثلاثة ايام . قفز رجل الحرس الى الخندق وضرب المرأة بالسوط . احس موغو بان السوط يأكل في جسده وان صرختها تخرج من قلبه . لم يكن يعرفها لانه رفض التعرف على اولئك المجاورين له والذين يعانون مثل معاناته . في تلك اللحظة لم ير غير المرأة والسوط والحرس . استمر اغلب الناس في الحفر متظاهرين بأنهم لم يسمعوا صرخاتها خوفاً من ان ينالهم العقاب نفسه . والاخرون اختلسوا النظر الى المرأة ثم انهمكوا في عملهم . اندفع موغو برعب وامسك بالسوط قبل ان يستطيع الحارس انزال الضربة الخامسة بها . اسرع حراس اخرون مع اثنين او ثلاثة من الجنود الى مكان الحادث . توقف الناس قليلاً عن الحفر وراقبوا السياط وهي تنزل فوق جسد موغو . قال بعضهم «انه مجنون» بعد ان اخذ موغو في عربة الشرطة . بقي المشهد ، بالنسبة الى موغو ، كابوساً لم يستطع ان يحدد ابعاده او يعيد تركيبه في اثناء التحقيق السري الذي اعقب الحادث . استطاع فقط ان يرى وجه الرجل الابيض خلف المنضدة وعينيه الباردتين اللتين تتفحصان موغو من قمة رأسه حتى اخمص قدميه . واخيراً جاءه

الصوت مليئاً بالسم كأنه خارج من جسد ميت .

ـ «هل أديت القسم ؟»

ـ «كلا ، كلا افندي»

ـ «اعيدوه الى السجن»

سحبه شرطيان الى الخارج ثم صبا عليه ماءً بارداً واقفلا عليه باب السجن . من الغريب ان ينس موغو الاحذية ذات المسامير الناتئة التي حفرت في جسده بينما يتذكر دائماً الماء البارد فوق الأرض الإسمنتية .

نظر موغو الى الرجال والنساء الذين يعملون في مزارع تحيطها الاعشاب الكثيفة الممتدة اليها من الحفرة التي كانت يوماً ما خندقاً . كان يرى الاشياء كأنها جديدة عليه . هل يفعل ذلك كل الناس خلال النهار ، ينبشون الارض من اجل الطعام ؟

اضمحل فجأة الفضول الذي قاده الى الخندق واراد الهرب من الذكريات التي تدق طبولها في رأسه ، اخترق القرية ، بدا كوخه هو المكان الآمن الوحيد . تمنى لو يستعيد حالة النسيان التي عاشها قبل ان يسمع قصة مومبي وينظر الى عينيها . ان التراب الذي اثاره عند عودته الى الكوخ كان يتطاير في اعقابه .

في ذلك الوقت التقى واروي وموغو في الشارع . كان واروي قادماً من اجتماع صغير خارج بيت المرأة العجوز . كان واروي يبدو لموغو كالشبح الذي يبعث الضيق في النفس . لقد احتقر واروي دون ان يعرف السبب . ربما لان وجه واروي حمل هموم افكاره ، الا ان موغو لم يدرك ذلك .

بدأ واروي قائلاً : «كانت مثل هذه الامور تحدث في الماضي» وكأن موغو يعرف ماكان يفكر فيه .

ـ «اية امور ؟» كانا يسيران بطيئاً في الاتجاه نفسه .

ـ «ألم تسمع ؟»

ـ «ليس هناك شيء غير عادي»

ـ «هذا الامر غيرعادي . في الحقيقة لم تكن مثل هذه الامور تحدث دائماً ولكن مرة او مرتين . ولكنها تحدث . حين يموت رجل او طفل فإنه يرمى في الغابة . عندما كنت شاباً رأيت بعيني رجلاً يعود من عالم الموت» .

سأل موغو بنفاد صبر : «ما الذي حدث ؟»

ـ «انت تعرف المرأة العجوز ، وتعرف انه كان لها ولد أبكم بالولادة» .

تحفز موغو لدى ذكر المرأة العجوز . تلاشى الغثيان الذي احسه عند رؤية واروي . لم يستطع انتظار واروي ليروي القصة بطريقته . تذكر موغو انه كاد يدخل كوخ المرأة العجوز يوم الاحد الماضي . هل ماتت ؟

ـ «ماذا حدث لابنها ؟ لقد قتل . اخترقت الرصاصة قلبه في فترة الطوارىء . ويمكن ان تتصور كم سبب لها ذلك من ألم . وخلال كل هذه السنوات لم تغادر كوخها ولم تتحدث بكلمة واحدة الى اي انسان . الان بدأت تتكلم . هكذا فجأة . ما الذي تقوله ؟ ان ابنها عاد ، وانها رأته مرتين» .

علق موغو : «شيء غريب» .

ـ «ذهب مرة الى الكوخ وخرج منه دون ان يقول شيئاً . لذلك

أبقت الباب مفتوحاً عدة ايام كي يستطيع جيتوغو الدخول عند عودته . تقول انه عاد مؤخراً ووقف عند الباب ثم رحل ثانية دون ان يقول شيئاً . انها تتكلم . تتكلم باستمرار»

كرر موغو قوله بخوف : «شيء غريب» .

ـ «نعم . هذا ما اقوله . انه شيء غريب في قريتنا . واظل اقول ذلك كلما رأيت اشياء حدثت مرة او مرتين في الماضي تحدث مرة اخرى لتعكر صفو امرأة وتقلق راحتها . ان اولئك الذين يدفنون في الارض يجب ان يظلوا في الارض . والامور التي تخص الماضي يجب ان تظل ضمن الماضي» .

عندما استطاع ان يخلص نفسه من واروي وجد موغو ان الحادثة قد ازعجته بطريقة لم يجد لها تفسيراً . تجول في الشوارع وهو يفكر في المرأة العجوزة وفي الرابطة المرعبة التي تشدهما . حاول ان يطرد الحادثة من ذهنه فوجد نفسه يغرق في فكره اخرى وهي ان يلتقي شبح إنسان ميت . بدت الحياة نفسها تجواباً لامعنى له . ليست هناك اية علاقة بين الشروق والغروب ، او بين اليوم والغد . فكر وهو يتذكر المرأة العجوز ، لماذا يزعج نفسه بما كان ميتاً . سمع صوت مومبي في قلبه مباشرة ، ورأى وجه الجنرال ينظر اليه . توقف في مكان مفتوح في القرية . تهدلت شفته السفلى وخارت قواه . أسند جسده الضعيف الى شجرة صغيرة وانزلق تدريجياً الى الارض المعشوشبة . امسك برأسه بين يديه . لست انا . كان يهمس لإقناع نفسه ، لست انا . كان ذلك سيحدث . قتل الرجال والنساء في الخندق .. حتى لو .. حتى لو .. بدأ يئن . صوت مومبي سكين

يقطع قلبه ويرميه اليه عارياً . شارع الكوخ يؤدي الى الخندق . ولكن ألم يكن يحدث ذلك ؟ كان لابد للمسيح ان يموت على الصليب بأية حال . لماذا يلومون يهوذا وهو حجر قذفته يد تفوق الانسان قوة ؟ كيهيكا .. صلب .. لمعت الفكرة في ذهنه وحدث شيء غريب . رأى موغو دماً اسود ينز من جدران كوخه . لماذا لم يره من قبل ؟ في تلك اللحظة كان يفكر بهدوء وبلا خوف . لكنه كان يرتجف عندما اتجه الى كوخه . وقرر ان يتأكد من وجود الدم هناك . لم ير شيئاً على الجدار . جلس على سريره ووضع رأسه بين يديه . هل كان رأسه يتصدع ؟ بدأ يفكر وينظر ثانية الى الجدار .

كان الظلام قد حل حين وصل واروي وجيكونيو لزيارة موغو .

أخبرهما : «أحس بألم في رأسي . لا استطيع . لا استطيع ان أواجه تلك الكثرة من العيون» .

قال واروي وهو غير قادر على رؤية الاشياء بوضوح في عتمة الكوخ :

- «تناول أسبرو . انه سيهدىء ألم رأسك . هكذا تقول الاغنية»

ضحك لوحده بهدوء . ثم صمت فجأة وقد تذكر حديثه المبكر مع موغو عن المرأة العجوز .

قال جيكونيو : «ارجوك فكر ثانية» ثم غادر كل من واروي وجيكونيو الكوخ . حيرت جيكونيو نظرة الرعب التي ارتسمت على وجه موغو . تذكر واروي انه لم يخبر جيكونيو عن المرأة العجوز .

رفض جيكونيو تصديق القصة : «انها صور في المخيلة فقط» ، وبدأ يفكر في مومبي ، احس فجأة برغبة في ان يضربها ،

يضربها ضرباً حقيقياً ويبقيها في البيت . ولن يسمح لأمه بالتدخل هذه المرة .

اتجه واروي الى بيت وامبوي واخبرها برفض موغو . ثم ذهب واروي ووامبوي الى بعض الاكواخ الاخرى واخبروهم بالقصة نفسها . وهكذا انتقل الخبر من كوخ الى اخر . ان الرجل الذي عانى كثيراً يكشف عن عظمته في تواضعه ، فبرفضه القيادة أصبح موغو بطلاً اسطورياً .

فكر جيكونيو ، الى أين يتجه الانسان . واسرع لينفس عن غضبه في مومبي . كان غاضباً على الجميع ، على النائب (لماذا ينتخب هؤلاء الناس ! ليثروا فقط) ، وعلى موغو (ماذا يظن نفسه ؟) وعلى مومبي (ظننت ان الزواج يجلب لي السعادة) .

ارتعش غضباً وهو خارج البيت . لن يستطيع احد ايقافه . سيضرب مومبي حتى تصرخ طلباً للرحمة .

اندفع يفتح الباب بقوة . حدق الى عيني وانغاري .

ـ «لقد ذهبت الى بيت ابويها . هل رأيت كيف هدمت بيتك ؟ انك دفعت امرأة طيبة الى حياة البؤس من اجل لاشيء . لنر الان ماالفائدة التي تجنيها من تسميم افكارك بهذه الاشياء . كان عليك ان تقبل بالامر الواقع وتبحث عن افضل وسيلة لإعادة بناء حياتك . الا انك مثل طفل أحمق لم ترغب في معرفة ماحدث ولا عرفت أي نوع من النساء كانت مومبي» .

في الظروف الاعتيادية يعرف جيكونيو ان وانغاري غاضبة أو مجروحة جرحاً عميقاً عندما تتحدث ببرود ، لكنه هو الآخر كان

غاضباً جداً وعاجزاً عن تحويل كل الافكار التي مرت بذهنه الى كلمات .

صاح وهو يحدق الى أمه : «عسىٰ ان لا تعود ابداً» وكان يحسبها جزءاً من مجمل المؤامرة على حياته . نهضت وانغاري وهزت اصبع يدها اليمنىٰ في وجهه :

ـ «انت ، انت، لو كنت اليوم طفلاً تزحف على ركبتيك وتأكل الطين والتراب لقرصتك من فخذيك بقوة حتىٰ تتعلم . لكنك الآن رجل . اقرأ ما في قلبك واعرف نفسك» .

خرجت وتركت جيكونيو وحيداً في بيته الجديد .

الفصل

الثالث عشر

نحن اهالي ثاباي رأيناه أول مرة في سوق رونجي الجديد يوم كان المطر يهطل بغزارة . انتم تذكرون يوم الاربعاء ، قبل يوم الاستقلال مباشرة ؟ كانت الريح عاصفة وخطوط المطر تنزل الى الأرض مائلة . تركت النساء جرارهن مفتوحة والتجأن الى الحوانيت لحماية أنفسهن . ثم تجمعن تحت الشرفات الضيقة ، كان الماء ينهمر من الأكياس ومن قطع القماش التي تغطي رؤوسهن . وقد تجمعت برك صغيرة على الأرض الاسمنتية ، قال الناس ان المطر يبارك الحرية التي حصلنا عليها بمشقة ، ان موورونغو الذي في السماء لا ينام . انه يدع دموعه تسقط على هذه الأرض من آغو وأغو . وقد اعتدنا نحن الصغار أن نغني :

نغاي أعطى جيكويو بلداً جميلاً
ليس بلا طعام أو ماء أو حقول معشبة
انها جيدة . لذلك يجب على جيكويو
أن يحمدوا نغاي دائماً
لأنه كان كريماً معهم دائماً .

لقد أمطرت حين عاد كينياتا من انجلترة . وأمطرت يوم عاد من

مارالال الى غاتوندو . رأينا الرجل يسير في المطر . كان يحمل على ظهره سلة قديمة قذرة مليئة بالخضراوات والبطاطا . وكان طويلاً عريض المنكبين ذا انحناءة بسيطة توحي بالقوة . ان وجوده وحده تحت المطر لفت انظار الناس على طول الارصفة وشرفات المحلات . حاول بعضهم أن يتدافعوا لرؤيته .

ـ «ماذا يفعل ؟ يخوض في المطر ؟»

ـ «لابد أنه اصم وأبكم»

ـ «لو اردت رأيي ، فانه يتباهى»

ـ «ربما كان طريقه طويلاً ويخشىٰ ان يحل الظلام»

ـ «مع ذلك ، كان عليه أن ينتظر حتىٰ يخف المطر . والا ما فائدة وصوله البيت وهو يحمل المرض في عظامه ؟»

ـ «ربما يحمل هماً ثقيلاً في قلبه»

ـ «ذلك لا يجعله يبلل نفسه حد المرض . من منا لا يحمل هماً في قلبه ؟»

اقترب الرجل من زاوية الطرف البعيد لحوانيت رونجي . تحدثت النسوة عن المخاطر التي يواجهها الناس نتيجة تعرضهم للماء . ثم اختفىٰ الرجل . ضاع خلف الحوانيت .

ـ «ماالذي يمنعه من الإحتماء ؟»

قالت وامبوي بتفكير : «ان موغو رجل غريب»

كان موغو قد ذهب الى السوق لشراء بعض الطعام . بعد أن شق طريقه بين الناس وبين صفوف النساء الجالسات أحس أنه مراقب وندم على مجيئه الى ذلك المكان . اختفت الشمس قبل أوانها واعتمت

السماء والأرض . هبت ريح باردة حملت معها قصاصات الورق والخرق البالية والحشائش التي كانت تدور في الهواء ، تجمعت الغيوم بسرعة في السماء . ظهرت ومضات سريعة من البرق اعقبها رعد هادر . وفجأة سقط المطر . كان موغو يعاني من مخاوف أخرىٰ مثل استعادة مشاهد الموتىٰ العائدين الى الحياة . تذكر شياطين المرأة في الحانوت الهندي قديماً ، فهرب .

في مكان ما انطلقت امرأة بترديد اغنية الخندق التي صارت في فترة ما نشيداً وطنياً . شارك الجميع في الغناء .

وقفز في الخندق

الكلمات التي قالها للجندي وخزت قلبي مثل الرمح

قال : لن تضرب المرأة

قال للجندي : لن تضرب امرأة حبلىٰ

توقف العمل في الخندق

سكنت الارض ايضاً .

عندما اخذوه بعيداً

نزلت الدموع ، حمراً كالدم ، على وجهي .

كان الناس يتهامسون باسم موغو ، وانتشرت عنه قصص غريبة خصوصاً بين نساء السوق . لم يكن يحدث ذلك في يوم عادي من ايام السوق . لكن ذلك اليوم ليس عادياً ، فالليلة تحصل كينيا على الإستقلال . وبطل قريتنا موغو لم يكن رجلاً عادياً .

طرحت وامبوكي الامر بهذا الشكل : ان يوم الإستقلال من دونه سيكون تافهاً لاقيمة له . انه كيهيكا يولد من جديد . ثم دارت حول

السوق وقررت ان تنفذ قرارها السري . على النسوة ان يتحركن للعمل ، على النسوة ان ينفذن القرار بالقوة : «انه ، بعد كل شيء ، إبننا» . اخبرت النساء بالأمر خلال تجمعهن العفوي في السوق بعد المطر . ان الروح النضالية لدى وامبوي لم تمت .

لقد آمنت بقوة النساء في التأثير في الاحداث بخاصة عندما يفشل الرجال في العمل او عندما يكون تصرفهم سلبياً . ان الكثيرين من كبار السن في ثاباي يتذكرون مآساتها المشهورة في اضراب العمال عام ١٩٥٠ . كان الغرض من الإضراب ان يشل البلد ويجعل الحكم صعباً على الرجل الابيض . بعض الرجال من عمال معمل الاحذية قرب ثاباي قالوا انهم لن يشاركوا في الإضراب . عقد الحزب اجتماعاً عاماً في رونجي . خلال المناقشات شقت وامبوكي طريقها بين الزحام وهي تقود مجموعة من النساء الى المنصة . التقطت الميكروفون من المتحدثين . هلل الناس لذلك . قالت ، هل هناك رجل بالغ احس بالماء في معدته لدى رؤية الرجل الابيض ؟ ان النساء جئن بملابسهن الى المنصة ، فليتقدم مثل هؤلاء الرجال ليلبسوا تنورات النساء وربطاتهن وليتخلوا عن سراويليهم للنساء . تصلب الرجال في كراسيهم وحاولوا ان يخفوا قلقهم بالضحك . في اليوم الثاني شارك كل الرجال في الإضراب .

اليوم ، قررت النسوة ان يرسلن مومبي الى موغو . مومبي هي اخت كيهيكا . سيواجهن موغو بالشباب الجميل الصامد ، الشباب الذي لايمكن تجاهله . وهكذا ذهبت وامبوي لتبلغ الرسالة الى مومبي . كانت مومبي قد تركت بيت زوجها . لكن وامبوي سعت في

طلبها .

قالت للشابة : «هذا الامر يهم كل اهالي ثاباي . انسي مشاكل بيتك ومشاكل قلبك . اذهبي الى موغو . قولي له ان النساء والاطفال بحاجة اليه» .

كان من الصعب على مومبي ان تخبر ابويها بالاسباب الحقيقية لترك زوجها . لم تخبر أمها أو أباها أبداً بالأزمة التي عاشتها . كيف يمكن ان تخبري الاخرين بان زوجك يرفض النوم معك ؟ ربما يظنون انه عاجز فتنتشر اشاعة كاذبة . على اية حال ، ان عدم معرفة ابويها بقصتها جعلهما لايرحبان بها كثيراً . ان الأبوين لايشجعان ابنتهما على عصيان زوجها . وقد سخرت وانجيكو من الاسباب الواهية التي ادعتها مومبي .

ـ «ان النسوة يدهشنني هذه الايام . انهن لايتحملن من الرجل اية صفعة حتى لو كانت خفيفة كالريشة ، ولا اية كلمة حتى لو كانت بسيطة . في ايامنا ، كانت المرأة تتحمل الضرب القاسي من زوجها دون ان تفكر في الهرب الى بيت أبيها» .

ـ «ألا تهتمين بي ابداً ؟ انني لااستطيع ان أبقى في بيته بعد كل ماقاله لي . لا أستطيع ، لا أستطيع» .

ـ «شش . لاتتحدثي مثل امرأة حمقاء»

ـ «كلا ياأماه ، وان لم ترغبي في بقائي في هذا الكوخ اخبريني حالاً لاذهب انا وطفلي الى نيروبي او الى اي مكان اخر ، نعم ، لن اعود الى ذلك البيت . ربما اكون امرأة ضعيفة ولكن حتى الكلبة الجبانة تدافع عن نفسها حين تحاصر» .

تعاطفت وانجيكو مع مشاعر مومبي لكنها كانت تميل اكثر الى اصلاح ما تمزق .

قالت بصوت ناعم : «سنتحدث في هذا الأمر ياطفلتي»

شيء اخر اثر في نفس مومبي . لم ينسها الحزن ماقاله الجنرال راء . سيقتل كرانجا بسبب الدور الذي لعبه في موت كيهيكا . هل ينفذ ذلك باسم اخيها ؟ من المؤكد ان دماً قد أريق ، فلماذا نضيف جرماً اخر الى هذه الارض ؟ استيقظت في الصباح والمشكلة مازالت قائمة . ولكن من حسن حظها ان يوم الاربعاء هو يوم السوق في رونجي حيث يحضر الناس من القصبات الثماني حول ثاباني . قابلت مصادفة شخصاً ذاهباً الى غيثيما فقررت شيئاً ما بسرعة . تناولت قصاصة ورق (علمها اخواها القراءة والكتابة) وكتبت : لاتحضر الاجتماع غداً . وضعت عنوان كرانجا واعطت الرجل القصاصة . أحست بالارتياح .

في ذلك الوقت توجهت اليها وامبوي والنساء الاخريات طلباً للمساعدة . في بداية الامر نفرت مومبي من التدخل في قضايا تشمل الزوج الذي تركته . لكن خيطاً من التحدي برز في حديثها واخذ يتعزز اكثر فاكثر : يجب ان لايظن جيكونيو انها وحيدة وتعيسة . ماذا لو نجحت فيما فشل فيه هو ؟ اثارها الاستنتاج وبدأت تفكر في المهمة بارتياح .

ازدادت حدة الاثارة في المساء عندما توجهت الى كوخ موغو . كان اليوم معتماً انتشر فيه الضباب ، لذا بدت الليلة اكثر ظلاماً من المعتاد . احست مومبي انها تعود فتاة تتحدى الظلام والعاصفة

لتلاقي حبيبها . ماذا لو ان موغو ـ تركت السؤال والجواب معلقين . ازعجتها فكرة ان يراها زوجها جيكونيو وهي تتحدث الى شخص اخر . اخبرت نفسها بانها حرة ، لتبتعد عن الخوف . كررت بتحدٍ ، فليجدها اذن . مع ذلك تعثرت خطاها ودق قلبها بعنف حين وقفت امام كوخ موغو .

اندفع الدم في عروقها واختلط الخوف بالسرور حين رأت موغو يظهر عند الباب . لكن موغو سد بيديه طريق الدخول كأنه ينتظر تفسيراً . احست بقليل من الخوف .

قالت بخفة كاذبة : «ألا تدعوني الى الدخول ؟»

ـ «اوه ، اسف . تفضلي بالدخول» . لم تر وجهه في الظلام لكنها لم تخطىء ارتجاف صوته . في الضوء لاحظت قلق موغو . اضمحل البعد الذي يعطيه الهيبة واكتست عيناه السوداوان بتلك النظرة التي يراها الانسان في وجوه المدمنين على الشراب . جلس بعيداً عنها كأنه يخشاها . كان انيقاً ووحيداً فعضت على شفتها السفلى لضبط نفسها . نظرت حولها في الكوخ الخالي الذي عكست جدرانه ضوء المصباح الزيتي .

قال : «انه خال بعض الشيء» كأنه يكشف عن افكارها .

ضحكت بعسر : «انه جيد لرجل . ان الأعزب لايحتاج الى اشياء كثيرة» . حيرتها جفوته وعجبت من خوفه الذي يناقض تماماً الاثارة التي بدت في عينيه يوم أمس . مع ذلك تركت افكاراً غريبة تغزو خيالها . ماذا لو أرادني ، ماذا لو ـــ .

قالت بتهجس : «تعرف لماذا جئت» ، وهي تحاول كسر الطوق

الذي احاط به نفسه .

ـ «لا اعلم ـ الا ، الا اذا كان الامر يتعلق بما اخبرتِني امس . أعني ، لم اعرف ماذا كنت تريدين» .

ـ «اوه . اردتك ان تكلم زوجي . انه يستمع الى كلامك . اتعرف انه منذ ان عاد من المعتقل لم يدخل سريري مرة واحدة ، ولم يقل كلمة واحدة عن الطفل . كنت اجهل ما يضمر في قلبه حتى يوم امس . كان الامر صعباً جداً جداً» . بدأت بلهجة الامر الواقع ثم انتهت بتقرير الحّال .

تذكرت اليوم الذي عاد فيه جيكونيو من المعتقل . ارادت ان تحدثه ، ان تجعله يفهم بالكلمات وبالنظرات . لكن الكلمات لم تتشكل في ذهنها ، كأن حضوره احالها الى صمت غبي لا احساس فيه . مع ذلك ، كيف ارادت الوصول اليه . ثم فكرت متسائلة ، وهي تنظر الى الجدار المقابل ، ماذا سيفعل بها . راقبت نفسها . كانت هناك فترة صمت قبل ان تستعيد وعيها وتعود الى الحاضر . «على اية حال ، هذا الامر غير مهم الان . لقد تشاجرت معه ليلة امس وعدت الى بيت اهلي» .

قال بانفعال ودون وعي : «لا !»

ـ «هذا ماحدث . لكني لم آت اليك من اجل هذا الامر . ان النساء في ثاباي ورونجي ارسلنني اليك . انهن يردنك في الاجتماع غداً»

قال بشكل حاسم : «لا استطيع»

اجابت وقد تحمست للتحدي : «يجب ان تذهب»

ـ «كلا ، كلا» .

ـ «يجب ان تذهب . كل الناس ينتظرونك . الناس يريدونك»

ـ «ولكن ، ولكن لا استطيع»

ـ «انهم يهتفون باسمك»

صاح بصوت يتعذب : «مومبي ، مومبي»

ـ «ستذهب ياموغو ، ستذهب»

ـ «كلا»

قالت بثبات وقد اكتسبت قوة وسلطة جديدتين : «اذن اتوسل اليك» . توجهت اليه بعينين نفذت نظرتاهما الى قلبه . وكانت ترغب في ان تفتح قلبه ، ولو لحظة واحدة على الاقل لتكشف عن سر نفوذه على الناس ومصائرهم . لقد امسكته باطراف اصابعها واحست فجأة بقوة تأثيرها فيه فلم تدعه يفلت منها . سألها :

ـ «هل تفهمين ما تطلبين ؟»

قالت وقد رقت قليلاً : «هل هي المعسكرات ؟»

ـ «كلا ، نعم ، كل شيء»

ـ «ماذا ؟»

ـ «انا»

ـ «كان الامر صعباً . لقد عذبوك في المعتقلات . سمعنا بذلك»

ـ «حقاً ؟»

ـ «نعم . ما الذي حدث ؟»

ـ «لاشيء ، غير انني رأيت رجالاً يزحفون على الارض كالمعوقين لان ايديهم وارجلهم كانت مقيدة بالحديد» . بدأ الان يتحدث

بخنوع مثل طفل : «في احدى المرات ضرب المعتقلون على ظهورهم بفوهات القناني المكسورة . كان الرجال ينشجون مثل حيوانات في قفص . حدث ذلك في ريرا» . توقف كأنه يفكر في مشهد بعيد قريب ، ثم انحنى الى الامام قليلاً وهمس بسر طفولي : «عندما كنت صبياً رأيت رجلاً ابيض لم اعرف من يكون ومن اين جاء . الان اعرف ان مزونغو لم يكن رجلاً ـ تذكري ذلك دائماً ـ انه شيطان ، شيطان» . توقف ثانية ليستعيد نفسه ثم عاود بصوت خانع : رأيت رجلاً قضوا على رجولته بكماشة . خرج من مكتب التحقيق فسقط على الارض وهو يصرخ : اعرف انني لن امس زوجتي مرة اخرى الى الابد . يا الهي : هل استطيع ان انظر الى عينيها بعد ذلك ؟ اما انا فقد نظرت في المفازة ولم أر في العمق غير الظلام الذي لم اخترقه» .

انحدرت الدموع على وجه مومبي ، ارادت ان تتقرب ، ان تصلح الخطأ ، ان تشفي الجرح . طلبت عبر دموعها : «بعد كل ذلك ياموغو يجب ان تتحدث غداً . ليس عن اخي لانه ميت ومدفون ولانه انجز عمله على هذه الارض . تحدث عن الأحياء . تحدث عن اولئك الذين قطعت السنتهم والذين تركوا عراة خائفين ، عن اليتامى والأرامل . اخبرهم بما رأيت» .

ـ «لم أر شيئاً»

ـ «تحدث عن اي شيء ياموغو» . أحست بأنه يبتعد فجهدت ان تتمسك به . لاحظت انه يرتجف .

ـ «عن نفسي ؟»

ـ «كل شيء» .

سأل وقد رفع صوته : «انت تريدينني ان افعل ذلك ؟» كان التغيير في صوته قد أخافها لانه يشبه شخير حيوان يذبح .

أكدت بخوف «نعم» .

ـ «اردت ان اعيش حياتي دون ان أتورط في اي شيء . لكنه دخل حياتي في ليلة كهذه ، وقد سحبني الى التيار فقتلته» .

ـ «من ؟ عم تتكلم ؟»

ضحك ضحكةً غريبةً : «هاهاها ! من قتل اخاك ؟»

ـ «كيهيكا ؟»

ـ «نعم»

ـ «الرجل الابيض »

ـ «كلا . انا خنقته . انا خنقته ـــ»

ـ «هذا ليس صحيحاً . أافق ياموغو . كيهيكا شنق . اصغ وتوقف عن الارتعاش . لقد رأيت جسده يتدلى من شجره» .

ـ «انا فعلت ذلك . انا فعلت ذلك . هاهاها ! هذا ما اردت ان تعرفيه . وهذا ما سأفعله ثانية ، الليلة»

حاولت ان تصرخ طلباً للنجدة ، لكن الصوت لم يخرج من حنجرتها . تقدم نحوها وهو يصدر اصواتاً غريبة وضحكاً غريباً . تمسكت بالباب ولكنه وصل قبلها :

ـ «لايمكنك الهرب . إجلسي ، ها ! سافعل ذلك معك» . كان يرتجف وخرجت كلماته بدفقات عنيفة . «تصوري انك طول حياتك لاتستطيعين النوم . أصابع عديدة تمسك بجسدك . والعيون تراقبك دائماً في الاماكن المظلمة ، في الزوايا ، في الشوارع ، في المزارع ،

لاراحة في النوم او في اليقظة ، آه ! تلك العيون . الا يمكنكم ان تتركوا انساناً لشؤونه الخاصة ولو دقيقة واحدة . اعني ، اتركوا الانسان يأكل ويشرب ويعمل ، كلكم ـ كيهيكا ، جيكونيو ، المرأة العجوزة ، والجنرال الذي ارسلك الى هنا الليلة . من ؟ آه ! تلك العيون مرة اخرى ، سنرى من هو الأقوى ، الآن ـــ»

حاولت ان تصرخ ثانية ، لكن الصوت لم يخرج ايضاً . حاصرها . وضع احدى يديه على فمها وامتدت الاخرى الى رقبتها . تنفست بصعوبة وتأوهت برعب . نظرت الى عينيه . لم تستطع حتى فيما بعد ان تفسر الرعب الذي رأته فيهما . توقفت فجأة عن المقاومة واستسلمت له ثم بكت : «ما الأمر ياموغو ؟ ما الخطأ ؟»

اولئك الذين زاروا ثاباي او اية من القصبات الثماني التي تحيط بها (اي من كيرارابون الى كيهينغو) لابد ان يكونوا قد سمعوا عن توماس روبسون او كما كان يعرف توم المرعب . كان صورة مصغرة للايام السوداء في تاريخنا الذي شهد وجوده كضابط منطقة في رونجي عندما انفجرت حالة الطوارىء في غضب هادر . قال الناس انه مجنون . اعتاد ان يقود سيارة جيب . يضع البندقية على ركبتيه والمسدس في حزام سرواله الخاكي . وفي الخلف يجلس واحد او اثنان من العسكريين . كان يظهر فجأة في المكان والزمان غير المتوقعين ليلقي القبض على ضحايا غافلين ، يسميهم ماو ماو . كان يضعهم في سيارة الجيب ويقودهم الى اطراف الغابة ثم يطلب منهم حفر قبورهم بايديهم . بعد ذلك يأمرهم ان يركعوا عند الحفر . وهكذا يقطع صلواتهم بطلقات البندقية احياناً وباستخدام المسدس

غالباً ، لكنه قد يغفر لأحد الاشخاص وهو على حافة القبر ، اذن حتى اللحظة الاخيرة لايعرف الضحية ماذا يفعل . هل يهرب ويغامر باحتمال اصابته برصاصة او ينتظر عسىٰ ان يغير توم رأيه . قالوا ان له حضوراً في كل مكان . انتشرت الاشاعات . رآه احد الرجال هنا ، ورآه اخر هناك . بعض القرويين رأوا سيارته الجيب في احلامهم فصرخوا رعباً . كان من آكلة لحوم البشر الذين يجوبون الارض ليلاً ونهاراً . انه الموت نفسه . وكان قاسياً ووحشياً خصوصاً مع الفلاحين الذين اعيدوا من الوادي الصخري الى جيكونيو ـ ايني .

كان ذلك في عام ١٩٥٤ .

وصلت نشاطاته الى ذروتها في مايس ١٩٥٥ . في احدى الأمسيات ، وفي اثناء قيادة سيارته الجيب من رونجي الى مكاتب المنطقة ، رأى رجلاً يسير وحده على الطريق المبلط . انسحب الرجل الى اقرب سياج . صاح به توم . جاء الرجل الى سيارة الجيب متعثراً وركبتاه لاتكادان تحملانه . عندما اقترب من السيارة سمعت اسنانه تصطك مما جعل توم يضحك . قال بمرح كأنه يعيد الثقة الى الرجل : «ان توم لن يأكلك» . عدل الرجل فجأة من وقفته ليسحب شيئاً ما من جيبه . انطلقت بعدئذ رصاصتان استقرتا في جسد توم .

وقبل ان يستطيع رجال الشرطة الخائفين القيام بأي شيء كان الرجل قد قفز على السياج باتجاه الحوانيت الهندية . اطلق رجال الشرطة رصاصهم في الهواء . لم يمت توم مباشرة . قيل (وكان

اسطورة في القرية) انه قاد السيارة بنفسه الى المستشفى حيث توفي بعد ثلاث ساعات دون ان ينطق سوى كلمة واحدة : وحوش .

خلال ساعات طوق الجنود كل القرى . انتشرت الاشاعة الرسمية التي اصبحت عنواناً في الصحف ـ عصابات ماو ماو تقتل ضابط المنطقة بلا سبب .

في ذلك اليوم ، الذي يذكره القرويون حتى الان ، خرج موغو كالمعتاد الى ارضه قرب محطة سكك رونجي وهو غارق في الاحلام التي يحبها ، الاحلام التي غالباً ما نقلته من الحاضر الى المستقبل . كان يرى في تلك الاحلام رسالته الشخصية ونبوءته . ألم ينج دون اذى من العمليات المبكرة التي رافقت الطوارىء ؟ بقيت كينيا في حالة طوارىء منذ ١٩٥٢ . اقتيد بعض الناس الى معسكرات الاعتقال وهرب اخرون الى الغابة . لكنها مأساة عالم لايخصه . ظل وحيداً وهو يعرف انه سيأتي ذلك اليوم الذي تدق فيه الطبول وتنفخ الابواق لتعلن دخوله العالم الاخر . غالباً ما سمع الناس يتكلمون وهم يشيدون اكواخهم غير ان كلماتهم لم تؤثر فيه . ماذا يهمه اذا كانت النسوة يقمن بعمل الرجال او اذا كان الاطفال ينضجون بسرعة ؟ الم يقم هو برعاية نفسه في سن مبكرة . كان موغو بين الاوائل الذين انتهوا من بناء اكواخهم في الوقت المحدد . لقد انجز العمل واقام الكوخ ورتب السقف وعدل الجدران دون اية مساعدة من احد . كان الكوخ هو اول انجاز كبير له . عندما انتقل اليه استأنف حياته اليومية . اعتنى بمحاصيله وعيناه شاخصتان الى المستقبل .

في ذلك اليوم ، الجمعة مساء ، عاد من الحقل متعباً . وضع المسحاة والفأس بلطف على الجدار قبل ان يفتح الباب . كان يحس بالدفء الداخلي عندما يلمس مقبض المفتاح وتثيره دورة المفتاح في قفل الباب فيتباطأ فيها لان العملية تبعث السرور في نفسه . كان الكوخ امتداداً له ولأحلامه . دخل وجلس على السرير . نظر باعجاب الى الجدران (لم يجف الطين بعد) والى السقف المخروطي الذي تتدلى منه الاعشاب . بعد ذلك مباشرة زخف الظلام الى الكوخ . اشعل المصباح الزيتي وهو يصفر لحناً خاصاً . اوقد ناراً ليطبخ خليطاً من حبوب الذرة والفاصوليا على احجار الموقد الثلاثة . وكانت تلك هي وجبته الوحيدة ذلك اليوم . انه ، في معظم الاحيان ، يسلق حبوب الذرة والفاصوليا اليابسة بكميات كبيرة ويحتفظ بها عدة ايام كي يشوي قليلاً منها كل مرة ، اي ما يكفي لوجبته . بعد الاكل سار الى الباب ليتأكد انه مغلق باحكام تأخر مرة اخرى عند رتاج الباب وهو ينظر اليه باعجاب . كان عمره خمسة وعشرين عاماً فقط . لم يمتلك شيئاً ، ولكن المستقبل كان بين يديه . تمدد على السرير . كم هو مريح ان يستلقي على السرير بعد يوم عمل شاق في الحقل . دلك معدته وتجشأ بارتياح . كانت قوانين منع التجول خارج الكوخ . لم تؤثر تلك القوانين في موغو ، اذ لم يكن يخرج من البيت حتى قبل ١٩٥٢ . لقد روض نفسه على ان يستقبل الغسق بهدوء كلما استلقى على سريره او كان في الحقل .

في هذه المرحلة من الحلم سمع صفيراً وصياحاً ووقع اقدام . مزق الصفير سكون الليل وافكار موغو . كانت هناك دائماً مثل هذه

الصفارات كلما هاجم مناضلو الغابة قرية او قتلوا شخصاً بارزاً . لكن الهدوء ساد ثاباي فترة طويلة . كانت اخر مرة حدثت فيها مثل هذه الضجة هي الاسبوع الذي قتل فيه القس جاكسون كيغوندو والمعلم مونيو . ارتفع الصفير ثم خبا كأنه ذهب مع الريح ثم توقف . خيم على القرية سكون مطبق . ثم شق الصمت صوت عيارات نارية واشتدت حدة الصفير . صاح رجل : روبسون . اتكأ موغو على ذراعه اليمنى وقلبه يخفق بسبب قرب الاطلاقات والصياح ، مرة اخرى خفت الجلبة . سمع موغو رجلاً يتذمر ويحتج : كنت في طريقي الى البيت . حقاً ، كنت ذاهباً الى البيت . عندما خيم السكون ثانية استلقى موغو على سريره واستسلم لنوم خفيف . كان موغو من المحظوظين القلائل الذين لم يشملهم التفتيش ليلاً .

لم يعرف كم بقي على تلك الحال ، ولكنه من غير شك استيقظ على صوت دقات على الباب . فتح عينيه فزعاً ونهض . من يكون الطارق ؟ تكرر الطرق . تقدم موغو بحذر ، توقف ، تقدم ثانية ثم توقف . تعثر بالمصباح فانطفأ . افزعه الظلام اكثر من الطرق على الباب . بحث عن الثقاب بين الاحجار ، وفي رأسه سؤال ملح : هل عليه ان يفتح الباب ؟ الطرق في المرة الثالثة كان مستمراً وملحاً ، مما جعله يقفز الى الباب . تنحىٰ جانباً ليفسح المجال لرجال الحرس بالدخول ، وفي الوقت نفسه استأنف البحث الخائف عن الثقاب .

همهم وهو يسترق النظر الى ظل الرجل الواقف عند الباب :

«دعني اوقد المصباح» .

قال الرجل بصوت منخفض : «لاتحتاج الى ذلك . ان ضوء النار يكفي» .

ـ «من انت ؟»

ـ «شش ! لا تصرخ ، ولا تخف»

كرر موغو بيأس : «من انت ؟» وهو لايكاد يميز الصوت . ضحك الرجل بانفعال قليل واحس موغو بان الغرفة تتحول الى صقيع . تعثر بعلبة الثقاب ، وكان يوشك ان يشعل عود الثقاب عندما همس الرجل بسرية :

ـ «كلا . ان رجال الحرس والشرطة منتشرون في كل مكان . لقد مات»

ـ «من ؟»

ـ «ضابط المنطقة»

ـ «روبسون ؟»

ـ «نعم . انا اطلقت الرصاص عليه . كنت اريد قتله طوال هذه الشهور»

كانت هناك دموع في ذلك الهمس . سقطت علبة الثقاب من يد موغو . عليه ان يستعيدها ، لكن عقله لم يكن هناك . انحدر على بطنه سائل بارد عند سماعه الرجل . اشواك عديدة وخزت جسمه .

قال بصوت لايمت اليه بصلة : دعني اوقد لك المصباح»

ـ «كما تريد . قد تكون على حق . وليكن في علمك انني معتاد على الظلام ، هل تعتقد انهم سيفتشون كل الاكواخ هذه الليلة ؟»

استطاع موغو اخيراً ان يوقد المصباح . نظر الى زائره . صاح تلقيائياً بنفس متقطع : كيهيكا ؟»

كان كيهيكا يلبس سترة ممزقة قذرة من النوع الخاكي الذي كان

الجنود يلبسونه في الحرب العالمية الاخيرة (مثل هذه الملابس يرتديها الشيوخ الان) ، وينتعل حذاء تنس قذر كان ابيض في يوم ما . ان شعره الخشن القصير اكسب وجهه خطوطاً قاسية . تراجع موغو واتكأ على عمود قرب السرير .

ـ «لم اتوقع ان تكون انت»

قال كيهيكا وعيناه تجوبان الكوخ : لابد ان تعذرني . لم اشأ ان يتبعوني الى الغابة ، اضافة الى انني اردت زيارتك . لقد رغبت دائماً في ان اتحدث اليك .

ـ «هناك ، هناك كرسي» .

ـ «أوه . انا معتاد على الوقوف . علينا ان نقف على اقدامنا اياماً كاملة ـ وقوفاً او زحفاً .»

ـ «لماذا ؟»

ـ «لانجازف بالنوم»

قال موغو متوسلاً : «هل تريد قتلي ؟ انا لم افعل شيئاً» .

وقبل ان يتمكن كيهيكا من الاجابة ارتفعت عاصفة الصفير . سحب كيهيكا مسدسه واختبأ تحت السرير . انهار موغو على الكرسي واحس بأنه على وشك البكاء . سوف يلقى عليه القبض متلبساً بالجرم المشهود وهو يخبىء ارهابياً . ثم تذكر المصباح فجأة فأطفأه . غرق الكوخ في الظلام . خبا الصفير ثانية ، خرج كيهيكا من مخبئه ووقف قرب الموقد . كان موغو يرى الصورة الظلية للرجل بالقرب منه ..

تحدث كيهيكا كأن لم تكن هناك مقاطعة للحديث : «نحن لانقتل

أياً كان . لسنا مجرمين ولا جلادين مثل روبسون الذي يقتل الرجال والنساء دون سبب او مبرر» تحدث بسرعة وانفعال وهو يدور حول الموقد . هل يمكن ان يكون هذا هو الرجل الذي أحرق (ماهي) ؟ هل هذا هو الرجل الذي خطب يوماً في الجمهور فجعل النسوة يمزقن شعورهن وملابسهن ؟ «نحن فقط نرد على الضربات . انت تضرب على خدك الأيسر فتعطي خدك الأيمن ، مرة ومرتين وثلاث ـ ومدة ستين عاماً . ثم تقول فجأة : لن اعطي خدي الآخر بعد الان . فتعطي الجدار ظهرك وترد على الضربة . تثق برجولتك وتأمل في ان تبقى على هذا المستوى . هل تظن اننا نرغب في البحث عن الطعام مع الضباع والقردة في الغابة ؟ انا ايضاً عرفت دفء النار وحب المرأة قرب الموقد . هل رأيت ؟ يجب ان نقتل . يجب ان نصفي اعداء حريتنا ، حرية الرجل الاسود . يقولون اننا ضعفاء . يقولون اننا لن ننجح في مواجهة القنبلة . اذا كنا ضعفاء حقاً فلا يمكن ان ننجح . انا احتقر الضعفاء . فليسحقوا حتى الموت . وانا أبصق على ضعف آبائنا . ان ذكراهم لاتشعرني بالاعتزاز . اليوم او غداً سيزول الضعفاء وذوي القلوب الخاوية من الارض . سيحكم الاقوياء . لم يكن لآبائنا سبب للقبول بضعفهم . ليس على الضعيف ان يبقى ضعيفاً . لماذا ؟ لان الشعب الذي يوحده الإيمان اقوى من القنبلة . لن يرتجفوا او يهربوا امام السيف ، إنما العدو هو الذي سيهرب . ليست هذه كلمات مجنون . هدفنا هو ان ننشر الرعب بين صفوفهم . ان نصل اليهم في بيوتهم ليلاً ونهاراً . سيحسون بالسهم المسموم في عروقهم . ولن يعرفوا من اين ياتيهم السهم الاخر .

سننشر الرعب في قلب الظالم» .

تكلم دون ان يرفع صوته ودون ان ينتبه لموغو او للخطر المحدق به كأنه مأخوذ . ان الفيض العصبي من الكلمات كشف عن مرارته وألمه . واكدت كل كلمة شكوك موغو في ان الرجل كان مجنوناً .

ـ «تظن اننا لانخاف الموت ؟ اننا نخافه . كادت قدماي ان تتجمدا عندما صاح بي روبسون . كنت اتوقع رصاصة تخترق قلبي في كل لحظة . لقد رأيت رجالاً يبولون على انفسهم واخرين يضحكون بجنون عند احتدام القتال . ان الحشرجة الحيوانية للانسان الذي ينازع الموت شيء فظيع على السمع . لكن يجب ان يموت بعضنا من اجل ان يعيش الكثيرون . هذا ما تعنيه التضحية اليوم ، والا فاننا نستحق ان نكون عبيداً نحمل الماء والخشب للرجل الابيض طوال حياتنا . انه اختيار بين الحرية والعبودية . وما يلائم الرجل هو ان يتمسك بالحرية ويموت من اجلها . اننا نحتاج ــــ»

توقف فجأة عن الكلام وبدأ يسير جيئة وذهاباً كأنه يدرك وجود موغو اول مرة . جلس موغو متصلباً على كرسيه ، يحدق الى الارض وهو واثق بان رجال الحرس سيلقون عليه القبض هذه الليلة . فكر في ان كيهيكا رجل مجنون ، مجنون . وقد زادت الفكرة من رعبه .

ـ «ماذ تريد ؟» احمله على الكلام . لايكون المجنون خطراً ما بقي يتكلم .

ـ «نريد تنظيماً قوياً . الرجل الابيض يعرف ذلك ويخافه ، والا لماذا جعل الناس يرحلون الى هذه القرى ؟ انه يريد ان يعزلنا عن الناس الذين هم مصدر قوتنا الوحيد . ولكنه لن ينجح يجب ان

نبقي الطريق بيننا وبين الناس خالياً من العقبات . طالما راقبتك في ثاباي القديمة . انت رجل عصامي . انت رجل حقيقي لانك عانيت كثيراً . اننا بحاجة الى رجل مثلك لتنظيم حركة سرية في القرى الجديدة» .

فزع موغو من كل كلمة صدرت من كيهيكا .

احتج بضعف : «انني لم اؤد القسم ابداً» .

قال كيهيكا : «اعرف ذلك . ولكن ماهو القسم ؟ اننا نحتاجه لبعض الناس كي نشدهم الى الحركة . هناك من لايحفظ سراً الا بالقسم . انا اعرفهم . اعرف الرجال من وجوههم . على اية حال ، كم من الرجال أدوا القسم ، لكنهم الان يلعقون احذية الرجل الابيض . كلا . انت تؤدي القسم لاختيار سبق ان اتخذته . ان القرار بالخضوع او عدم الخضوع يكمن في القلب . وما القسم الا الماء الذي يسكب على رأس الرجل عند التعميد» .

دارت برأس موغو اعتبارات اخرى . تذكر ان الباب لم يقفل . نهض ماراً عبر كيهيكا واصغى من ثقب الباب . فكر في الهرب والاستنجاد بالحرس الاهلي ثم تذكر ان كيهيكا يحمل مسدساً . وذلك المسدس قتل رجلاً قبل قليل . رد مزلاج الباب وعاد الى مكانه . كان يسير في كابوس . ليس صحيحاً ان الرجل الذي أحرق (ماهي) وقتل روبسون موجود فعلاً في الكوخ . انتابته رغبة ضعيفة في الكلام الا انه لم يجد شيئاً يقوله او يفعله . كانت القرية عند ذاك هادئة حد الموت . الصفارات والاطلاقات اشياء حدثت قبل سنين . لكن كيهيكا كان موجوداً . لم يعد يتنفس بصعوبة او يسير بانفعال . يبدو أنه

تمالك نفسه . الامر حقيقة .

قال كيهيكا بانتصار «سألتقيك خلال أسبوع» . هز موغو رأسه بالقبول . حدد كيهيكا بدقة مكان لقائهما القادم في غابة كينيني .

لم يكد كيهيكا ينهي كلامه حتى شقت السكون ثالث مرة صرخات بعيدة واطلاقات نار . ارتفعت الصرخات والطلقات متقطعة ولكنها لم تتوقف . (علم موغو في اليوم التالي ان بعض الرجال اقتيدو من بيوتهم في قضية موت روبسون شكاً في أنهم من أفراد الماو الماو . وقد قتل رجلان من القرية وصفتهما الصحافة بأنهما من افراد العصابة التي هجمت على ضابط المنطقة الأعزل الذي قدم خدمات كبيرة للمنطقة) . ذهب كيهيكا الى الباب وأصغىٰ . مرة ثانية فكر موغو في أن يشتبك مع كيهيكا ويصرخ طالباً النجدة .

قال كيهيكا بهمس : «يجب أن أذهب . ربما يفتشون البيوت» . عاد اليه انفعاله . كان رجلاً هارباً . فتح الباب ثم أغلقه بهدوء . قال : «تذكر موعدنا» قبل أن ينساب الى الخارج في الظلام بتلك السرعة وذلك الهدوء اللذين جاء بهما .

نهض موغو ووقف دون حراك وسط كوخه الجديد لبضع ثوان . لم تكن الأرض تحت قدميه ثابتة . ركض الى الباب وفتحه على مصراعيه وهو يريد ان يصرخ طالباً النجدة . حدق الى ظلمة الليل ، ثم أزلج الباب ثالث مرة . ولكن لماذا يزلج الباب ؟ لماذا ؟ من الأفضل ان يبقى بلا باب اذا كان الباب يجلب له البرد والخطر . رفع مزلاج الباب وعاد ببطء الى سريره ، حيث جلس واضعاً وجهه بين كفيه . تناول منديلاً قذراً ليمسح وجهه ورقبته . في اثناء ذلك

نسي العرق البارد وانسل المنديل الى ركبتيه . سمع مرة أصواتاً في الريح ولكنه لم يتمكن من التقاط النغمة المتكررة . في تلك اللحظة كانت الأصوات في رأسه .

قبل دقائق من دخول كيهيكا ، حين كان موغو مستلقياً على سريره في هذه الغرفة رأى المستقبل مشرقاً . الان بقي كل شيء داخل الغرفة في مكانه ، لكن المستقبل غامض . توقع ان يأتي رجال الشرطة والحرس ليعتقلوه او يقتلوه . لم ير غير السجن والموت . كان كيهيكا مطلوباً من الحكومة خصوصاً بعد تحطيم (ماهي) . اذا ظهر انه آوى ارهابياً فذلك يعني الموت . لماذا يورطني كيهيكا في النضال وفي المشاكل التي لم أخلقها ؟ لماذا ؟ لم يقتنع بذبح الرجال والنساء والأطفال . لابد من انه زارني ليسبح بالدم . انا لست أخاه او أخته . لم أوذي احداً . انني أهتم بمزرعتي ومحاصيلي حسب . الآن علي ان أقضي حياتي في السجن بسبب حماقة شخص واحد .

استيقظ موغو في اليوم التالي وهو مندهش لعدم وجوده في السجن حاول ان لايفكر في لقاء الليلة الماضية . كان ذلك حلماً فقط . طالما رأيت كوابيس قبل هذا . الليل يبالغ في كل شيء - مخاوفنا وتعاستنا ويأسنا . تبدو حتى الشجيرات والأشجار كالبشر . هاهاها ! غير أن محاولاته البائسة لتهدئة نفسه لم تغير الحقيقة . لقد انطبع وجه كيهيكا في ذهنه بصورة لاتمحى : أزاح شعره المشعث وعيناه الزائغتان التخيلات الكاذبة وجعلت موغو يرتجف على الرغم من ضوء النهار . تصور رجلاً يسير عند الغسق وهو يشعر بالاطمئنان في عزلته .

ثم يهبط الظلام فجأة ليجد نفسه مهدداً بكسر رجله لان طريقه سيفضي في اية لحظة الى حفرة عميقة .

كان موغو خلال الايام التالية يتنقل بين الكوخ والحقل متوقعاً في كل لحظة ان يربت رجل من الشرطة او الحرس على كتفيه . وكلما رأى شرطياً او احداً من افراد الحرس المحلي يتصبب العرق على وجهه وتضعف رجلاه . لم ينس أبداً ظل كيهيكا خلفه وهو ينتظر الجواب . سأل نفسه عما سيفعله . ان لم أخدم كيهيكا سيقتلني . لقد قتلوا القس جاكسون والمعلم مونيو . اذا عملت معه فالحكومة ستلقي القبض علي . ان ذراع الرجل الابيض طويلة وسوف يشنقونني . ياالهي ! لاأريد ان أموت . انا لست مستعداً للموت . انني لم أعش حياتي . ارتبك موغو لأنه كان يتجنب الصراعات طوال حياته . في البيت وفي المدرسة تجنب الارتباط بالاولاد الآخرين خشية التورط في معارك قد تؤثر في فرصه لتحقيق مستقبل أفضل . انه يناقش الأمر بهذا الشكل : ان لم ترافق الشر فان الشر لايمسك . واذا تركت الناس يعيشون كما يحلو لهم فانهم يتركونك تعيش كما يحلو لك . لذلك فانه لم يستطع ان يحل اللغز في هذه الليلة . تأوه في داخله واحتار . هل سرقت شيئاً من اي انسان ؟ كلا ! هل قتلت اي شخص ؟ كلا ! لماذا اذن يفعل بي كيهيكا ذلك وانا لم أفعل ما يؤذيه ؟

قرر انها الغيرة ، حين لم يجد جواباً عن سؤاله . قاده التفكير الى كرهه القديم لكيهيكا . قوي الكره الآن حتى غص به . كيهيكا الذي يمتلك أباً وأماً واخاً واختاً استطاع ان يلعب بالموت . ان له ناساً

يحزنون عليه ويسمى آخرون اطفالهم بأسمه كي يبقى اسم كيهيكا يتردد على شفاههم . ان كيهيكا يملك كل شيء وموغو لايملك اي شيء .

سكنته تلك الفكرة وملأت كيانه بغضب لادموع فيه ولا زبد ـ جلبت معها صوراً حرمته النوم . اليوم الحاسم هو الجمعة . لم يقرر حتى ذلك اليوم اتخاذ اية خطوة . اخذ موغو الفأس والمسحاة وسار الى المزرعة كما اعتاد . وتجنباً لمقابلة الناس اختار طريقاً لم يعتد أن يسلكه عبر الحقول باتجاه رونجي . كان الوقت مبكراً ولم يكن أحد في الحقول . انتشرت هنا وهناك مواقع مهدمة كانت قبل اسبوع تشكل قرية ثاباي القديمة . لم يستطع موغو ان يتبين اي شيء بسبب غلبة النعاس على عينيه . كان ذهنه صفحة بيضاء تمنع عينيه من الابصار بوضوح مثل الشمس في منتصف النهار . كان يعيش مرحلة الانهاك التي تعقب ليالي الأرق والافكار الساخنة المزدحمة التي لاهدف لها ، المرحلة التي يكون فيها الانسان حساساً حد الانفجار عند اية اثارة دون ان يعي الخطر الذي يتعرض له . خاضت قدماه في ندى الاعشاب ثم جرى الماء تحت قدميه من السواقي الصغيرة . تدلت شفته السفلى . كلما انفعل موغو تتدلى شفته السفلى . ارتجف جسمه كله ، وازداد الارتجاف والإحباط كلما تقدم في سيره . حين وصل الحوانيت الهندية كان ضعيفاً ولم يستطع مواصلة السير . لذلك وضع المجرفة والفأس على كومة أزبال خلف أحد الحوانيت وجلس ليستعيد بعض قوته . توجد خلف كل حانوت كومة من الزبل تصدر عنها روائح كريهة . وهناك يتغوط

الاطفال الهنود ، والرجال احياناً . اما الاطفال الافارقة فيفتشون في هذه الاكوام ويقلبون الازبال التي رميت حديثاً بحثاً عن الخبز وقطع النقود الضائعة . حين تغوص أقدامهم في الأوساخ كان الأولاد يشتمون بفضاعة واحياناً يرمون الهنود بالحجارة انتقاماً . القي القبض مرة على ثلاثة صبيان افارقة وهم يطرحون فتاة هندية على الأرض خلف كومة الازبال التي يجلس عندها موغو ليستريح ـ لقد اتهموا باغتصاب الفتاة . وبسبب صغر سنهم ارسلهم الحاكم الى مدرسة وامومو الاصلاحية . لم يكن موغو يفكر في تفاصيل ماضي الحانوت المثيرة هذه . كان يضع رأسه بين يديه ويتأوه باستمرار . لماذا فعل بي هذا ؟

هبت الريح فجأة واثارت الغبار والاوساخ في الجو . غطى موغو وجهه بكلتا يديه ليحفظ عينيه من الغبار . طارت قصاصات الورق عالياً متخذة شكل مخروط دائري . يقال ان مثل هذه العاصفة التي ترفع التراب والاوساخ في شكل عمود متحرك مخروطي الشكل تسكنها شياطين النساء . وتستمر عادة بضع ثوان ثم تختفي بالسرعة والغرابة نفسهما . لكنها استمرت وتزايدت قوتها هذه المرة ، وكانت ترفع الاشياء الى علو شاهق في السماء قبل ان تتوقف نهائياً . راقب موغو ذرات التراب والاوساخ تتساقط الى الارض . أراحه هذا الحدث من ارتجافه واحباطه بطريقة ما . أخذ مجرفته وفأسه وواصل السير الى الحقل . كان هادئاً تقريباً .

ولكن فترة قصيرة فقط .

بعد ان سار خطوات قليلة من المكان الذي جلس فيه رأى موغو

منظراً غريباً . حدق الى الجدار المقام من الحديد المقوس . وقف شعره من جذوره . أحس بسرور يهز جسمه . كان وجه كيهيكا هناك مطبوعاً على جدار الحانوت ، وكان يتسع ويتشوه كلما اطال التحديق اليه . ايقظ ذلك الوجه الواضح الاثارة والرعب نفسهما اللذين احس بهما عندما كان صبياً ، وفي الليلة التي اراد ان يخنق عمته . كانت هناك جائزة لمن يرشد على كيهيكا جائزة ـ لمن ـ يرشد على ـ كيهيكا .

اتجه موغو الى ضابط المنطقة وهو يحس بالدوار تحت ضغط الإثارة والانفعال . نادى الرب ابراهيم ان يقدم ابنه الوحيد اسحق قرباناً على جبل في ارض عموريا . شيد ابراهيم مذبحاً هناك وجاء بالخشب . ربط ابنه اسحق عند المذبح فوق الخشب . مد ابراهيم يده واخذ السكين ليذبح ابنه . كان اسحق مستلقياً ينتظر ان يفصل السيف رأسه عن جسده . عرف ان السيف لابد ان يهوي عليه . مرت به لحظة تأكد فيها من الموت بفأس باردة . سمع اسحق فجأة صوت الرب . بكى . نجا من الموت . ردد موغو مع نفسه : نجا من الموت . سار في الرؤيا ، اثقل رأسه عذاب الافكار التي تتطلب المنطق الضروري للحلم . كانت المناقشة واضحة وبهيجة . لقد فسرت الأشياء التي لم يستطع فك رموزها في حياته . انا مهم . يجب ان لا أموت . ان المحافظة على نفسي وانتظار دوري في الحياة هي الواجب الاساس تجاه روحي وتجاه رجال المستقبل ونسائه . لو كان موسى قد مات في حقول القصب لما عرف أحد انه سيصبح رجلاً عظيماً .

امتزجت هذه الاحاسيس الراقية بفكرة الجائزة النقدية

والامكانيات العديدة التي تتفتح امامه . سيشتري مزيداً من الأرض وسيبني بيتاً اكبر . عندذاك سيجد امرأة يتخذها زوجة ويكون له اطفال . ان حدة هذا الإحتمال وقربه قد ضاعفا من انفعاله . لم يكن يفكر في النساء كرجل ابداً . اما الان فقد مرت بذهنه صور لفتيات كثيرات من القرية . سيبرز نصره امام عيني شبح عمته . سيتعزز مركزه الاجتماعي ، سيكون في منتصف الطريق الى السلطة والقوة . وماهي العظمة ان لم تكن القوة ؟ ماهي القوة ؟ القاضي قوي : انه يستطيع ان يحكم على الانسان بالموت دون ان يناقشه احد في سلطته او حكمه او يسبب له الأذى ، أجل ـ لكي تكون عظيماً يجب ان تحتل موقعاً تستطيع منه انزال الألم والموت بالآخرين دون أن يحاسبك أحد ، مثل الضابط والقاضي والحاكم .

وصل سريعاً الى المكاتب . لقد شيدت المكاتب حديثاً كقاعدة يمكن الوصول منها بسرعة الى القرى المجاورة . كان هناك شرطيان مسلحان يحرسان المدخل . في حالته تلك أحس موغو ينفاد صبره من تلك الأشياء غير الحقيقية التي تقف في طريقه .

سأل : «هل يمكن أن أرى ضابط المنطقة ؟» حاول أن يتجاوزهما وهو مسكون برؤياه الداخلية .

سحبه أحد الشرطيين من كتفه : «ماذا تريد ؟»

قال مندهشاً : «انا ، انا اريد ان أراه وحده» .

ـ «وانت تحمل الفأس والمسحاة ؟ هاهاها !»

ـ «أقول لك ماذا تريد هنا ؟»

ـ «لاأستطيع ان اقول لك»

ضحك الشرطيان من أجوبة موغو . أخذ فأسه ومسحاته ورمياهما على الأرض .

ـ «لايمكن ، لايمكن ، هل تسمع ذلك ؟ هيه ، ايها الفلاح ، ماذا تريد ؟»

ـ «يجب ان أراه . ان ، ان الأمر مهم» . بدأ الخوف يدب في نفسه . فتّشاه وعاملاه بخشونة .

ـ «يجب أن يخلع ملابسه»

ـ «كيف تدبر أمورك مع النساء ، ها ؟»

ـ «نساء ؟ لابد من انك تمزح . حتى المومس البدينة تهرب من منظره»

ـ «هاهاها !»

خرج ضابط المنطقة جون تومبسون وصاح بهما ليتوقفا عن الضحك . أخبراه عن موغو فسمح له بالمقابلة . كادت انفاس موغو ان تنقطع حين أدخلوه المكتب ، ولكنه أحس بالامتنان للرجل الأبيض الذي انقذه من السخرية والإهانة . حين وجد نفسه في الداخل لم يعرف من أين يبدأ . كانت تلك هي المرة الأولى التي يقابل فيها رجلاً أبيض وجهاً لوجه . ثبت نظره في الجدار المقابل مقرراً ان لاينظر الى وجه الرجل الأبيض .

ـ «ماذا تريد ؟» أفزع الصوت موغو .

ـ ««كيهيكا . اردت ان أحدثك في أمر يخصه»

جلس تومبسون في كرسيه لدى ذكر ذلك الأسم . ثم نهض

وامتدت يداه الى حافة المنضدة ليسند جسمه . امعن في النظر الى موغو . كان الرجلان متساويين في الطول . أصر موغو على ان لاتلتقي عيناه عيني الرجل الابيض . جلس تومبسون ثانية .

ـ «نعم ؟»

ابتلع ريقه وانتابه الفزع . خاف ان يخونه صوته . قال بهدوء : «انا اعرف ، اعرف المكان الذي فيه كيهيكا الليلة»

تجدد في نفسه الكره الذي أحسه تجاه كيهيكا . بدأ يرتجف من انفعاله حين روى القصة التي عذبته مدة اسبوع . أحس لبعض الوقت بفرح نقي لذيذ لجرأته التي رآها عملاً عظيماً يمثل الشجاعة المعنوية . بدت له الخطوة التي اتخذها نوعاً من النقاء في العمل . تجاوز الخير والشر . تمتع بقوة معلوماته ونفوذها . ألم يصنع مصير رجل في ذهنه ؟ كان قلبه مليئاً حد الفيض . ظهرت دموع الراحة عند أطراف أجفانه . أسبوع كامل وهو يصارع وحده الشياطين في كابوس لانهاية له . كان الاعتراف هو الاتصال الأول برجل اخر . أحس بالإمتنان العميق للرجل الأبيض الذي اصغى بصبر فرفع القيد عن قلب موغو وازاح عنه الكابوس . تجرأ بعدئذ على النظر الى وجه الرجل الأبيض ، ذلك الصديق الجديد ، ارتسمت ابتسامة على وجه موغو . لكن الابتسامة تجمدت وتحولت الى تكشيرة عندما رأى وجه الرجل الأبيض وعينيه الفاحصتين .

نهض ضابط المنطقة مرة ثانية . استدار حول المنضدة ليقترب من موغو ويمسك به من ذقنه ويدفع وجهه الى الخلف . بصق في الوجه الاسود وعلى نحو غير متوقع ابداً . ارتد موغو خطوة الى

الوراء ورفع يده اليسرى ليمسح البصاق ، لكن الرجل الابيض سبقه بصفعة قوية .

ـ «الكثير من الناس أعطونا معلومات كاذبة عن هذا الارهابي ، أتسمع ؟ كانوا يريدون الجائزة . سنحتفظ بك هنا . واذا كانت معلوماتك كاذبة فسنعدمك في الخارج . هل تسمع ؟»

عاد موغو الى كابوسه . كان كل شيء يدور حوله ـ المنضدة ، الوجه الأبيض ، السقف ، والجدران . ثم توقف كل شيء فجأة . حاول أن يسيطر على نفسه . انشقت الأرض تحته . بدأ يسقط . رمى ذراعيه في الهواء . كان القعر عميقاً جداً . بحيث لم ير غير الظلام . ولكنه عرف ان هناك صخوراً ناتئة حادة في القعر . لم يكن شيئاً . لم تسعفه الدموع . وبصرخة مكبوتة ارتطم جسمه بالأحجار المكسورة والصخور الناتئة عند قدمي الرجل الأبيض . كانت صدمة الاكتشاف حادة جداً حتى انها خدرته . لم يحس ألماً ولم ير دماً .

ـ «هل تسمع ؟»

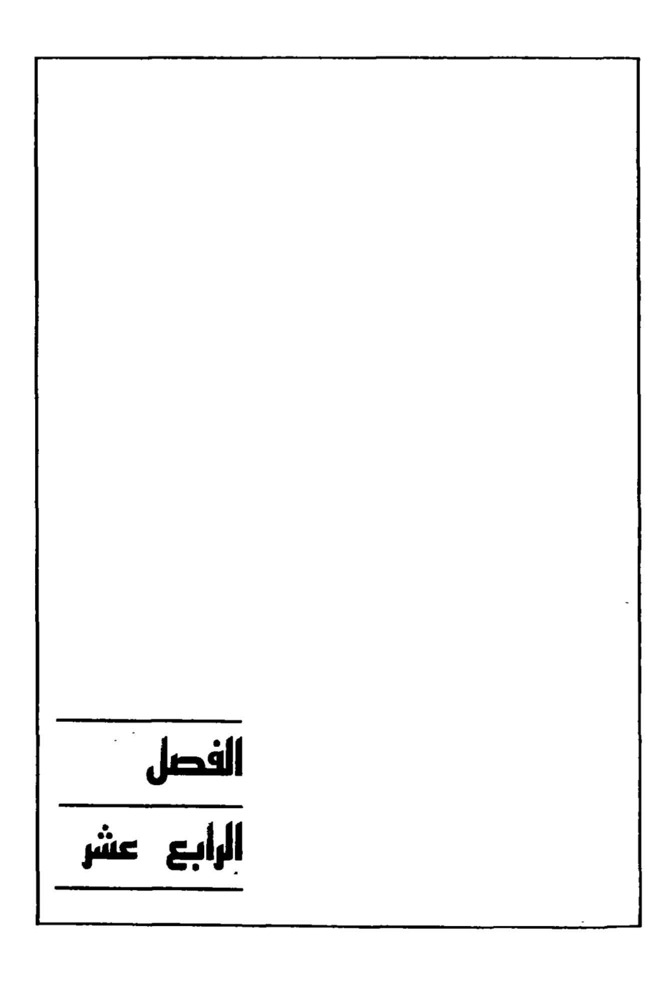
ـ «نعم»

ـ «قل افندي»

ـ «نعم ـــ»

التصقت الكلمة واعترضت حنجرته . فتح فمه وأطلق اصواتاً غير مفهومة . تجمع الزبد حول زاويتي فمه . حدق الى الرجل الأبيض عبر دموع عينيه فلم يره . بعد ذلك بدأت المنضدة والكرسي وضابط المنطقة والجدران البيضاء والارض تدور وتسرع في دورانها . تمسك بالمنضدة ليسيطر على نفسه . لم يرد النقود لم يرد

ان يعرف مافعله .



الفصل
الرابع عشر

حصلت كينيا على استقلالها من بريطانيا في ١٢ كانون الاول ١٩٦٣ . قبل منتصف الليل بدقيقة واحدة اطفئت الأنوار في ملعب نيروبي وغطى الظلام كل الناس الذين قدموا من انحاء البلاد كافة ومن اقطار العالم لحضور احتفالات منتصف الليل . في الظلام انزل العلم بسرعة . عندما أشعلت الانوار كان علم كينيا الجديد يرتفع مرفوفاً في الهواء .. عزفت فرقة الشرطة النشيد الوطني وهتف الجمهور لدى رؤية العلم بألوانه الثلاثة الأسود والأحمر والأخضر . كان الهتاف يشبه صوت اشجار عديدة تنشرخ مرة واحدة وتسقط على الطين في أرض الملعب .

في قريتنا ، ورغم المطر الغزير ، انطلق الرجال والنساء والأطفال الى الشوارع وهم يغنون ويرقصون فوق الأرض الطينية . وبسبب الظلام وضعوا المصابيح الزيتية عند عتبات بيوتهم لتضيء الشوارع . وكالمعتاد في مثل هذه المناسبات كان الشباب يسيرون في جماعات وهم يحملون المصابيح اليدوية ويتهامسون في الزوايا المظلمة بحثاً عن الفتيات في الزحام . واعتادت الامهات ان يحذرن بناتهن من التعرض للاغتصاب في الظلام . واعتادت الفتيات ان

يرقصن وسط الحشود ويهززن اردافهن هزاً مثيراً لأنهن يعرفن ان الرجال ينظرون اليهن من الزوايا . كان كل منهم ينتظر ان يحدث شيء ما . ان الانتظار والترقب الذي صاحبه ـ مثل امرأة موزعة بين الخوف والفرح في لحظة الولادة ـ يشكلان الخيط الذي ينتظم الصياح والصرخات والضحكات . ينتقل الناس من شارع الى اخر وهم يغنون . كانوا يمدحون جومو وكاجيا واوجينغو . استذكروا وياكي الذي تحدى الرجل الأبيض حين جاء الى داغوريتي قبل عام ١٩٠٠ . استذكروا ابطالاً من قريتنا ايضاً ، وأبدعوا كلمات جديدة ليصفوا بها أعمال كيهيكا في الغابة ، تلك الأعمال التي لاتضاهيها الا أعمال موغو في الخندق وفي معسكرات الاعتقال ، لقد مزجوا التراتيل المسيحية بالأغاني والرقصات التي تقدم في بداية الطقوس عند ختان الأولاد والبنات . واعلانهم رجالاً ونساءً . وخلال ذلك كله مازال الخيط يتبعنا من شارع الى اخر . اقترحت احدى النساء ان نذهب ونغني للراهب موغو عند باب كوخه . سمع الناس النداء . وقبل ان يُتخذ القرار اندفعوا في الظلام الى كوخ موغو . أحطنا بالكوخ أكثر من ساعة . كان اسمه يتردد على كل الشفاه . حكنا اساطير جديدة عنه وتخيلنا اعمالاً قام بها . انتظرنا ان يخرج موغو ويشاركنا ، لكنه لم يفتح الباب لطرقاتنا . عندما حل منتصف الليل انطلق الناس في ترنيمة واحدة طويلة ، ثم ارتفعت صيحات النساء التي يطلقنها عند ولادة الطفل او ختانة . قدموا كل تلك الاغاني الى كيهيكا وموغو على أنهما بطلا التحرر في قريتنا . بعد ذلك مباشرة تفرقنا الى بيوتنا بانتظار الصباح حيث تبدأ احتفالات الاستقلال

الحقيقية .

في اواخر الليل تحول الرذاذ الخفيف الى مطر غزير . كان البرق يضيء اكواخنا ويدخل من شقوق الجدران . ازدادت حدة الريح مع ازدياد المطر . سمع صوت أنين مع دوي متواصل طوال الليل يأتي من الاشجار المتأرجحة والأشجار التي سقطت ، تحت ضربات الريح والمطر ، بأرواقها وفروعها . تسرب ماء المطر من بعض السقوف وتجمعت البرك داخل الاكواخ . وتجنباً للمطر حاول الناس ان ينقلوا فراشهم من مكان الى اخر ، فوجدوا خرير الماء في كل مكان .

كانت الريح المصحوبة بالمطر قوية جداً حد انها اقتلعت بعض الأشجار من الجذور وكسرت جذوع بعضها الاخر ، وتركت أشجار اخرى بلا فروع . رأينا ذلك في الصباح حينما اتجهنا الى حقل قريب من رونجي حيث تقدم الألعاب والرقصات لمناسبة احتفالات الاستقلال . كانت المزروعات على منحدرات الوادي قد تلفت والمياه الجارية حفرت خنادق متعرجة بين كل الحقول . انتشرت في كل انحاء الوادي نباتات البطاطا والفاصوليا المقلوعة من الأرض وتمزقت اوراق نباتات الذرة التي انجرفت اطرافها في اكوام عديدة .

كان الصباح كئيباً بحيث خشينا ان لاتبدأ فيه الحياة . لكن المطر توقف . صار الهواء عليلاً وطرياً ، ونضحت الأرض الحبلى دفئاً مس قلوبنا .

اختارت لجنة الاستقلال الحزبية الساحة لانها كانت مركزاً للقصبات المجاورة كلها . كانت الساحة تنحدر بشدة نحو حوانيت

رونجي . وبرزت فيها الخطوط الرياضية البيضاء التي ترتفع مع نتوءات الارض وتختفي في الثقوب والحفر الصغيرة .

في البداية ، انطلقت سباقات المدارس . بدا الاطفال انيقين بملابسهم الخضراء والزرقاء والبنية . كان لكل مدرسة مجموعة من المشجعين الذين يهتفون كلما انطلق طفل في الجري أو سقط ثم نهض ثانية ليواصل السباق . ادت فرقتان موسيقيتان من الشباب ألحان النصر والالحان العسكرية لتسلية الجمهور بين السباقات . وكانت الفرقتان من فرع الشباب في الحزب . اعقبت سباقات المدارس والعابها الرقصات التقليدية . كان الصبيان والبنات يسلون الجمهور بالعاب تقليدية حيوية . لقد صبغوا وجوههم بالطباشير والمغرة الحمراء وشدوا حلياً تصدر أصواتاً . كما قدم الشباب من الرجال والنساء رقصة الموكنغوا . اما النساء الأكبر سناً فقد لبسن زي الميثورو والمينغو وقلائد الخرز وقدمن رقصة ندومو . كان جيكونيو طوال ذلك الصباح ينتقل من مكان الى اخر ومن مجموعة الى اخرى ليتأكد ان كل شيء يسير على مايرام . ذلك هو اليوم الذي تسامى فيه واراد ان يحقق عبره نجاحاً باهراً .

لم يكن جمهور المتفرجين واسعاً جداً كما توقع جيكونيو . وخيم البرود على الدورة الصباحية ، اي على الألعاب والرقصات . خلاف ماكان متوقعاً في يوم الاستقلال .

حدث فجأة ، وقبل نهاية دورة الصباح ، شيء كسر الجمود . أعلنت ركضة ثلاثة أميال ـ اثنتا عشرة دورة حول الساحة ـ ويحق للكبار والشباب والنساء والاطفال الاشتراك فيها . هذا السباق

العفوي الذي لم يوضع في برنامج الإحتفال احيا الحفل وأثار حماس الجمهور . بدأ الناس يصيحون ويشجعون بعضهم على الاشتراك في السباق . واكبر عاصفة من التصفيق أثارها واروي عندما تقدم ، وهو الشيخ الكبير ، للمشاركة في السباق . أما مومبي التي تجلس الى جوار وامبوي فقد سالت دموعها من الضحك عندما قفز واروي الى خط الانطلاق . كان الأطفال يتراكضون بين المتسابقين الشيوخ .

قال موورا لكرانجا : «فلنشترك في السباق» .

اعترض كرانجا : «عظامي متيبسة» ، وكان ينقل عينيه من مومبي الى المتسابقين .

ـ «تعال ايها الرجل ، لقد كنت من السباقين في ركض المسافات الطويلة . تذكر تلك الأيام في مانغوا»

ـ «هل تشترك أنت في السباق ؟»

قال موورا : «نعم . ضدك» ثم سحب كرانجا من يده .

أربك ظهور كرانجا المفاجىء جيكونيو الذي تجنب النظر اليه بالانتقال الى مكان واروي وتبادل الحديث معه . تردد كرانجا ايضاً . لم يحسب ان جيكونيو قد يشترك في السباق . ثم أحس باحتقار شديد نحو النجار . لن يتخلى عن السباق . قرر ذلك وهو يتذكر سباقهما الى القطار . سيعاد تمثيل المسرحية التي لم تتم أمام مومبي وعلى بعد ياردات قليلة من محطة القطار نفسها . في هذه المرة قد يربح السباق ومومبي معاً . لماذا اذن كتبت له تلك الملاحظة . كان يفكر بتفاؤل وهو يستعد للسباق . تحدث موورا مع الجنرال راء

والملازم كونياندو ، وبدا كأنه يؤكد نقطة ما بأصبع يده اليمنى . تألفت مجموعة المتنافسين من الرجال والنساء واطفال المدارس ، وقد صدر لهم الانذار بالاستعداد . خيم الصمت على الساحة قبل لحظة من بدء الصفارة . ثم انطلقت أصوات المتفرجين التي صحبت صوت الصفارة . اجتاز الراكضون بعضهم وسقط صبي على الأرض ، الا أنه نجا بأعجوبة من بين الاقدام العديدة .

انسحب واروي بعد قليل . ذهب وجلس الى جوار وامبوي وومبي . داعبته مومبي بقولها : «انت ؟ لن أثق بقوتك بعد الان . لقد خيبت أمل نسائك المخلصات» .

قال وهو يهز رأسه : «دعوا الأطفال يلعبون . في ايامنا كنا نركض أميالاً وأميالاً خلف القطعان التي يسرقها الماساي . ولم يكن ذلك لعباً» .

بعد نهاية الدورة الأولى تبع الكثير من المتسابقين نموذج واروي وتركوا السباق . اكملت امرأة واحدة الجولة الثالثة . وانسحب اكثر الناس من السباق في نهاية الدورة الرابعة . عندما لاحظت مومبي وجود كرانجا توقفت عن التصفيق مباشرة . تحول انفعالها الى ذكريات الامس . ان منظر كرانجا وجيكونيو معاً في الساحة أحرجها فتمنت لو بقيت في البيت مع أبويها . لماذا جاء كرانجا على الرغم من ملاحظتها التحذيرية . أو تراه لم يتسلم رسالتها ؟ وعندما رأت الجنرال في السباق تذكرت ماقاله قبل يومين . برز معنى كلماته أمامها بأبعاده كلها لانها تعرف الوضع جيداً . تغيرت الظروف منذ ان كتبت اليه تلك الرسالة . لم تكن تعرف ان الرجل الذي خان

كيهيكا فعلاً يعد الان بطل القرية . كيف تقول ذلك لاي شخص ؟ هل تستطيع ان تزيد من تعاسة موغو الذي شوه الألم وجهه وعينيه ؟ تذكرت اصابعه فوق فمها واصابع اليد الاخرى التي تحسست رقبتها ، ثم تذكرت الفراغ المريع في عينيه . أبعد يديه فجأة عن جسمها وركع أمامها منكسراً نادماً ذليلاً .

قال بانفاس متقطعة : «مومبي» ، ثم مد يديه الى نصف المدى وغطى بهما وجهه . أخرستها كل تلك التغيرات المفاجئة في مزاجه وحركاته . وعلى الرغم من خوفها الا انها وضعت يدها المرتجفة فوق كتفه .

ـ «اسمع ياموغو ! انا رأيت أخي يموت . وكان هناك ضابط المنطقة ورجال الشرطة» .

ـ «انت تملكين عينين واذنين . ألا تعرفين من خان أخاك ؟»

ـ «كرانجا . لقد كنت هناك عندما اخبرنا الجنرال بذلك»

ـ «كلا»

ارتدت عنه . عرفت الامر من صرخته الجوفاء ومن نظرته .

ـ «أنت»

ـ «انا ، نعم انا»

لم ينظر اليها . أثر فيها صوته المتوسل ، لكنها لم تستطع ان تمنع نفسها من الاشمئزاز والارتعاش . سارت نحو الباب ، بعيداً عن الهيكل الثابت لبطل القرية . لم تكن لديها كلمات ولا أحاسيس . لاشيء . فتحت الباب آلياً وبسرعة . كانت الليلة ظلماء . بدا كأنها تمشي وتركض في الوقت نفسه . الظلام . لم تظهر حتى أخيلة البيوت

والاشياء . هطل المطر . كانت اصوات الرجال والنساء الذين يغنون اغاني الأستقلال تصلها عبر المطر كأنها تأتي من قرية بعيدة .

أخبرت وامبوي صباحاً بأن : «موغو لايريد أن يشارك في الإحتفالات . ألا يمكن ان نتركه وشأنه ؟» ان المعلومات التي تحملها في داخلها خلقت لها أزمة جديدة . إما كرانجا أو موغو . الا انها لا تريد ان تؤذي أحداً بسبب أخيها . رغبت في ان تتحدث الى جيكونيو الذي قد يجد حلاً . تساءلت ثانية ، لماذا أهمل كرانجا رسالتها ؟ نفرت فجأة من نفسها : لماذا تهتم بإنسان حطم حياتها ؟

سألت وامبوي : «ما الأمر ؟»

أجابت مومبي بسرعة : «لاشيء» وبدأت تصفق بما يشبه الجنون .

حاول جيكونيو ، وهو يركض ، ان يستعيد اشياء اخرى ـ الوجوه المألوفة في التجمع ، حوانيت رونجي في الأسفل والمنطقة المستوطنة الى الجانب الاخر . هل يعيد الاستقلال الارض الى أيادي الفلاحين ؟ وهل يحقق ذلك اي اختلاف في حياة الرجل القروي البسيط ؟ سمع صوت قطار في المحطة . فكر في أبيه الذي يعيش في اراضي الوادي الصخري . هل مازال على قيد الحياة ؟ كيف يبدو الان ؟ استعرض طفولته وشبابه وحبه مومبي ، ثم كيهيكا والطوارىء ومعسكرات الاعتقال والأحجار على الرصيف والعودة الى الخيانة . كل ذلك مر بذهنه في تعاقب سريع . كيف سيطرت مومبي على حياته ؟ ان غيابها جعله أعزل ومنكسراً . هز رأسه بغضب واجبر نفسه على التركيز في السباق الحالي . اصبح هو وكرانجا

متنافسين مرة ثانية . ولكن ، من اجل اي شيء أو من أجل من يتنافسان ؟ فكر في ان كرانجا يسخر منه . كان يغلي حقداً حين التقط انفاسه ومسح العرق من جبينه . واصل الركض ورغبة الفوز تمور في نفسه حافظ على موقعه في اعقاب كرانجا . كان هدفه ان يبقي مسافة معينة بينهما محافظاً على طاقته للدورة الأخيرة التي سيندفع فيها الى الأمام واثقاً بأن عضلاته ستطيع ارادته .

كان موورا متقدماً في الدورة السابعة ، يأتي بعده كرانجا على بعد بضع ياردات ثم الجنرال وجيكونيو والملازم كونياندو وثلاثة رجال اخرين على التعاقب . اما المتنافسون الاخرون فقد انسحبوا . تجمع المتفرجون حول الساحة وبدأوا يهتفون لهذا المتسابق احياناً ولذاك احياناً اخرى . كانوا يصيحون : استمر ، واصل . كان ركض المسافات الطويلة دائماً لعبة شعبية في ثاباي . ويحتقر الناس ركض المسافات القصيرة ويعدونه من لعب الأطفال . نسى ، حتى اولئك الذين تعرضوا لأذى كرانجا يوم كان مختاراً وقائداً للحرس المحلي ، الان مرارة مشاعرهم تجاهه وبدأوا يهتفون له .

تذكر كرانجا مشهداً من الماضي في محطة سكك الحديد عندما وقف هناك متألماً لعلمه بان جيكونيو وومبي تخلفا وحدهما . كم اشتاق الى المرأة ! ياالهي . كم عزف قيثارة من أجل مومبي في الغابة . لو لم يكن متردداً منتظراً لكان من الجائز ان يحصل عليها . عندما طلبها متأخراً رفضته بابتسامة ، واسلوب الرفض ذاك شده اليها اكثر . انتظر فرصته . حين اخذوا جيكونيو الى المعتقل كان على كرانجا ان لايفعل مايجعلهم يأخذونه بعيداً عن مومبي . باع اسرار

الحزب والقسم ، وكان الثمن هو البقاء قرب مومبي . جرفه التيار فيما بعد اكثر فاكثر لخدمة الرجل الابيض . اعطته تلك الخدمة القوة ـ قوة القدرة على الانقاذ ، على الاعتقال ، على القتل . خضع له الرجال فاحتقرهم وخاف منهم في الوقت نفسه . عرضت له النساء اجسادهن عارية . كان حتى الرجال المحترمون يأتون لزيارته ليلاً . لكن مومبي لم تخضع ابداً . لم يرغب في التعامل معها بالقوة ، ومن الغريب ، كما فكر بعدئذ وكما يرى الان ، انها استسلمت له عندما وقف على حافة الهزيمة . كان قد شعر بانتصار مكثف انذاك . وبعد لحظات من العملية ذاب في عزلة ومهانة . لقد استغلها فاحتقرته . لم يستطع النظر الى وجهها بعد ان لطمته بالحذاء على وجهه فأسال الدموع من عينيه . كان يتمنى ان تأتي اليه بحريتها على انه مهم بالنسبة اليها وشخص لايقاوم . والان يركض من اجلها . ألم تعطه هي فرصة ثانية ؟ ان رسالتها انقذته من يأس مريع . سافرت عائلة تومبسون ، وسيرحل الاخرون . عندما كانت عائلة تومبسون هناك اعتقد كرانجا بأن القوة البيضاء لن تزول ابداً ، ربما لان تومبسون هو أول رجل أبيض يقابله كرانجا . ظهر ضابط المنطقة تومبسون قبل الطوارىء رمزا لحكومة الرجل الابيض وتفوقه ، أعطت تلك القوة البيضاء كرانجا ضماناً فظيعاً ، ذلك الضمان الذي اهتز من الجذور وتمزق الان قطعا مبعثرة . سار في ممرات مظلمة . لم يستطع ان يرى النور . جاءته الرسالة بعدئذ ، حذرته من حضور الاحتفال هذا اليوم . لماذا ؟ لقد دعاه موورا ، لكنه رفض الحضور بسبب يأسه . رسالتها جعلته يفكر طوال الليل . وكل لحظة مرت به

زادت من رغبته في رؤيتها . كانت ثاباي ، على أية حال ، قريته . من يجرؤ على القول ان كرانجا لايستطيع الذهاب الى بيته ؟ في احدى زوايا قلبه أحس كرانجا بسيطرته الجسدية على مومبي . ألم تكن بعد ذلك أماً لأبنه ؟ لم يأخذ تحذيرها جدياً . انه اسلوب المرأة في التعامل . وتأكدت هذه الفكرة عندما وصل مع مووروا الى رونجي وعلم بان مومبي تركت زوجها . نفذت رسالتها الى قلبه . فكر بمرارة في انه يجري من أجلها طوال حياته . لكن الفكرة مرت بذهنه لحظة حسب . يجب ان لايدع هذه الافكار تعيقه عن انتصاره الحالي . هذا هو سباقه الأخير . ان حصل على مومبي فستكون حياته كاملة . ان تبعات الاستقلال وتهديداته لن تمسه بأذى . وهكذا زاد من سرعته . عليه ان يلحق بمووروا في الدورة العاشرة . يجب ان يتقدم اكثر على جيكونيو الذي يتبعه كظله .

تقدم جيكونيو الان على الجنرال واحتل المرتبة الثالثة . عض على اسنانه بعزم . كان يعرف ان مومبي تراقب السباق ، ولم يرد ان يهين عشيقها امامها . فكر في انها جاءت للسخرية منه . لقد حضرت لتظهر له انها الان حرة . ذهب الى مكانها مرتين ليتحدث الى وامبوي وقد تجاهل وجودها باصرار . جعله هذا يحس بحمقه ويزيد من غضبه . لاحظ ان كرانجا يزيد من سرعته فاسرع خلفه . لم يخرق النظام أي شخص حتى الان . كانوا في الدورة الثامنة وادرك الجمهور التوتر والحماس . نسيت حتى مومبي هموم قلبها وانجرفت مع حرارة الموقف . أرادت ان يفوز جيكونيو ، لكنها صلت من أجل ان يخسر السباق . انتقدت ركضه الاخرق ، لكنها تابعت تقدمه

بحماس . هتفت للجنرال وللملازم كونياندو اللذين يجريان خلف جيكونيو . تقدم ، تقدم ، وكان قلبها يخفق حين تلوح بمنديلها الأبيض . وكلما مر بقربها كرانجا احست بالحرج ، ولم تستطع السيطرة على احساسها هذا .

كان الجنرال يركض بسهولة . لقد اعتاد ان يركض المسافات الطويلة قبل حالة الطوارىء حتى انه كون نظرية في هذه السباقات . اعتاد ان يقول : «انهم يختبرون قدرتك على تحمل المشاق فتقول لنفسك لن استسلم . سأبقى الى النهاية» . وكان جسمه يتحرك بايقاع جميل . في اثناء ركضه استعاد دوره في المشهد الذي يجري بعد ظهر ذلك اليوم . لقد طلب منه ان يتحدث بدلاً من موغو . قرر أن لايخذل كيهيكا الذي كانت روحه تحكم التجمع بنجاح .

لم يستقر ذهنه في العمل . ومن دون سابق انذار عاد بذهنه الى نايبري . كان قد ولد هناك . ان المدرسة وتلقي العلوم هما حلم طفولته وطموحه . تذكر كيف قام بأعمال غريبة كعامل حصاد أجير في حقول الاخرين . كان أبوه قاسياً ، اذ يأتي الى البيت ثملاً ويكيل الضرب لأمه التي تئن وتبكي مثل حيوان في قفص . اما موهويا ـ وهذا هو اسمه الحقيقي ـ فكان يخضع خوفاً أو يهرب خارج البيت . كره نفسه لصغر جسمه وعدم شجاعته . لكنه لم يبك مثل الأطفال الاخرين حتى عندما يضربه أبوه . أقسم مع نفسه انه سينال منه في يوم ما . لم يكشف عن خططه لأي شخص ـ حتى لأمه . في يوم ما سيقتل الظالم وسوف تبكي أمه امتناناً ، على الرغم من انها لم تتذمر من الخرق البالية التي تلبسها ولا من الضربات

التي تنهال عليها . عندما كبر خفت رغبة الانتقام . لقد اجل موعد التنفيذ الى المستقبل المجهول . لكن ذلك اليوم الموعود جاء على نحو غير متوقع . كان موهويا شاباً حين عاد الى البيت ووجد أباه يمارس لعبته المفضلة . أحس الشاب فجأة بأن اليوم قد حان . صرخ بأبيه : «اذا كنت تخشى على حياتك فلا تلمسها مرة ثانية» . في البداية دهش أبوه دهشة تخدرت معها يده في الهواء . هل حقاً ماسمع ؟ هل الحمل الوديع رفع صوته ؟ تملكه غضب الأسد . خاف موهويا ، لكنه رأى الخوف في عيني الأسد . انقطع شيء ما داخل موهويا . أمسك أباه من ذراعه وضربه . ان اعوام الحقد والخوف جعلته ينفعل بسرور مخيف . اشتبك الأب والأبن في صراع الحياة والموت . الا ان موهويا لم يضع في حسابه خيانة العبد . أخذت المرأة عصا وبدأت تقاتل الى جانب زوجها . لم يصدق موهويا وقد اصابه الحذر . كانت تصرخ وهي تضربه على كتفه : «انه أبوك ، انه زوجي» . هرب موهويا من البيت . وبكى أول مرة . لاأفهم ، لاأفهم الامر . انتشر الخبر في الليلة نفسها . رفع أحد الابناء يده على أبيه . طرد موهويا من القرية . كان سعيداً عندما جنده الانجليز في الحرب . لكنه لم ينس ابداً تلك التجربة .

سمع مومبي تهتف له ، وقد أعاده ذلك الى الحاضر . رد على هتافها بزيادة سرعته . اجتاز الملازم كونياندو . ركض بعنف . لم يرد أن يفكر في الماضي ، لم يرد أن يعيش مثل تلك الطفولة .

بدأت المسرحية تزداد سرعة . حاول كونياندو أن يتجاوز المسافة بينه وبين الجنرال ، لكنه لم يستطع ان يستجمع ارادته للسباق .

خارت قواه . أحس بانه جثة هامدة . رافقه ذلك الاحساس طوال اليومين الماضيين . لم يستطع ان يفهم ذلك . لقد مر بتجارب أقسى . في الحرب العالمية وفي اثناء وجوده في الغابة . كان سعيداً لأنه عمل طباخاً لدى الرجل الابيض في تلك الحملات . وقد تحدث عن ذلك بفخر بعد الحرب . الا ان البطالة المستمرة انهكته واطبقت عينيه الى النصف . كان كونياندو من النوع الذي يقع دائماً في مشاكل مع مستخدميه لانه دائم الشكوى . تحدث كثيراً عن خدماته للرجل الابيض خلال الحرب وادعى ان ذلك يؤهله لمعاملة افضل . في معمل الأحذية قرب بيته قال مرة لرئيسه أمام العمال : «أريد المزيد من المال واريد سيارة مثل سيارتك» . طرد من المعمل . وقد ايقظته تلك الحادثة الى حد ما . ذهب بعد ذلك للعمل عند المرأة . ان ما يقلقه الآن هو الآتي : عندما كان في الغابة حارب وقتل بلا رحمة . لكن أياً من تلك المشاهد الدموية لم يؤرق منامه ، بل على العكس ، أعطاه القتال من أجل الحرية هدفاً في الحياة وجعله رجلاً . لماذا اذن يؤرقه شبحها ؟ لقد مرت سنوات عديدة منذ ان ترك الخدمة لديها . أحب كلبها فسرها ذلك وجعلها تقدم له الهدايا في اعياد رأس السنة . فجأة بدأت افكاره تمور . لم يكن لها زوج ، وكانت تملك بيتاً كبيراً . لماذا ؟ لماذا يعيش هو الرجل في كوخ ذي غرفة واحدة ؟ تحدث في الأمر الى الاخرين وكشف لهم افكاره . كانت وحيدة . ليس من الصحيح ان تعيش المرأة وحيدة . ياصديقي ، سأنال منها . ساسبح في عالمها . ضحك الاخرون من حديث كونياندو المرح . لكن مابدأ نكتة اصبح هاجساً ملحاً . وقد جاءت الفرصة أيام

الطوارىء . اتفق مع اثنين اخرين وطرحوها ارضاً . كان يرتجف من الخوف والحقد العميق . كره الرجل الابيض واراد ان يثأر لنفسه من البيض في تلك اللحظات . أحس بصرخاتهم الخائفة في تنفس المرأة الشبية بالضجيج . الرجل الابيض لاشيء . الرجل الابيض لاشيء . كان يقول كأنه يحدث نفسه : انا أفعل بك مافعلتموه بنا نحن الشعب الأسود . في تلك اللحظة كان ينهي ممارسته معها بخوف ويأس قاسيين . هرب بعد ذلك مع الرجلين الاخرين الى الغابة . بمرور السنين نسي الحادث الى ان ذهب الى غيثيما ليرى موورا . هناك التقى الدكتورة ليند وجهاً لوجه . جعلته تلك المواجهة يرتعش حتى الان ، وهو يركض في السباق . عاد الشبح ينغص حياته . ان شراب الاستقلال العذب لم يكن له طعم في فمه . تقدمه الجنرال بمسافة طويلة . حاول كونياندو ان يتقدم بصعوبة . ارتفع هتاف الجمهور واعطى اطرافه قوة . قال وهو يلهث ـ النضال فقط ، النضال فقط .

في بداية الدورة الحادية عشرة اندفع جيكونيو أمام كرانجا . ارتفعت موجة من الهتاف والصياح مع هذا التحول في الترتيب . اعطت هذه الموجة كرانجا قوة اضافية فبذل محاولة يائسة لأستعادة موقعه الاول من خصمه . ثم لحق جيكونيو بموورا الذي حاول عبثاً ان يحافظ على موقعه ، فقد جاء كرانجا ايضاً واجتازه . خاب أمل موورا فتخلف عن الاخرين . أصبحت المنافسة الان بين جيكونيو وكرانجا . ان القليل جداً من الجمهور يعرف الحوافز الخفية وراء تلك المعركة . احس الجمهور فقط بالتوتر والحماس الغريب . في

الدورة الأخيرة كان الأثنان يركضان كتفاً لكتف . في لحظة ماظهر كأن كرانجا سيجتاز جيكونيو ، لكن الشيطان تقمص جيكونيو . حقاً هناك امر غريب في طريقة جريهما . وقف الناس على أطراف اصابعهم .

في تلك اللحظة حدث شيء لم يكن بالحسبان . حين كان جيكونيو يركض اشتبكت قدمه بالاعشاب فسقط على الارض وتعثر به كرانجا فسقط هو الاخر . خيم الصمت على الساحة . اجتازهما الجنرال راء مع الاخرين ووصلوا الى النهاية .

بعدها سادت الفوضى في الساحة . اندفع الناس الى المكان الذي وقع فيه الرجلان . عندما سقط جيكونيو سقط المنديل الذي كانت تلوح به مومبي . صرخت «نغاي» وركضت اليه عبر الساحة . ركعت على ركبيتها وفحصت رأسه بدقة . كان جيكونيو متعباً وغاضباً بحيث لم يعرف ما كان يدور حوله . استعاد كرانجا وعيه اولاً ورفع نفسه قليلاً على كوع يده اليسرى . عند رؤيته رأس جيكونيو بين يدي مومبي الرقيقتين خبا الضوء في عينيه وسقط على الارض ثانية . انهمك الناس بالحديث عنهما . اما مومبي ، فبعد ان تأكدت من عدم تعرض جيكونيو لخطر جدي ، تذكرت انفصالهما . أحست بالإحراج واندفعت تشق طريقها بين الجماهير الى البيت قبل ان يكلمها أي انسان . تفرق الناس وهم يتجادلون في أي من الاثنين كان يمكن ان يحقق الفوز . وقف البعض مع بعضهم الى جانب كرانجا ، بينما وقف اخرون الى جانب جيكونيو . عندما ابتعد الناس لاحظ بعضهم ان جيكونيو لم ينهض . كان العرق ينضح منه والألم

يرتسم على وجهه . حاول ان ينهض فتأوه وعاد الى الجلوس . حين نقل الى المستشفى عرف الناس ان ذراع جيكونيو اليسرى قد كسرت .

أنهت تلك الحادثة دورة الصباح . بزغت الشمس بعد الظهر وسطع نورها في السماء . تبخر الضباب الذي تبقى منذ الصباح . تصاعد بخار الارض رمادياً كما يتصاعد من روث البقر النازل تواً . انتشر البخار وارتفع الى السماء الصافية . بعد الظهر يقدم الإحتفال الرئيس لأستذكار الأبناء الموتى ومباركة أسس المستقبل الجديد . بدا كأن كل انسان ينتظر ويهيىء لهذه المناسبة . حضر كل الناس في قريتنا المهرجان عدا العجائز والمرضى والمقعدين . كان ذلك يوم كيهيكا . كان ذلك يوم موغو . كان ذلك يومنا .

جاء الناس من ندييا ولاري وليمورو ونغيكا وكابيت وكيرارابوت . جاءوا بالحافلات وازدحموا في منطقة سوق رونجي . وكان هناك طلبة المدارس بملابسهم الملونة الخضراء والحمراء والصفراء وكل الوان قوس قزح . وقف أطفال القرية بأسمالهم البالية وقد تجمع الذباب على قذى عيونهم وأفواههم . لبست النساء المينغو والميثورو وقلائد الخرز حول اعناقهن ، وظهرت اخريات بالكاليكو المرتب على وفق نموذج الزهور والذي يكشف عن الكتف اليسرى ، بينما ارتدت بعض النسوة الزي الحديث . غنت النساء تراتيل مسيحية ممزوجة بأغاني الأستقلال والأغاني التقليدية . وقف الرجال في مجموعات وتحدثوا عن الامكانيات التي يأتي بها الاستقلال . كان بعضهم بلا عمل وقد لبسوا معاطف لم يمسها الماء او الصابون . هل تكون

الحكومة اقل تشدداً مع الذين لايستطيعون دفع الضرائب ؟ هل تتوفر فرص عمل اكثر ؟ هل تتوفر أراضٍ اكثر ؟ ناقش الأغنياء من أصحاب المحلات والتجار وملاك الاراضي امكانيات العمل بعد تسلمنا السلطة . هل يتخذ اجراء معين بصدد الهنود ؟

جلسنا . بكى غيثوا من شدة الفرح . كنا نسميه مزاحاً بطلنا ذا الرجل الواحدة .

حقق الجمهور تناسقاً جيداً . كان جميلاً أن ترى تلك الاعداد الغفيرة من الناس وهي تجلس في تجمع منظم .

زرعت شجرة عند المكان الذي شنق فيه كيهيكا .وربط بحجر قربها خروفان أسودان لاعيب فيهما كي يقدما قرباناً . كان قد اختير واروي واثنان من وجهاء قرية كيهينغو لادارة مراسيم تقديم القربان بعد أن تلقى الكلمات عن اولئك الذين ضحوا بحياتهم في النضال . احتل مبوغو ووانجيكو كرسيين بارزين قرب المنصة . نظمت الكراسي للخطباء وقادة الإحتفال قرب المايكروفون المثبت فوق المنصة العالية . لكن مومبي ذهبت الى المستشفى بعد أن سمعت بذراع جيكونيو المكسورة .

مرة ثانية خيم على الجمهور ترقب يقطع الانفاس . بدا كأن الناس مازالوا ينتظرون خطاب موغو . ارادوا أن يروه شخصياً ويسمعوا صوته . انتشرت القصص عن قوة موغو من شخص الى اخر ، وكانت هي السبب في التحول الكبير . لم يكن ممكناً تجاهل المعلومات المتناقضة التي تحولت بسرعة الى أساطير مثيرة . على اية حال ، لا أحد في قريتنا حمل ذلك التجاهل محمل الجد . قال بعض

الناس أن موغو اطلق عليه الرصاص في المعتقل لكن الرصاصات لم تنفذ في جلده . كان موغو بقواه تلك السبب في هروب الكثيرين من المعتقل والتحاقهم بالقتال في الغابة . ومن غير موغو استطاع أن يبعث الرسائل في المعسكر الى اعضاء البرلمان في انجلترة ؟ وقد قال بعضهم إنه اشترك في معركة (ماهي) ، وكان يقاتل جنباً لجنب مع كيهيكا . كانت كل تلك القصص تدور في المهرجان . وكنا نردد اغنية بعد اخرى عن كيهيكا وموغو . ربط بين قلوبنا شيء مقدس هادىء . توقعنا أن يحدث أمر غير عادي . جاء بعض الناس من بعيد ليروا موغو وهو يقوم بالمعجزات أو حتى يتحدث الى الرب . لم يكن احساسنا بهيجاً تماماً . كان احساساً مزعجاً بقدر لامفر منه .

وقف سكرتير الحزب أمام الميكروفون بدل جيكونيو . كان ينامو قصيراً متين البنيان . القي عليه القبض في اثناء الطوارىء وهو يحمل الرصاص في جيوبه . قيل ان أعمامه الاغنياء (وهم من الموالين) رشوا الشرطة . لهذا السبب ، ولصغر سنه ، اذ كان عمره سبعة عشر عاماً ، لم يحكم عليه بالموت ـ وهو الحكم الذي يصدر على كل من وجد بحوزته سلاح او عتاد . وبدلاً من ذلك سجن سبع سنوات . دعا نيامو القس كينغوري لافتتاح المهرجان بالصلاة . قبل عام ١٩٥٢ كان كينغوري واعظاً معروفاً في كنيسة كيكويو اليونانية الارثودكسية ، وهي احدى الكنائس المستقلة التي خرجت على المؤسسة التبشيرية . عندما منعت هذه الكنائس بقي كينغوري بلا عمل فترة طويلة قبل أن يعمل مرشداً زراعياً خلال فترة توحيد الأرض في المقاطعة الوسطى . وهي الوظيفة التي يشغلها حتى

الآن . اعتاد ، كواعظ ، أن يغني ويمثل مضامين الصلاة ، يرفع صوته ويشخص بعينيه الى السماء ثم يخفضهما فجأة . وغالباً مايضرب صدره ويجذ شعره وملابسه . صار الاحتجاج خضوعاً والحلم كرباً والوعيد وعداً . وقف على المنصة وبيده الانجيل :

كينغوري : فلنردد الصلاة . يارب افتح قلوبنا .

الجمهور : وسوف تنطق أفواهنا بمديحك .

كينغوري : ياإله اسحق ويعقوب وابراهيم ، يامن خلق جيكونيو وومبي واعطانا ، نحن اولادك ، أرض كينيا هذه . اننا في هذه المناسبة التي تتذكرها جميع شعوب الارض ، نرجوك أن تنزل علينا دموعك ، لأن دموعك ياالهي بركات خالدة . لقد اريقت الدماء من اجل هذا اليوم . أن كل شاخص في اكواخنا لم يعمد بدماء الغنم ، انما بدماء ابنائنا وبناتنا الذين ماتوا من اجل أن نعيش . في كل مكان من قرانا وفي الاسواق والحقول ، حتى في الهواء ، سمعنا الارامل والأيتام يبكون . لكننا عندما كنا نمر بهم نرفع أصواتنا بالحديث كي نغطي على أنينهم لاننا لم نستطع أن نفعل شيئاً . ياالهي ، لم نستطع أن نفعل شيئاً . انك انت الذي قلت : إن اجتمع اثنان او ثلاثة معاً فساعطيهم كل ما يطلبون . اننا نتوسل اليك بصوت واحد أن تبارك عملنا حين نحرث الارض وحين ندافع عن حريتنا ، لانه مكتوب : أطلب وستعطى ، اطرق وسيفتح لك ، ابحث وسوف تجد . اننا نطلب كل ذلك باسم سيدنا المسيح ، أمين .

الجمهور : آمين .

بدأ الناس يغنون بقيادة فرقة الشباب والطبول وآلات القيثارة

والمزامير والصفائح . كانوا يعيدون خلق التاريخ مرة اخرى ويغذونه بحياة جديدة عبر الكلمات والأصوات ، غربة الارض ، وياكي ، هاري ، ثوكو ، الضرائب ، اعمال السخرة في اراضي البيض ، الانفصال عن البعثات التبشيرية . آه ، والعطش الشديد الى التعليم . كانوا يغنون لجومو (جاء مثل الرمح الملتهب بيننا) ولبقائه في انجلترة (أقام موسى مؤقتا في ارض فرعون) ولعودته (جاء على غيمة من نار ودخان لانقاذ اطفاله) . كان قد اعتقل وارسل الى لودور . وفي اليوم الثالث عاد من مارالال . جاء الى الوطن في عربة . لم تصمد أبواب الجحيم أمامه .

قرأ نيامو اعتذارات نائب المنطقة واعضاء الجمعية الأقليمية الذين ذهبوا الى نيروبي لتمثيل منطقة رونجي في الاحتفالات الوطنية . لكنه لم يذكر غياب موغو .

وجاء بعدئذ دور الخطب . تحدث معظم الخطباء عن المعاناة أيام الطوارىء او عن تطور الحزب . كانوا فخورين بكيهيكا ، ابن القرية الذي لايمكن نسيان نضاله من أجل الحرية . استعادوا صفات شجاعته وتواضعه وحبه الارض . كان موته قرباناً للأمة .

في نهاية كل خطبة يصفق الجمهور أو يغني حتى لو كان الخطيب قد كرر النقاط التي اوردها الاخرون قبله . كان صوت غيثوا ، عندما يهتف او يصيح ، يغطي على أصوات الاخرين قربه . انتظر الناس ان يسمعوا خطبة موغو . كلما جلس خطيب ظنوا ان التالي سيكون موغو نفسه . كم انتظروا صابرين لأن افضل الطعام يقدم في النهاية .

أخيراً اعلن نيامو ان الجنرال راء الذي قاتل جنباً لجنب مع كيهيكا سيتحدث بدلاً من موغو . هناك ظروف خارجة عن ارادة اي انسان منعت موغو من حضور المهرجان . قوبل ذلك الاعلان بصمت في البداية . نادى إسم موغو رجل في احد اركان المهرجان . سرعان ما التقط الجمهور النداء فتردد في كل انحاء الساحة حتى ملأ إسم موغو المهرجان بنسق تهديدي . ثم تحول النسق الى صرخة وحركة غير انضباطية . نهض الناس وشكلوا مجموعات وبدأوا يتجادلون ويؤشرون بايديهم ويحتجون كأنهم خدعوا بالمهرجان . تشاور نيامو مع كبار السن . قرروا ان يقوموا بمحاولة أخيرة مع موغو . حاول نيامو والاخرون اعادة النظام بعد ان وعدوا بارسال وفد من عضوين حالاً لدعوة موغو . وقد طلب من الوفد ان لايرضى بجواب الرفض . وخلال ذلك الوقت ، هل يعود الناس الى مقاعدهم ويستمعوا الى حديث الجنرال ؟ لقد أعيد الهدوء بأغنية الخندق .

وقفز الى الخندق .

الكلمات التي قالها للجندي نفذت في قلبي كالسهم .

قال : لن تضرب المرأة .

قال للجندي : لن تضرب امرأة حبلى .

مر تحت الكلمات صوت يشبه رنين وتر مقطوع . ثم خيم على الحشد صمت مطبق . وقف الجنرال قرب الميكروفون وحاولت عيناه الحمراوان ان تنفذا في الجمهور . تنحنح مرتين . عرف مايقول . لقد ردد خطبته كلمة فكلمة عدة مرات . لكنه الان ، وهو يقف على حافة الهاوية ، وجد من الصعوبة ان يقفز او يثبت عينيه في المشهد

تحته . برقت في ذهنه صورة مكثفة واحدة لحياته في الغابة . رأى الكهوف المظلمة في كينيني ، الهروب من القنابل في غابة نياندارو ، والعطش والجوع واللحم النييء ، ثم الانتصار في (ماهي) . سمع صوتاً في داخله يؤكد : أخبرهم عن ذلك ، أخبرهم كيف خططتما انت وكيهيكا لذلك . اختفت تلك الصورة وذلك الصوت . برز أمامه الان وجه القس جاكسون كيغوندو وهو يسخر منه ويتهمه . «انه يشبه أبي» قال الجنرال ذلك مرة في لحظة ضعف للملازم كونياندو مباشرة بعد ان قتلا رجل الدين . كان جاكسون يهاجم الماماو دائماً في الكنائس وفي الاجتماعات العامة التي يعقدها توم روبسون . لقد دعا المسيحيين للقتال الى جانب الرجل الابيض ، أخيهم في الدين ، لاعادة النظام وحكم الروح . برزت أمام الجنرال تفاصيل ذلك المشهد حين طوقوا بيت القس وقطعوه ارباً . لم يظهر جاكسون اي نوع من الخوف . لقد سجد وصلى من أجل اعدائه حين كانت الفؤوس تقطع جسده حتى الموت . ذلك العمل أرعب الجنرال فطلب من اتباعه ان يغمسوا فؤوسهم في جسد الرجل كي يشارك الجميع في الذنب . لماذا يظهر وجه الرجل الان أمامه ؟ خاطب ذلك الوجه قائلاً : يجب ان تموت . لكن الكلمات لم تخرج من فمه . أمسك بالميكروفون ليعيد التوازن الى نفسه . انتبه فجأة الى ان الجمهور انتهى من الأغنية وهو في انتظاره الان . أوقع ذلك الجنرال في فزع . خرجت الكلمات وبدا كأنه يطلب البراءة ويقدم الأدلة في محكمة محتشدة بالناس . وقف المشتكي جاكسون الى الامام ووجهه ملطخ بالدم . هل يمكن للاخرين ان يروا ذلك الوجه او انه صورة في ذهنه

فقط . هذا ما تساءل عنه الجنرال . نظر الى الامام وخاطب الوجه الذي كان يسخر منه :

«أنت تسأل لماذا قاتلنا ، لماذا عشنا في الغابة مع الحيوانات المتوحشة . أنت تسأل لماذا قتلنا وارقنا الدماء» .

«كان الرجل الابيض يركب العربات ويسكن في بيوت كبيرة جداً ، وكان أولاده يذهبون الى المدارس . ولكن ، من حرث الأرض التي انبتت القهوة والشاي والقنب ؟ من حفر الطرق ودفع الضرائب ؟ الرجل الابيض عاش على ارضنا وأكل مانزرعه ونطبخه . كان حتى الفضلات يرميها الى كلابه . لهذا ذهبنا الى الغابة . ومن لم يكن معنا كان ضدنا ، لهذا قتلنا بعض أخواننا السود . كان اولئك في داخلهم يمثلون الرجل الابيض . أعرف ان الحرب لم تنته . اليوم حصلنا على الاستقلال ، وغداً نسأل : أين الأرض ؟ أين الطعام ؟ أين المدارس ؟ لذلك نطالب بتحقيق هذه الأشياء الان لأننا لانريد حرباً اخرى . لامزيد من الدماء في ... في ارضنا هذه» .

وجد الجنرال صعوبة في الاستمرار . حين نظر الى الجمهور زالت شكوكه . عرف انهم اصبحوا معه لان مطالبته بالتغيير تمثل كلمتهم . اختفى الوجه الساخر . عاود خطبته حينذاك بصوت هادىء واثق .

«قبل سنوات من هذا اليوم شنق كيهيكا بحبل على شجرة هنا . وقد جئنا لنتذكر الرجل الذي مات من أجل الحق والعدالة . ونحن اصدقاءه نريد ان نكشف لكم الحقيقة كلها عن موته كي تأخذ العدالة مجراها . لقد قيل ، وانتم جميعاً تعرفون هذه القصة ، ان

قوات الأمن ألقت القبض على كيهيكا . ولكن هل سألتم انفسكم بعض الاسئلة ؟ هل القي عليه القبض في معركة ؟ لماذا كان وحده ؟ لماذا لم يكن مسلحاً ؟ أنا أخبركم . في تلك الليلة ذهب كيهيكا لمقابلة الرجل الذي خانه» .

توقف قليلاً ليفسح المجال لكلماته ان تترسب في أعماقهم . بدأ الناس ينظرون الى بعضهم ويتهامسون . كانت المسرحية اكثر اثارة مما توقعوا .

صاح أحد الاشخاص : «استمر» .

ارتفعت أصوات أخرى : «اننا نستمع اليك» .

استأنف الجنرال خطبته :

«ربما يكون الشخص الذي خان كيهيكا حاضراً الان بين الجمهور . نحن نطلب منه ان يتقدم الى المنصة هنا ويعلن ندمه أمامنا جميعاً» .

تلفت الناس هنا وهناك عسىٰ ان يروا شخصاً ما ينهض . انتظر الجنرال وهو يتمتع بالجو المتوتر . سارت المسرحية كما تصورها . كان يعرف اين يجلس كرانجا على الرغم من انه لم يره . لقد طلب من مورا والملازم كونياندو ان يبقياه غير بعيد عن نظريهما .

استمر الجنرال قائلاً : «لايظن أنه يستطيع الإختفاء لاننا نعرفه . لقد كان صديقاً لكيهيكا . اعتادا ان يأكلا ويشربا معاً» .

نهض غيثوا وصاح : «اذكر اسمه» .

صاح اخرون عدة مرات وهم متلهفون للانتقام «توبوا ، توبوا» .

ـ «انني اعطيه فرصة أخيرة . ليتقدم دليلاً على ندمه» .

توقف الناس فجأة عن الضجيج والصياح . جلسوا بتوتر واستدارت عيونهم الى الاتجاه نفسه ليروا الشخص الذي نهض . كان طويلاً ومهيباً ، لكن اولئك الذين كانوا قريباً منه رأوا وجهه منفعلاً . كان يرتدي سترة قذرة ونعلين مصنوعين من عجلة لوري . همس أحد الاشخاص قائلاً : انه موغو . انتشر الهمس وارتفع الصوت . بدأ الناس يصفقون ويهتفون . جاء الراهب اخيراً ليتحدث اليهم . نسوا المسرحية الاخرى . صرخت النسوة بالدعاء للولد المنتصر . غضب الجنرال من موغو الذي أفسد ذروة المسرحية . هل يهرب كرانجا ؟ لم يظهر غضبه ، انما ترك الميكروفون لموغو مباشرة . انتظر الناس حديث موغو .

بدأ : «انتم تسألون عن يهوذا . انتم تسألون عن الشخص الذي قاد كيهيكا الى الشجرة هنا . هذا الرجل يقف أمامكم الان . لقد جاءني كيهيكا ليلاً . وضع حياته بين يدي وانا بعتها الى الرجل الابيض . وهذا الأمر نغص حياتي طوال هذه السنين» .

تحدث بصوت واضح . وكان يتوقف عند نهاية كل جملة . حين انتهى انكسر صوته وتحول الى همس : «الان عرفتم» .

ومع ذلك لم يقل أحد أي شيء . وعندما غادر المنصة فسح له الناس طريقاً بينهم وأحنوا رؤوسهم ليتحاشوا عينيه . بكت وانجيكو . أخبرت مومبي بعدئذ : «ان الذي أسال دموعي هو وجهه وليس ذكرى ولدي» . نهض غيثوا فجأة من ركنه وتبع موغو . ضحك ورفع احدى عكازتيه ليشير بها الى موغو قائلاً : «كذاب ـ ذئب في ثياب حمل» . هتف ضد موغو على انه دجال وتحداه للقتال .

«انظروا اليه ! انظروا اليه ـ ظن انه سيكون مختاراً علينا . هاهاها !» ان ضحكة غيثوا وصوته المرتفع زادا من عمق الصمت الذي سيطر على باحة السوق . جلس الناس ورؤوسهم محنية حوالي دقيقة بعد خروج موغو وغيثوا . ثم نهضوا وبدأوا يتحدثون ويسيرون باتجاهات مختلفة كأن المهرجان انتهىٰ باعتراف موغو .

غربت الشمس وتجمعت السحب في السماء . بقي نيامو وواروي والجنرال وقليل من الشيوخ ليتموا مراسيم القربان قبل حلول العاصفة .

كرانجا

حين سقط المطر اخيراً لم يكن شديداً . كان ينث باستمرار دون أن تتغير سرعته او كميته . يبدو ان الأرض ستغرق في أحد تلك الأمطار التي لا نهاية لها . في مثل تلك الأيام لاتقول لنا الشمس صباح الخير ولا عمتم مساءً . لايمكنك ان تعرف الوقت دون ساعة .

كان كرانجا يضع الملابس في حقيبته في كوخ أمه في ثاباي .

سألته أمه ثانية : «هل أعمل لك شاياً ؟» . جلست على كرسي قرب الموقد . انثنت رجلها اليمنىٰ عند الركبة مستريحة على صخرة الموقد . انحنت الى الامام بحيث أستقر ذقنها ويداها على ركبتها . كانت وريمو امرأة حكيمة ذات عينين غائرتين وفكين بارزين . كانت عيناها تراقبان حركات إبنها الصامتة عند الباب .

قال كرانجا بعد برهة «كلا» ، كأن الكلام يسبب له الألم .

ـ «انها تمطر في الخارج ، وكوب الشاي سوف يفيدك مادمت تقول انك لن تبقى هنا هذه أالليلة» .

أجاب : «لقد قلت انني لاأريد شاياً او أي شيء اخر» ارتفع صوته بانفعال واضح . لم يكن غضبه موجهاً الى وريمو قدر ماهو موجه الى الحقيبة بين يديه ، الى الكوخ المليء بالدخان ، الى رذاذ المطر في الخارج والى الحياة عامة .

قالت وريمو بصوت منسحب : «هيه ، كنت أتحدث اليك فقط» .

لم يكن من السهل معرفة العلاقة بين كرانجا وأمه . كانت أمه الزوجة الثالثة من أربع زوجات دفع ابوه مهرهن ماعزاً وبقراً . تزوجهن ثم تركهن يدبرن امور حياتهن بأنفسهن . بنىٰ له كوخاً على بعد ميل من زوجاته محافظاً على قدر متساو من العواطف والمساعدة لزوجاته وأولاده . كان يزور الواحدة بعد الاخرى فيزرع في بطنها طفلاً ثم يعود الى كوخه . كان أطفال وريمو يموتون عند الولادة . كرانجا هو الوحيد الذي عاش وهو الدليل الحي الوحيد على زيارات الرجل لسريرها . توقعت وريمو الكثير من ابنها . نظرت اليه كرجل يعنى بها عند شيخوختها . أظهر كرانجا منذ صغره ميلاً يبين انه لم يكن الأبن النشيط الذي يتمتع بصفات طبيعية . كان يغني ويعزف على القيثار ويركض وراء النساء .

كانت أمه تشكو دائماً وتقول له : «يجب ان تتوقف عن العزف عليك ان تؤدي عملاً مفيداً .» . وقد هددت مراراً بكسر القيثار أو حرقه . غالباً ماكانا يتشاجران . ولكن ، عندما يجتمع الإبن والأم في لحظات نادرة كانت تروي له برقة قصة تصور له مصير الأنسان

العاطل . كان كرانجا يتذكر امه بتلك القصص فيشتاق اليها كلما أحس بالضيق .

كانت تبدأ قصتها هكذا : «في يوم من الأيام السالفة كانت هناك امرأة فقيرة ليس لها الا ولد واحد . كان اسمها نجوكي وارادت ان يدرك ولدها انهما فقيران ولا يمكنهما الحصول على اللفاف من الرزق دون عمل شاق . كل صباح يستيقظ ولدها فيصبغ الحذاء ويكوي ملابسه ثم يذهب الى رفاقه في الحوانيت أو في الشوارع . في المساء يعود الى البيت مع مجموعة من الشباب والشابات ويطلب من أمه اعداد الطعام ، كانت نجوكي امرأة كريمة وأحبت ان يزورها الشباب في بيتها . كثيراً ماقدمت لهم الطعام وروت لهم القصص . لكنها كانت تزداد حزناً يوماً بعد يوم لأن ابنها لايأخذ الفأس والمجرفة ويذهب الى الحقل . ولانها لم ترد احراج ابنها فقد أخفت حزنها على ابنها كلما كان هناك ضيوف في البيت . تمتعت نجوكي بقلب طيب وكان الناس يمتدحونها لعملها الشاق . سر ذلك الإبن لانه كان حقاً فخوراً بأمه وكان الناس يدعونه ابن نجوكي .

في احد الايام جاء الى البيت ثلاثة اصدقاء من قرية بعيدة . كان قد زارهم عدة مرات وقدموا له الكثير من الطعام والشراب . حدثهم هو ايضاً عن بيته ووعد بان يضيّفهم مثلما ضيفوه ان زاروه مرة . لذلك طلب من أمه ان تقيم لهم وليمة جيدة . اشعلت نجوكي ناراً كبيرة . وضعت قطعة قماش نظيفة على المنضدة . جاءت بالآنية والملاعق النظيفة . ثم عادت الى المطبخ . كان ابنها سعيداً وقد حدثهم عن أمه وعن طبخها . عادت نجوكي من المطبخ وبيديها ثلاثة

آنية وقد وضعت في كل اناء زوجاً من الاحذية اللامعة . وضعت الآنية والاحذية فوق المنضدة .

«قالت : انني لم اذهب الى الحقل اليوم . قضيت النهار كله ألمع هذه الاحذية ، وهي كل مالدينا من طعام» .

«لم يستطع ابنها ان يتحدث من العار . في الصباح اخذ الفأس والمجرفة ولم يعد من الحقل حتى المساء» .

كان كرانجا يقول : «آه ، هذه القصة تعنيني . حسناً ، سأرافقك الى الحقل غداً» .

في اثناء الطوارىء لم ترض وريمو ان يصبح ابنها من الحرس ثم مختاراً . وكانت تتحدث بذلك الى الجميع .

ـ «لا تقف ضد الناس . ان الأنسان الذي يتجاهل صَوت شعبه تسوء عاقبته» .

وعلى الرغم من خجلها من أعماله ، الا أنها بقيت معه لأن الابن الذي يخرج من الرحم ، كما اعتادت ان تقول ، لايمكن رميه بعيداً .

انتهىٰ كرانجا من حزم اشيائه في الحقيبة . ثم استدار الى أمه بعد تفكير .

ـ «هل مازال قيثاري هنا ؟»

ـ «فتش في تلك الكومة عند الزاوية»

كان كرانجا قد نسي قيثاره . في اثناء الطواريء توقف عن العزف عليه . بحث في كومة الأواني والدوارق المكسورة حتى عثر عليه تحتها . كان الخشب مكسوراً ويعلوه الغبار والسخام ورائحة الدخان . وكانت الأوتار مرتخية وقد انقطع اثنان منها . حاول ان

ينظفه من الغبار والسخام ، لكنه عجز عن ذلك . ثبت بعض الأوتار ، ضرب عليها قليلاً فاخرجت الآلة صوتاً مدوياً وتساقط الغبار في داخلها . سار نحو الباب ، مايزال المطر ينهمر في الخارج .

سألت وريمو : «الى اين انت ذاهب في المطر ؟» توقف كرانجا عند الباب كأن السؤال افزعه . استدار ببطء . رمشت عيناه المعتمتان وارتفع صدره بنفس ثقيل . كان يريد ان يقول شيئاً حين دخل الدخان في عينيه . سعل قليلاً وعاد الى الكوخ . اغرورقت عيناه بالدموع . مرت اللحظة .

قال : «لاأدري . انا عائد الى غيثيما» . خرج والحقيبة والقيثار على ظهره . لم تتحرك وريمو من مكانها قرب الموقد .

عزف رذاذ المطر على القيثار وعلى الحقيبة . بدأ الغبار والسخام يذوبان وينحدران الى الاسفل . مشىٰ الى موقف الحافلة في مركز ثاباي التجاري خلال الضباب الرمادي ولم يلتفت يميناً أو شمالاً . وقفت الحافلة في الموقف ونزل الركاب ثم مضت . سار كرانجا بخطوات ثابتة لانسان لايتعجل الوصول الى هدفه . رأى مومبي (لابد انها نزلت من الحافلة) كانت تعبر شارع القرية وتحمي رأسها من الرذاذ بمنديل . تسارعت دقات قلبه لدى رؤية مومبي في الضباب والرذاذ . بدت اكثر جمالاً من اي وقت مضىٰ .

ولكن هل يمكن ان ينسىٰ الأهتمام الكبير الذي بدا على وجهها حين انحنت على جيكونيو بعد سقوطه ؟ هذا ماأغرق كرانجا ثانية في الألم واليأس . لو أنها نظرت اليه حسب ، وإن قليلاً ، لكان لديه أمل . ولكن بدأ كأنها لم تشعر بوجوده .

مازال قلب كرانجا يخفق . لم تره مومبي حتى صارت قريبة منه . أطلقت صرخة اندهاش .

سألها : «كيف حال جيكونيو ؟» لم يفكر كثيراً في سؤاله . اعتقد انها كانت في المستشفى لانه لم يرها في الأجتماع .

ـ «انه بصحة جيدة . قالت الممرضات انه سيخرج قريباً» .

ـ «بحثت عنك في الاجتماع . اردت ان اراك . اردت ان أشكرك على الرسالة» .

ـ «انها لاشيء ولم تكلفني أي جهد . على اية حال إنك تجاهلتها» .

ـ «لم أعرف من أي شيء كنت تحذرينني . ظننت انك تريدين رؤيتي .

ـ «كلا» .

ـ «أبداً ؟»

ـ «أبداً» كانا يتحدثان بسرعة بسبب الرذاذ .

قال بعد صمت قصير : «على اية حال اشكرك . لقد أرادوا قتلي»

ـ «لا أعرف» .

ـ «انا أعرف . اخبرني مووورا» .

ـ «من هو مووورا ؟»

ـ «انه يعمل معي . عندما جاء موغو الى الاجتماع ـ»

ـ «موغو ، جاء الى الاجتماع ؟»

ـ «نعم ، واعترف ـ»

ـ «اعترف ؟»

ـ «ألم تسمعي ؟ لقد جاء الى الاجتماع واعترف أمامنا جميعاً . يبدو انه رجل شجاع»

ـ «نعم» . وافقته وهي تستعيد وعيها من أثر الصدمة . وبدأت تبتعد عن كرانجا . قالت : «المطر يتساقط يجب ان أذهب الى البيت»

ـ «هل يمكنني ان أرى الطفل ... للمرة الأخيرة ؟»

قالت بانفعال : «ألا يمكن ان تكون رجلاً وتتركني ياكرانجا ؟» واستدارت مباشرة . راقبها كرانجا وهي تبتعد حتى ابتلعها الضباب واكواخ القرية . ردد وهو ينظر باتجاهها : «نعم . انه رجل شجاع . انه انقذ حياتي . لماذا ؟»

استمر كرانجا في سيره . ابتل رأسه وملابسه بالماء . وصلت حافلتان واحدة بعد الاخرى . كانت (الهروب) في المقدمة وتتبعها مباشرة (المحظوظة) .

سأل الصبي في الحافلة وقد تناول الحقائب : «نيروبي ؟»

قال وهو يتمسك اكثر بالحقائب : «غيثيما»

ـ «إذن اجلب حقائبك بسرعة الى الداخل» وقبل أن يجد كرانجا مكاناً يجلس فيه صفر الصبي وتحركت (الهروب) .

جاءت (المحظوظة) التي كانت خلفها واجتازتها . بدأت الحافلتان تتسابقان للوصول الى المسافرين في المحطة التالية .

قال الصبي للسائق : «اضغط على الوقود بقدمك ليحترق» . كل حافلة تريد الوصول الى نيروبي قبل غيرها . لان الناس سيعودون الى بيوتهم بعد انتهاء احتفالات الاستقلال في المدينة .

خلال فترة قصيرة وصلت الحافلة الى موقف غيثيما . نزل كرانجا

وانطلقت الحافلة وهي متأخرة عن منافستها بحوالي نصف ميل . دخل كرانجا الى مطعم في الطريق . كان المكان مزدحماً بالناس الذي التجأوا اليه من المطر . وضع حقيبته وقيثاره على الجدار في احدى الزوايا وجلس عند طاولة صغيرة مهجورة . عندما جاء النادل طلب كرانجا شاياً مع مرقة لحم . وضع رأسه بين يديه ومرفقه على المنضدة . حدق الى الفراغ . تجمع الذباب على شقوق الطاولة التي تجمع فيها السكر والزيت وقطع اللحم والبطاطا العفنة . جاء الطعام وكادت رائحة المرقة الحارة ان تدفعه الى التقيؤ . دفعها قليلاً ثم ارتشف قليلاً من الشاي . مرة اخرى حدق الى المنضدة دون ان يرى الذباب والرواسب التي تملأ الشقوق . عند الباب كان الناس يتحدثون بصخب عن الاستقلال وجومو والمطر . كان كرانجا يقلِّب في ذهنه أحداث اليوم وينتقل من حدث الى اخر ويفكر في أي شيء يجمعها معاً .

تذكر الكابوس الذي عاناه في الاجتماع عندما كان الجنرال ينادي الخائن للتقدم الى المنصة . جلس موورا قرب كرانجا وجلس الملازم كونياندو على بعد ياردات منه . كانا يختلسان النظر الى بعضهما واليه . ادرك عند ذاك ان كلمات الجنرال موجهة اليه وربطها مباشرة بتحذير مومبي . لو سار الى المنصة لمزقه الناس حتى الموت . كانت لديه صورة واضحة وحاضره لكل تلك الأيدي التي يمكن ان تمزق جسده . أليس ذلك ماكان يخافه عندما غادر تومبسون البلاد ؟ كان يخاف من القوة السوداء . خاف من اولئك الرجال الذين طردوا تومبسون وهددوه . فكر في ان يقف ويعلن براءته من قضية القاء

القبض على كيهيكا . لكن الخوف سمّره في الارض . ثم ظهر ذلك الرجل موغو معترفاً ، مما اراح كرانجا . استدار موورا الى كرانجا بعينين يملؤهما الحقد . قال موورا : «لقد انقذك» ثم ابتعد عنه بسرعة .

عندما فكر كرانجا في ذلك ارتعد من احتمال ماكان يحدث له لو ان موغو لم يصل في الوقت المناسب . حين كان صبياً رأى كرانجا الكلاب تمزق أرنباً . لقد قطعت اطرافه وركض كل كلب بقطعة تقطر دماً . رأى كرانجا الان انه هو الأرنب . سأل نفسه ، لماذا أخاف الموت ، وهو يتذكر الكثير من الارهابيين الذين ساهم هو وبعض الحرس الاهلي في قتلهم بأمر من الضباط البيض . لم يشعر إذاك ـ لسبب ما ـ بالذنب . عندما اطلق عليهم النار بدأوا اقل شبهاً بالمخلوقات البشرية منهم بالحيوانات . في البداية ذهل كرانجا واحس انه انسان جديد وجزء من قوة غير مرئية رمزها الرجل الابيض . ثم اصبح هذا الاحساس بالقوة ، هذه القدرة على ازهاق الحياة الأنسانية بالضغط على زنادٍ ، هاجساً يسكنه وتحول الى حاجة . ذهبت الان تلك القوة . وقد رفضته مومبي نهائياً . لِمَ اذن انقذ موغو كرانجا ؟ ارتشف جرعة اخرى من الشاي . كان قد برد فدفعه جانباً . اصبحت الحياة فارغة مثل الظلام والضباب اللذين يغطيان الارض . دفع ثمن الوجبة التي لم يأكلها واخذ حقيبته وقيثارة وسار نحو الباب . ناداه النادل : «انت ، ياهذا ، لقد نسيت الباقي من نقودك» .

استدار كرانجا ، اخذ بقية النقود وخرج دون ان يعدها . فكر

وهو يسير في طريق غيثيما ، انها لم تدعني حتى ان ارى الطفل . لِمَ اردت رؤية الطفل هذا اليوم ؟ لم يشعر بمثل هذه الرغبة من قبل . اندفعت بقربه سيارة كادت تدهسه . ابتعد الى الجانب ، لكنه مازال قريباً من حافة الرصيف وكاد يحتك بسياج اشجار التفاح وهو لايشعر بذلك . ذهب تومبسون وخسرتُ مومبي . كان ذهنه ينتقل من صوره الى اخرى دون ان يتبع نظاماً محدداً . كانت احداث حياته تبرز وتختفي . ماذا لوكان كيهيكا حياً وظهر امامه الان على الطريق ؟ فزع كرانجا وهو خائف من السياج ومن الظلام . تحول المطر الى زخات خفيفة . التصقت ملابس كرانجا الثقيلة بجسمه . كان قد ذهب لرؤية كيهيكا يشنق على شجرة . بحث في قلبه عن الأنسان الذي يشفق ويأسف على صديق ضائع . لم يجد إلاّ الاشمئزاز .

كان الجسد مثيراً للاشمئزاز ، وكانت الشفتان الجافتان اللتان يحوم حولهما الذباب بشعتين . كان كرانجا قد سأل نفسه ، ماهي الحرية ؟ هل كان الموت يشبه تلك الحرية ؟ هل الذهاب الى المعتقل ؟ هل الأبتعاد عن مومبي حرية ؟ اعترف بعدئذٍ مباشرة في القسم وانضم الى الحرس الاهلي لإنقاذ حياته الخاصة . بدأ عمله الاول في عباءة . كانت العباءة ، وهي كيس ابيض ، تغطي جسده كله عدا عينيه . خلال عمليات التفتيش كان الناس يقفون واحداً بعد الاخر امام الرجل الملتف بالعباءة . بإشارة من الرأس يلتقط الرجل الملتف بالعباءة اولئك المنضمين الى الماو ماو .

انها النفس الملتفة بالعباءة تلك التي يراها كرانجا امامه في

الظلام . كان يستطيع تقريباً ان يلمس الشقوق التي يستطيع الانسان داخل العباءة ان يرى العالم منها . اكد لنفسه انها حالة ذهنية فقط . وصل الى تقاطع سكك الحديد . سمع قطاراً يدوي من بعيد . تذكر السباق الى القطار . كان الدوي يقترب ويرتفع صوته . في احد الايام جمع الناس من القرى في محطة رونجي للتفتيش . كانوا يمرون امامه واحداً بعد الاخر وهو ملتف بالعباءة ، كان يعرف الكثير منهم وكان سعيداً لان احداً منهم لم يره . انتقل المشهد الى اجتماع مابعد ظهر اليوم . فكر : «بدا رجلاً شجاعاً» . انها ايدت ذلك ، برزت صورة موغو على المنصة امامه كالشبح مختلطة بالعيون العديدة التي كانت تراقب موغو في الاجتماع . اقترب القطار حتى انه سمع العجلات تئز فوق السكة . أحس بالأزيز في جسده تماماً كما حدث له في محطة رونجي . كان يحس بالعيون الغاضبة العديدة التي كانت تراقبه في الظلام . كان القطار على بعد ياردات قليلة من التقاطع . تقدم خطوة الى الأمام . ثم مر بالقرب منه . كانت الأضواء ، الماكنة ، العربات قريبة جداً بحيث القاه هواؤها الى الخلف . ارتجفت الارض التي يقف عليها . عندما اختفى القطار تعمق الصمت حوله وازداد الليل ظلاماً .

موغو

ارادت مومبي ان تركض وتسير وتعرض جسدها لرذاذ المطر في الوقت نفسه . سارت وهي تلهث تحت ضغط حمل لم تستطع ان

تلقيه . ان اخبار اعتراف موغو كانت في قمة يوم مرهق بالنسبة اليها . في مستشفى تيمورو لم يتحدث اليها جيكونيو بكلمة واحدة ولم يظهر اي اهتمام بوجودها . فكرت بألم عندما رأته يغمض عينيه ويدير رأسه متظاهراً بالنوم لدى وصولها «يعتقد بأنني أرشيه كي يعيدني . لكني لن أعود الى بيته حتى إن ركع امامي على ركبتيه» .
عند وصول مومبي الى البيت رأت مبوغوا ووانجيكو وقد غلبهما النعاس وهما جالسان قرب النار صامتين . نام الطفل على الارض . كان الدفء داخل الكوخ مريحاً قياساً بالطين والضباب ورذاذ المطر في الخارج . غيرت مومبي ملابسها دون ان تنطق بكلمة وكانت اطرافها تتحرك دون ارادتها .

قالت وانجيكو حذرة بعد ان جلست مومبي : «كيف حاله ؟»

انفجرت مومبي تلوم أمها وأبيها اللذين يعارضانها دائماً في بحثها عن السلام بين الاواني المحطمة والانقاض . «لن أزوره مرة اخرى ، حتى لو سمعت انه يموت» .

قالت وانجيكو بكلمات أقرب الى السخرية : «على مهلك . مثل هذا الكلام لايقال في هذا البيت . تذكري انه سيبقى زوجك الا اذا استعاد مهرك» .

ـ «زوجي ؟ أبداً»

ـ «شش !»

استطاعت وانجيكو تدريجياً تهدئتها . ووافقت مومبي على العناية به طوال بقائه في المستشفى .

ـ «لايمكن ان يهجر رجل مريض في المستشفى ، غالباً ما ينقذ

حتى العدو من الخطر . اضافة الى انك لست بحاجة الى الذهاب وحدك الى المستشفى . هناك وانغاري وهي امرأة لامثيل لها في اي مكان من حيث مثابرتها وطيبة قلبها» .

أحست مومبي ثانية بانها مرغوب فيها . أصغت الى وانجيكو التي حدثتها عن موغو وعن الاجتماع بالتفصيل . استمر مبوغوا يومىء برأسه قرب النار . كان كبير السن نادر الحديث الا عندما يأتي كاريوكي الى البيت في ايام العطل . سمعت مومبي القصة واحست بان عليها ان تفعل شيئاً . قابلت احساسها بسؤال تعرف ان لاأحد سيجيب عنه . ما الذي يمكن ان تفعله ؟ جعلتها النار تنعس . كانت منهكة وقد سرى التعب في اطرافها وكتفيها ورأسها وقلبها . إشتاقت ان تسند جسمها الى أمها العجوز وتستريح . سألت نفسها مرة اخرى ، ما الذي يمكن أن أفعله . في اثناء اصغائها الى صوت المطر يسقط على السقف المحشو بالعشب استسلمت لذلك التعب الذي تملكها كأنها تعفي نفسها من الحاجة الى العمل ، ظلت مومبي في كرسيها سلبيةً جسماً وروحاً امام كارثة توقعتها بعينيها واذنيها . «سأرى موغو غداً . ثم انه كان حاضراً وقد عرف كل شيء» . اقنعت نفسها وهي في الفراش على الارض قرب ابنها . «الليلة مظلمة والمطر مستمر» .

نهضت هي ووانغاري مبكرتين وذهبتا الى المستشفى . كان جيكونيو جالساً في السرير وذراعه مشدودة .

اخبرتاه عن الاجتماع وعن الاعتراف الخطير لموغو . استمع الى القصة ورأسه منحنٍ قليلاً .

لاحظت وانغاري وومبي ان جيكونيو كان يرتجف بشدة حتى ان البطانيات التي تغطيه كانت تهتز .

سألت امه وهي تفكر في ألم ذراعه : «ماالامر ؟» . لم يبد على جيكونيو انه سمعها . حدق الى الجدار المقابل ، الى شيء بعيد عن المستشفى . بعد صمت طويل نظر جيكونيو الى المرأتين . كان اكثر توازناً . تغير وجهه القاسي ، واصبح اكثر رقة . زال العبوس . عندما تكلم كان صوته ضعيفاً مسكيناً وممزوجاً بالخجل ، قال : «كان في داخله رجلاً شجاعاً . لقد لقي الكثير من مظاهر التكريم وكيل له المديح كثيراً . كان مقرراً ان يصبح مختاراً . هل يوجد شخص اخر يعرض نفسه على كل العيون التي تخز قلبه» . توقف وأطال النظر الى مومبي . ثم حول نظره وقال : تذكروا ان القليل من الناس كانوا جديرين بأن يرموا حجراً على ذلك الرجل حتى انا . نحن ـ ايضاً ـ بدورنا نفتح قلوبنا عارية لكي يراها العالم» .

عندما سمعته مومبي يتحدث هكذا أحست بانها ترتفع الى الغيوم ثم تسحب ثانية الى الارض بخوف مريع . فكرت : «كان يجب علي ان اذهب اليه قبل المجيء هنا» .

حالما وصلت مومبي الى ثاباي اندفعت الى كوخ موغو وفتحت الباب . كل شيء في مكانه كما رأته الليلة الماضية . بدا واضحاً ان النار لم تشعل منذ يوم او يومين . الفراش لم ينظم . كانت هناك بطانية متهرئة تتدلى من السرير على الارض ، اغلقت مومبي الباب واسرعت في البحث عن كوخ الجنرال . وجدت الباب مقفلاً «حسناً ، سأعود في المساء» . عادت مساءً ووجدت كوخ موغو مظلماً .

تحسست طريقها في الظلام وصاحت بخوف : «موغو» . لم يرد عليها احد «اين ذهبت ؟ اين ذهب الجميع ؟» نظرت حولها وهي تتراجع الى الباب ـ ارادت شاهداً ، اي شاهد ينقض الاجوبة التي عصفت برأسها مثل اصداء لاحصر لها تردد كلماتها ومخاوفها ـ فتحت الباب وقد زاد خوفها ، ثم ركضت طوال الطريق تحت المطر وعبر الطرق الموحلة الى بيت أبويها .

قامت مومبي ثانية ، دون وعي ، بالحركة نفسها التي قامت بها ليلة هربت من موغو ، اضافة الى انه كان هناك ضوء في الكوخ وكان بمستطاع موغو ان يرى مافسره احتقاراً ورعباً على وجهها . بقي واقفاً محدقاً فترة طويلة في الكرسي الذي تركته تواً . ثم اغلق الباب وأطفأ النور وذهب الى فراشه . استلقى على الفراش وهو يدرك انه اضاع شيئاً ما تواً . ظهر له الاحتقار على وجه مومبي عدة مرات في الظلام . وتملكه ارتعاش لم يسيطر عليه . لِمَ كان مهماً بالنسبة اليه ما اعتقدته مومبي فيه تلك الليلة ؟ كانت قريبة جداً . استطاع ان يرى وجهها ويحس بنفسها الدافيء . جلست هناك وتحدثت اليه واعطته فكرة عن عالم جديد . لقد وثقت به وأسرته . أجبرته تلك الثقة البسيطة على اخبارها بالحقيقة . نفرت منه . فقد ثقتها الى الابد . حسب انه أصبح مجرماً وقذراً بالنسبة اليها .

عندما سمع فجأة الناس حول كوخه وهم يغنون أغاني الأستقلال حملت له كل كلمة من كلمات التمجيد معنى واخزاً . ما الذي فعله من أجل القرية ؟ مع ذلك ، فقد رأى تلك الثقة التي لايستحقها في ليلة جديدة أجمل شيء في العالم . فكر في ان مومبي ستخبرهم .

رأى الاحتقار والرعب ليس على وجه مومبي حسب ، بل على وجوه اهل القرية بأجمعهم . ان الصورة الحية في ذهنه جعلته ينكمش في رعب .

لم يستطع ان يغمض عينيه في تلك الليلة . امتزجت صورة مومبي بصورة القرية والمعتقل . كان ينظر الى مومبي فتتحول مباشرة الى صورة عمته او صورة المرأة العجوز .

أستيقظ مبكراً ، ومن الغريب انه كان هادئاً . بقي هادئاً طوال ذلك الصباح . زالت الصورة المرعبة لليلة الأمس . ادهشه ما احس به من الهدوء وهو يعرف ماكان ينوي عمله ؟

مع ذلك ، ازالت الهواجس هدوءه عندما حانت اللحظة ورأى الحشد الكبير . رأى الجنرال يتحدث فذكره ذلك بكرانجا . لِمَ لاأدع كرانجا يتحمل الذنب ؟ أبعد ذلك الاغراء ونهض ، والا كيف يمكنه ان ينظر في وجه مومبي ؟ دق قلبه واحس بالعرق في يديه عندما سار بين صفوف الحشد الواسع . ارتجفت يداه وكانت رجلاه غير ثابتتين على الارض . كان كل شيء واضحاً ونهائياً في ذهنه . سيقف هناك ويعلن جريمته . تمسك بتلك الرؤية . لاشيء ، حتى الهتافات والاغاني والمدائح ، يمكن ان يثنيه عن عزمه . ان وضوح الرؤية ، اعطاه الشجاعة عندما وقف امام الميكروفون وكذلك الصمت المفاجيء . عندما انطلقت الكلمات الاولى احس موغو بأنه يتخفف من الحمل . ان حمولة سنين عديدة قد رفعت من كتفيه . كان حراً واثقاً ومتأكداً لحظة واحدة .

ما ان انتهى من حديثه حتى احس بالصمت حوله وان خفة روحه

والحرية المفاجئة تثقلان كاهله . أصبح مايراه غير واضح . تملكه الفزع عندما غادر المنصة وسار بين الناس الصامتين . كان يعي نفسه وكل خطوة يخطوها ويعي الصور التي اندفعت الى ذهنه وكانت تدور في محور واحد ثابت . إذن كان مسؤولاً عن كل ما حدث في الماضي وعن كل ما سيفعل في المستقبل . أحس بالرعب ازاء هذا الادراك . لاشيء الان في هذه الدقيقة يعيده الى ذلك المكان . ماذا يحدث لو ان اولئك الناس كلهم نهضوا وانشبوا اظافرهم واسنانهم في جسده ؟

تحولت هذه الفكرة في ذهنه الى حقيقة . لم يدخل كوخه . سمع ضحكه غيثوا وأحس بأنه مطارد . لم يرد أن يموت ، أراد ان يعيش . جعلته مومبي يدرك الخسارة التي كانت احتمالاً . تباطأ خارج كوخه وتلفت حوله في القرية وفي مركز كابوي التجاري والطريق الذي يمر خلفه . هل ينهض الناس ويأتون اليه ؟ رأى الغيوم تتجمع في السماء . ربما كان عليه ان يهرب من القرية قبل ان يسقط المطر . بدأ يسير نحو الطريق العام . سار بضع ياردات ، ثم فكر في انه قد يلتقي الناس القادمين من رونجي . سيذهب من الجهة الثانية عبر القرية ويسير في الطريق الاخر الى نيروبي . هناك سيبدأ حياة جديدة .

بعد ان عزم على هذا القرار حث خطاه في طريق القرية الرئيس ، ذلك الطريق الذي اعتاد ان يسلكه دائماً الى الحقل . لكن جموع الناس في الاجتماع بدأت تتدفق على القرية . ستمتليء الشوارع والاكواخ بالناس ولن يستطيع الهرب . غذ السير . وصل كوخ المرأة

العجوز . احس برغبة جامحة في دخول الكوخ لرؤية المرأة العجوزة اخر مرة . ولكنه قرر مواصلة الرحلة قبل هطول المطر وحلول الظلام . ادركته القطرات الاولى من المطر قبل ان يسير بضع خطوات . فكر في أنه يبحث عن ملجأ يقيه من المطر . لو كانت المرأة العجوز في الداخل فهل تخفيه الى ان يحل الظلام ويستطيع الهرب سراً ؟ عاد ادراجه وعبر الشارع وهو يخمد حافزاً قوياً يحثه على الهرب فوراً ودخل الكوخ . كانت المرأة العجوز تجلس قرب الموقد الخالي ، وقدماها مدفونتان في الرماد . وعند دخوله رفعت رأسها ببطء . كان لعينيها في الكوخ المعتم بريق غريب . قالت : «انت ، لقد عدت !» . كانت ترتسم على وجهها ابتسامة نصف متجمدة ازاء شيء لايخص هذا العالم .

قال «نعم» وكان جسده يلتهب برغبة الهروب ، ولكنه قمع تلك الرغبة .

ـ «عرفت انك ستعود ، عرفت انك ستعود لتأخذني الى البيت» بدت غريبة في سعادتها . حاولت النهوض ، الا انها ترنحت وعادت الى مقعدها ، ثم نهضت ثانية ببطء .

ـ «كنت انتظرك طوال هذه السنين . كنت اعرف انهم لم يقتلوك فعلاً . اتدري ان اولئك الناس لم يصدقوني عندما اخبرتهم ، عندما قلت لهم انني رأيتك ؟» .

اتجهت نحوه . لكن موغو لم يكن يصغي الى ثرثرتها المنفعلة . لان وجهها تغير فجأة . نظر موغو مباشرة الى عيني عمته . انفعل بغضب جديد ، ان الحياة هي تكرار ثابت لما حدث بالامس واليوم

الذي قبله . هذه المرة لن تهرب . سيوقف تلك الابتسامة المعتمة وذلك البريق الهازىء في العينين . ولكن المرأة ترنحت في مقعدها قبل ان يتحرك . مازالت الابتسامة تطوف على وجهها . لم تتحرك ولم تظهر اية اشارة . عرف الامر فجأة . الشخص الوحيد الذي انتسب اليه مات . دفن وجهه بين يديه ووقف هكذا بضع ثوان .

ثم اغلق الباب خلفه وسار تحت رذاذ المطر . لم ينفذ خطته السابقة . وبدلاً من ذلك عاد الى كوخه . في الكوخ اشعل المصباح الزيتي واستلقى على الفراش . لكنه لم يخلع ملابسه المبتلة . حدق الى الجدار امامه . لم يكن هناك اي شيء على الجدار ، لارؤى من الدم ولا خطوات تتبعه ولا معسكرات اعتقال . وبدت مومبي شيئاً غامضاً في الماضي البعيد . بين حين واخر كان يضرب حافة السرير بانفعال . كان الماء ينزل من شعره على وجهه ورقبته في خطوط متقطعة . وينزل من سترته في خطوط متقطعة ايضاً الى رجليه والى الارض . توقفت قطرة على رموش عينه اليمنى فتحول ضوء المصباح الى عدة خطوط ضوئية . دخلت القطرة في عينه وذابت في الداخل ثم سالت على وجهه مثل دمعة .

لم يمسح عينه أو يفعل اي شيء .

هناك طرق على الباب ، لم يجب موغو .

فتحت الباب ودخل الجنرال والملازم كونياندو .

قال موغو وقد نهض دون ان ينظر الى الزائرين : «انا مستعد» .

قال الجنرال بحزن : «ستجري المحاكمة هذه الليلة ، ستكون وامبوي هي القاضي . وسنكون انا والملازم كويناندو الوحيدين

اللذين يحضران المحاكمة من الكبار» .

لم يقل موغو شيئاً .

واصل الجنرال قائلاً دون غضب أو مراره واضحة : «سوف يدينك عملك . إنك ـ لا أحد يستطيع الهرب من اعماله» .

اصطحبه الجنرال والملازم كويناندو الى خارج الكوخ .

واروي ، وامبوي

حول واروي نظرته متجنباً الفراغ الكئيب في عيني وامبوي . علق قائلاً : إنها تمطر دون انقطاع ـ منذ يومين» . كان التوتر الذي أحسته وامبوي في .. الكوخ قد حفزها على ان تقول شيئاً . جلس متكوراً قرب الباب وقد دفن يديه ورجليه تحت البطانية . الا أن رقبته المجعدة ورأسه الرمادي بقيا من غير غطاء . جلست وامبوي امامه . كانت عيناها الفارغتان مستقرتين على واروي بين آن وآخر قبل أن تسرح في الضباب والمطر في الخارج .

قالت بصوت كئيب : «مثل هذا المطر يمكن ان يستمر عدة ايام» . غرق الاثنان في صمت مكونين صورة طفلين محرومين فقدت حياتهما الدفء والتلون والاثارة . لم تكن هناك نار في الموقد . انتشرت على الارض قشور البطاطا وأوراق الذرة والحشيش كأن الكوخ مهجور يوماً أو يومين . في الظروف الاخرى كان هذا يدهش واروي أو أي زائر آخر لأن كوخ وامبوي أنظف أكواخ القرية . اعتادت ان تنظف الكوخ مرتين في اليوم كما تنظف الاواني مباشرة بعد الاستعمال . ان كل إناء وكل شيء في الكوخ له مكانه الخاص على الرفوف المختلفة

التي بنيت على الجدار . اما الجدران الطينية فقد غطيت بالطلاء الابيض الذي اشترته من ويرو وكانت غالباً ما تتفحصها لتسد الشقوق وتصلح أي خلل تراه فوراً . كانت تقول دائماً لمن يمتدح نظافتها «ليس للرجل مكان غير المكان الذي ينام فيه» . لم يرها واروي منذ يوم القربان الكبير . بقي الناس في ثاباي يومين منشغلين بأمورهم الخاصة وقد تجنبوا المناقشات العامة في أحداث يوم الاستقلال . هناك اشياء حيرت واروي وأسئلة تبحث عبثاً عن أجوبة لها في قلبه . عندما فشل في ذلك جاء لرؤية وامبوي . تبادلا الحديث كأن كلاً منهما لا يعرف ما يتحدث به الآخر ، وكأنهما يخجلان من التحدث في موضوعات معينة وهما معاً .

قال في محاولة أخرى للحديث : «ربما قتلها هذا البرد»

ـ «من ؟»

ـ «المرأة العجوز»

قالت وقد تنهدت : «نعم ، نحن جميعاً نسيناها في ذلك اليوم . كان يجب ان لا نتركها وحيدة . كانت كبيرة السن . لقد قتلتها الوحدة» .

ـ «لِمَ في ذلك اليوم ، انني اسأل نفسي دائماً . لقد اعتادت ان تعيش وحيدة ، أليس كذلك ؟» .

ـ «كانت الحياة تجري حولها ، الدخان وصوت الأطفال . في ذلك اليوم ذهبنا جميعاً الى الاجتماع . جميعنا . لم يكن هناك دخان في أي مكان ولم تكن هناك صرخات أطفال أو ضحكاتهم في الشوارع . كانت القرية خالية» . كانت تتحدث كأنها تتحدث عن قضية في

أحدى المناقشات .

أصر واروي على شكوكه : «ولكن ، لِمَ في ذلك اليوم ؟» . انضم هو أيضاً الى المناقشة في قلبه .

ـ «كانت وحيدة ألا تسمع ؟ جاءها ابنها . أخذها جيتوغو الى البيت في ذلك اليوم» . أنهت كلامها وهي منزعجة نافدة الصبر .

ـ «نعم . بدأت الأمور تتغير في القرية منذ بدأت ترى صور الموتى»

نظرت اليه وامبوي ولكنها لم تقل شيئاً هذه المرة .

أستمر واروي في حديثه : «وذلك اليوم . ذلك اليوم ! اولاً كسرت ذراع جيكونيو»

توقف توقفاً غير متوقع والتفت الى وامبوي . كانت تنظر الى زخات المطر في الخارج غير عابئة بكلامه وبالاسئلة في قلبه . حين نظر الى الاتجاه نفسه رأى مومبي تظهر بين الضباب على بعد ياردات قليلة من الباب . دخلت مومبي الى الكوخ وقدماها مبللتان وقد علق بهما الطين . كان الماء يقطر من الكيس الذي غطت به رأسها وظهرها . أزاحت الكيس ونفضته قليلاً قبل ان تعلقه على الرف . قدمت لها وامبوي كرسياً قرب الباب .

قالت مومبي : «الجو بارد» وحاولت التماسك وهي تصدر هسيساً عندما تستنشق الهواء عبر أسنانها المصطكة ، «لست محظوظة هذا اليوم . إن أمي تعد النار الآن في البيت ، لذا فقد اسرعت الى هنا لانكم تملكون ناراً موقدة دائماً . انظروا ماذا أجد» .

سألت وامبوي : «هل ذهبت الى المستشفى اليوم ؟»

ـ «نعم . كنت هناك مع أم زوجي . أنا أذهب الى هناك كل يوم»

ـ «كيف حال ذراعه ؟»
ـ «إنها ليست مكسورة ، بل مشروخة . سيخرج من المستشفى قريباً»
بدأ واروي ثانية وهو يتابع أفكاره ببطء «حدث خطأ ما . كل انسان ذهب الى هناك . وقبل دقيقة من الموعد امتلأت الساحة بالناس مثل أيام هاري في المظاهرات كما تعلمين . ثم أختفى الجميع . خلت الساحة تماماً . لم يبق غير أربعة فقط (وربما خمسة) . ذبحنا الخراف وصلينا من أجل قريتنا . لكن الأمر كان أشبه بماء حار في فم انسان عطشان . لم يكن كما انتظرت طوال هذه السنين» .
ـ انت تقول ذلك . لقد حدث الشيء نفسه لي ولكل انسان . لم أتوقع أبداً أنه هو ... أن موغو قد فعل فعلته .» تلفظت وامبوي بصعوبة الاسم الذي كانت هي وواروي يتجنبانه . لم تقل مومبي برهة اي شيء .
قالت مومبي أخيراً بصوت متغير : «لم يعثروا عليه» .
أجاب واروي كأن مومبي طرحت سؤالاً : «لم يره أحد منذ ذلك اليوم» .
ـ «ذهبت هنالك ليلة أمس . لم يكن الباب مقفلاً أو موصداً بالمرتاج من الداخل . لم أجد أحداً هناك»
لاحظ واروي : «ربما غادر القرية»
ـ «أو ربما كان يقضي حاجته عندما دخلت» .
ـ «لكني ذهبت الى الكوخ هذا الصباح قبل أن اذهب الى

المستشفى»

ألقت نسمة قصيرة برخة مطر في وجوههم . مسحت وامبوي الماء من وجهها بظاهر يدها . أحنى واروي رأسه ومسح وجهه بالبطانية . رجعت مومبي الى الخلف كأنها تدفع كرسيها ولم تفعل شيئاً . عادوا الى أماكنهم قرب الباب .

قالت مومبي بحسرة : «ربما استطعت انقاذه . ربما استطعت لو أني ذهبت الى كوخه تلك الليلة» .

سألت وامبوي بسرعة وحولت عينيها بعيداً عن مومبي : «عمن تتكلمين ؟»

ـ «موغو .»

قالت وامبوي ببطء : «لم يكن هناك شيء يمكن انقاذه . أتسمعين ؟ لا لم يكن بوسع أحد انقاذه ... لانه ... لم يكن هناك شيء ينقذ .»

ـ «لكنك لم تري وجهه ياوامبوي ، لم تريه» . كان صوت مومبي حماسياً . ثم أخفضت صوتها وواصلت «أعني الليلة قبل الاجتماع . عندما ارسلتني لرؤيته . تغير وجهه وكأنه يعاني من ألم في قلبه ، اعني ، كان وجهه مختلفاً حين اخبرني عن ــ »

سألت وامبوي وواروي معاً «ماذا ؟» لقد اثار هذا الخبر اهتمامهما .

ـ «عن أخي كيهيكا»

ـ «كنت تعرفين ؟»

ـ «نعم ، هو الذي اخبرني»

قالت وامبوي بلهجة اتهام وقد فقدت اهتمامها بالخبر : «كان عليك ان تخبرينا بذلك قبل الاجتماع»

ـ «لم أرد أن يحدث اي شيء . لم أكن أعرف انه سيأتي الى الاجتماع» وافق واروي وقد استعاد افكاره بصوت مذهول محبط «ذلك حق . لقد خدعتني عيناه . لكني سألت نفسي : لماذا فعل ما فعل في الخندق وفي المعتقل ؟»

كانت مومبي أول من يستعيد وعيه من مزاج التأمل هذا . قالت : «يجب ان اذهب الآن . انا واثقة بان النار قد اعدت الآن في البيت . ربما ليس علينا أن نقلق كثيراً بسبب الأجتماع ... أو ... على موغو . علينا أن نعيش» .

وافق واروي : «نعم . علينا ان نبني قريتنا» .

لاحظت وامبوي : «وغداً نبني السوق . ثم نحرث الحقول ونهيئها للموسم القادم»

حاولت ان تنفذ بعينها الى ما وراء المطر والضباب .

ـ «وأن نعتني بالأطفال» . أنهت مومبي الحديث عندما نهضت وأخذت كيس المطر إستعداداً للذهاب . ثم استدارت فجأة الى العجوزين كأنها تنظر الى حكمة قديمة يمكن ان تروي للشباب أسرار الحياة والسعادة .

ـ «هل رأى أحدكما الجنرال ليلة الاجتماع ؟»

نظرت اليها وامبوي بعينين ملؤهما الخوف . أجاب واروي دون أن يحول عينيه عن المطر .

ـ «لم أره منذ أن تحدث في الاجتماع»

ـ «ولا أنا» قالت وامبوي ذلك بلهجة تدفع عنها اية مسؤولية امام تحريات الشرطة المحتملة .

خرجت مومبي . خرج واروي خلفها وهو ما يزال يردد لنفسه «حدث خطأ . خدعتني عيناه . ربما لانني عجوز . انا افقد نظري» .

جلست وامبوي وراقبت رذاذ المطر والضباب الرمادي بضع دقائق . كان الظلام يزحف الى الكوخ . ضاعت وامبوي في وعي ثابت للانحدار المريع في أنشطتها النضالية من اجل الحرية . همهمت ، ربما كان الأجدر بنا ألا نحاكمه . ثم هزت نفسها محاولة ان تعيد افكارها الى الحاضر وقالت : «علي ان اوقد النار . يجب ان انظف الغرفة اولاً . ما أسرع ما تتجمع الاوساخ في كوخ نظيف» . لكنها لم تنهض لعمل اي شيء .

هارامبي

كان وامومو آخر معسكر اعتقال لجيكونيو . احتجز هناك عاماً كاملاً ، عمل معتقلو هذا المعسكر في مشروع ري في سهول مويا في ايمبو . كانوا يحولون السهول الجافة الى حقول لزراعة الرز . حين كان جيكونيو يحفر القنوات كان ينظر عبر السهول المسطحة فيرى تلال مبير وينامبيني تقطع ايمبو من اوكا مباني . كان يعرف ان الاراضي خلفها تعود الى واكامبا . مع ذلك كان جيكونيو يتخيل دائماً أن البيت ومومبي خلف تلك التلال .

في صباح احد الايام المشرقة رأى كرينياجا . كانت قممها المغطاة

بالجليد والتي تلامس السماء في الافق البعيد قد اثرت في نفسه حد البكاء . لم يكن ذلك بسبب اعجابه الشديد بالمناظر الطبيعية . لكن منظر الجبل الاسطوري ورأسه المرفوع في الضباب قد اثر فيه بتلك الطريقة .

برزت تلك التجربة من جديد امام جيكونيو وهو يتماثل للشفاء في مستشفى تيمورو . ان رائحة الدواء في المستشفى ذكرته برائحة الهواء على طول نهر تانا . في اليوم نفسه عندما كان في مويا ، فكر ثانية وعلى نحو جدي في صنع كرسي من الخشب هدية زواج الى مومبي . بدأت الفكرة تدريجياً تأخذ شكلاً مادياً حين عمل في الشمس وبين حافة النهر والارض الطينية . سيحفر كرسياً من جذع مويري وهو خشب قوي ينمو حول تلال كرينياجا ونياندروا . سيقوم الكرسي على ثلاثة أرجل متخذة شكل اشخاص ذوي وجوه متعبة تعرق تحت الثقل . سيضع على الكرسي نموذجاً يمثل نهراً وقناة . ستكون هناك مجرفة او مسحاة ملقاة قرب القناة . فكر جيكونيو في ذلك النحت عدة ايام . كانت وجوه الرجال تتغير ، وقد غير ايضاً مواضع اكتافهم وايديهم ورؤوسهم . كيف يعمل نهراً من الخرز ؟ أليس عليه ان يستبدل المجرفة بفأس ؟ تحير في التفاصيل الصغيرة . وقد أراح ذلك ذهنه وقلبه من عناء التعب الجسدي . كان يأمل في .. أن يعمل في الكرسي حالما يغادر المعتقل .

عندما كان مستلقياً في المستشفى امتلكت جيكونيو مرة أخرى الرغبة في حفر الكرسي . بقي في تيمورو اربعة ايام . في الايام الثلاثة الاخيرة كان يفكر في موغو والاعتراف . هل يستطيع هو جيكونيو أن

يستجمع الشجاعة الكافية ليخبر الناس بالخطوات فوق الرصيف . استعرض ليلاً حياته وتجاربه في معسكرات الاعتقال السبعة . ما الذي جلبت له كل هذه السنين ؟

لدى كل فكرة كان يحس بعبء الذنب . خانته شجاعته واعترف على الرغم من قسمه بعدم الاعتراف . ما الفرق بينه وبين كرانجا أو موغو أو اولئك الذين خانوا الشعب جهاراً وتعاونوا مع الرجل الابيض لانقاذ حياتهم ؟ امتلك موغو الشجاعة لمواجهة جريمته وخسارة كل شيء . ارتجف جيكونيو من فكرة ضياع كل شيء . في كل صباح تجلب له مومبي ووانغاري الطعام . في البداية حاول ان لا يكلم مومبي . وجد من المؤلم حتى النظر اليها . ولكن بعد اعتراف موغو وجد نفسه يحاول ارباك افكار مومبي وعواطفها . ما الذي يختفي وراء وجهها . ما الذي رأته في موغو وأعترافه . بدأ تدريجياً يتشوق الى الحديث معها عن موغو وعن حياته في المعتقل . ما الذي ستقوله عن الخطوات التي سكنته ؟ فكرة اخرى زحفت الى ذهنه . لم ير نفسه ابداً أباً لأطفال مومبي . الآن خطرت بباله تلك الفكرة : كيف يبدو طفله من مومبي ؟

في اليوم الخامس تذكر مويا ورغبته في حفر الكرسي . تقلب في سرير المستشفى وحاذر النوم على ذراعه الملفوفة . في البدء كانت ومضة خاطفة من ذلك النوع الذي يحسه كلما رأى قطع الخشب . وبتأثير استمرارية التفكير في الموضوع بدأ يتحمس اكثر فأكثر وبدأت يداه تتشوقان للمس الخشب والإزميل . سيحفر الكرسي الآن بعد خروجه من المستشفى قبل أن يستأنف العمل أو خلال ساعات

الفراغ في اثناء العمل . فكر في التفاصيل . غيرً الاشخاص . سيحفر رجلاً نحيفاً ذا خطوط حادة في وجهه وهو يحني رأسه وكتفيه ليسند الحمولة . ستكون يده اليمنى ممدودة لتمسك بيد أمرأة ذات خطوط حادة في الوجه أيضاً . وسيكون الشخص الثالث طفلاً تلتقي على كتفيه او على رأسه يدا الرجل والمرأة . بأية صورة سيرتب الخرز على المقعد ؟ هل يرتبها بصورة حقل يحتاج الى عزق وزراعة ؟ أو مجرفة ؟ أو زهرة فاصوليا ؟ سيبت في الأمر حينذاك .

في اليوم السادس لم تظهر مومبي في المستشفى . جرح جيكونيو واندهش لاكتشافه مدى تشوقه الى تلك الزيارة . بقي طوال اليوم قلقاً يتساءل عما حدث لها . هل كفت عن المجيء ؟ أهو رد فعلها من صمته الفظ ؟ انتظر بلهفة بزوغ الفجر في الصباح التالي . اذا لم ـــ

لكنها جاءت وحدها . إنها تأتي كالمعتاد هي ووانغاري معاً لزيارته .

قال بلهجة اتهام : ـ«لم تأتِ امس» جلست مومبي على السرير وتريثت قبل أن تجيب .

قالت ببساطة : «كان الطفل مريضاً» .

ـ «ماذا ، ما الذي اصابه ؟»

ـ «فقط زكام ، أو رشح»

ـ «هل ذهبت به الى المستوصف ؟»

قالت بأقتضاب «نعم» . حاول جيكونيو ان لا ينظر اليها . بدت مومبي نافدة الصبر وارادت ان تذهب .

سألت : «متى تغادر المستشفى ؟»

ـ «خلال يومين» . استدار اليها الآن والتقت عيونهما ، لم تكن تنظر اليه . أدهشته رؤية ذلك الاجهاد في عينيها . كم مضى عليها في هذه الحال ؟ ما الذي حدث لها خلال اليومين الماضيين ؟ .

قالت : «انا ذاهبة الآن . ربما لن أزورك غداً ، أو بعد غد» بدأت تضع بعض الاشياء في الحقيبة بإصرار . اراد ان يقول : لا تذهبي . لكنه قال فجأة : «لنتحدث عن الطفل»

ادهشت مومبي هذه الكلمات وكانت قد نهضت على قدميها . جلست ثانية ونظرت اليه .

سألت دون انفعال : «هنا ، في المستشفى ؟»

ـ «نعم ، الآن»

قالت بنفاد صبر وكأنها كانت حقاً مدركة إستقلالها : «كلا ، ليس اليوم» .

أدهش جيكونيو الأصرار الجديد في صوتها .

قال ! «حسناً . عندما أخرج من المستشفى» . ثم اضاف بعد وقفة سمجة «هل تعودين الى البيت وتشعلين النار وتحرصين على أن لا تتحطم الاشياء ؟»

فكرت في ذلك برهة وأدارت رأسها عنه . ثم نظرت مباشرة الى عينيه .

«كلا ، ياجيكونيو ، يحاول الناس ان يزيلوا الأشياء ، لكنهم لا يقدرون . ليست الأمور بهذه البساطة . ان ما حدث بيننا أكبر من ان ينتهي بجملة . نحتاج الى ان نتحدث وان يفتح كل منا قلبه للآخر

ونختبرهما ثم نخطط معاً للمستقبل الذي نريد . إلا أنني يجب أن اذهب الآن ، لإن الطفل مريض»

سأل : «هل تأتين غداً ؟ لم يكن قادراً على اخفاء لهفته وخوفه . عرف فوراً انه سيأخذ بنظر الأعتبار مشاعرها وأفكارها ورغباتها في المستقبل . انها مومبي جديدة . مرة ثانية فكرت في سؤاله بعض الوقت . قالت – «حسناً ، ربما آتي» ثم غادرت . سارت بخطى واثقة ، ربما كانت حزينة ولكنها واثقة . راقبها الى أن اختفت خلف الباب ، ثم غطس في فراشه . فكر في هدية الزواج ، كرسي محفور من خشب مويري . «سأغير شكل المرأة . سأحفر إمرأة كبيرة – كبيرة مع طفل .»



تصميم الغلاف : كريم سعدون

حبة قمح

تصّور «حبة قمح» الحياة السياسية في كينيا قبيل الاستقلال وكيف وقف الافارقة والاوربيون موقف المتفرج من القتال الدائر هناك ومن ظهور العالم الجديد ليروا ماربحوا وما خسروا . لقد نظر هؤلاء الى دواخل نفوسهم فوجدوا انها مريبة تبعث على الشك ، ونظروا الى ماقدمته ايديهم فوجدوا انها تافهة تبعث على الأسى .

عن المؤلف ونتاجه القصصي

برزت شهرة المؤلف اول مرة بعد نشر قصته (لاتبكي ايها الطفل) في عام ١٩٦٤ ، وهي واحدة من القصص القلائل التي جعلت الادب الافريقي في مصاف الادب العالمي من حيث الجدة والاصالة .

من قصص المؤلف الاخرى : النهر بيننا ، أوراق من دم ، شيطان على الصليب .



السعر: ١٫٢٥٠ دينار

دار المأمون للترجمة والنشر